ABU ABDO ALBAGL

المركز القومى للترجمة

برتراند رسل

ميراث الترجمة

نحو عالم أفضل

ترجمة ومراجعة

درينى خشبة

عبد الكريم أحمد

مدونة أبو عبدو

المشروع القومى للترجمة

1155

6895

نحو عالم أفضل

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
محرر السلسلة : طلعت الشايب

– العدد : ١١٥٥
– نحو عالم أفضل
– برتراند رسل
– درينى خشبة
– عبد الكريم أحمد
– الطبعة الأولى ١٩٥٦
– ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

PRINCIPLES OF SOCIAL

RECONSTRUCTION

B. RUSSEL

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة .

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

نحو عالم أفضل

تأليف : برتراند رسل
ترجمة ومراجعة : درينى خشبة
وعبد الكريم أحمد

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رسل ؛ برتراند (١٨٧٢ - ١٩٧٠)

نحو عالم أفضل / تأليف برتراند رسل ؛ ترجمة ومراجعة : درينى خشبة ، عبد الكريم أحمد - ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧

٢٠٠ ص ؛ ٢٤ سم - (المركز القومى للترجمة ؛ العدد ١١٥٥)

١ - الاصلاح الاجتماعى

(أ) خشبة ، درينى (مترجم ، ومراجع)

(ب) أحمد ، عبد الكريم (مترجم ومراجع مشارك)

(جـ) العنـــوان ٣٠١,٢٤٢

رقم الإيداع ٢٠٧٥٦/٢٠٠٧

الترقيم الدولى .I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

دف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
ارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
ى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

الألف كتاب

نحو عالم أفضل

(٦٨)

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (٦٨)

نحو عالم أفضل

تأليف

برتراند رسل

ترجمة و مراجعة

دريني خشبه و عبد الكريم احمد

مقدمة الترجمة

ليس في العالم كله من ينكر قيمة آراء رسل الاصلاحية في كل فرع من فروع الحياة ، ولا سيما فيما يمس الشئون السياسية ، أو شئون التعليم ، أو الاصلاح الاجتماعي في جميع نواحيه ... وقد يحسب الناس أن رسل هذا فيلسوف هدام ... ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ... فهو ابن لورد واسع الثرورة ، مات وابنه ـ هذا الفيلسوف ـ في الثالثة من عمره ـ كما توفيت أمه قبل ذلك بسـنة تقريبا ... لكن الطفل ، الذي أصبح أعظم فلاسفة العالم الأحياء ، لم يشعر قط بمرارة اليتم ، لأنه نشأ في قصرجده الايرل جون رسـل ... ولمـا شب الطفل عن الطوق ، كان يشرف على الدنيا ـ وبالأحرى على المجتمع الذي أصبح طبيبه المداوي ـ من ذروة برجه العاجي ... فكيف يتم له تشخيص أمراض هـذا المجتمع ، بل أمراض الانسانية كلها بما ورثت من تقاليـد وعقـائد وآداب وفلسفات ، وهو لم يتمرس بآلامها ، ولم يشق بما شقيت به من تجارب ومحن ؟ ... على أن هذا اعتراض لا وزن له ... لأن الأطبـاء الذين يعالجون أمراضنـا ، قد لايصاب واحـد منهم بأي مرض من مئات الأمراض التي يعالج مرضاه منها ... وهـكذا رسل ... الذي ولد سنة ١٨٧٢ وفي فمه ملعقة من ذهب ... وراح يؤلف كتبه ، ويصف العـلاج لكل علة اجتماعية ، وهو يشرف على الدنيا من برجه العاجي ... لقد ورث عن أبيه حرية الفكر ... أبيـه الذي عزف عن المعتقـدات المسـيحية .. وأضرب عن الذهاب الى الكنيسة ، وتحمس هو وزوجتـه ـ ليدى رسل وأم الفيلسوف ـ لكل الآراء التي كانت تزلزل المجتمع في أواخر القرن التاسع عشر ، كالدعوة الى المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنيـة ، وحق المرأة في الانتخاب ، واباحة الطلاق ، وحرية الاعتقـاد ، وضبط النسل ، والغـاء المدارس التبشيرية ... الخ .

وكذلك نشأ رسل الابن ... لقـد كان يمقت أن تستعبد العقيدة أي

انسان من الناس ، ولا سيما هـــذه العقائد التى يتلقاها الأطفال دون أن يكون لهم رأى خاص فيها ، بالرغم مما تنطوى عليه من الخرافة والشعوذة الفكرية ... ولم يجبن رسل أن يصرح بأن الكنيسة هى التى تتعمد ذلك وتشاركها الدولة فيه .. لأنهما يريدان أن يطبعا الناس ، كل بالطريقة التى تجعل الناس أدوات طيعة لتنفيذ أهدافهما ، وذلك دون أن يقيما أى اعتبار لحرية الفرد ، ودون مبالاة بما يؤدى اليـــه ذلك من الغـــاء شخصيته ، ونسخ تفكيره ، ومسخ روحه ، والقضاء على ملكاته ومواهبه ، وهكذا ينشـأ المواطنون بلداء الأذهان ، مطبوعين على الصورة التى أرادتها لهم الكنيسة وأرادتهـــا لهم الدولة ، ثم يتكون الرأى العام بعد ذلك من هؤلاء ... والرأى العـــام فى البلاد الديمقراطيـــة هو الذى يتحكم فى مصائر هذه البلاد ... فماذا تكون النتيجة ؟ .

فحرية الفكر اذن ظاهرة وراثية فى دم هذا الفيلسوف الذى أعلم الملك شارل الثانى أحد أجداده (وليم رسل) لأنه كان من زعماء المطالبة بالاصلاح الدستورى ، والوقوف فى وجه الطغيان الملكى المستهتر العابث ... ومن هنا ... هذا العطف الذى لا يزال رسل يشعر به نحو مصر .. فلقد كانت مربيته الألمانية تعيره دائما بأن الانجليز قد دخلوا مصر بدون وجه حق، وأن وعودهم التى يرسـلونها مع الريح ، زاعمين أن احتـلالهم لمصر هو احتلال مؤقت ، وأنهم لابد جالون عنها .. هى وعود كاذبة ... كان رسل يثور على مربيتـه حينما تقول له ذلك ، ثم ينفى خلف الوعد عن مواطنيـــه ، ويؤكد أنهم ما داموا قد صرحوا بأنهم جالون عن مصر ، فانهم سـيجلون عنها .. وفى ميعـاد قريب .. فلما تطـــاول الزمن ، ولم يبر الانجليز بما وعدوا به من الجلاء .. حزن حزنا شديدا على مصر ، وعرف أن مواطنيه كذابون مخادعون ، وعزا ذلك الى الخطـــأ والانحراف فى التربيـــة التى يتلقاها الانجليز فى مدارسهم وهم أطفال ...

ورسل يطبق ذلك التفكير على جميع المصائب التى تقاسيها البشرية ... فهو يعزو أسباب الحروب كلها ، لا الى أسباب اقتصادية كما يفسرها غيره من المفكرين ، ولكن الى سوء مناهج التعليم فى مدارس الأمم جميعا ..

تلك المناهج التى تضع خطتها هيئات تختارها الدولة ، وتحبسهم فى مكاتب وزارات التربية ، وتطلب اليهم أن يرسموا خططـا معينـة ، تطبع لهم الناشئة على طابع معين ••• ليكونوا جنود الوطن ••• وليراعوا فى هذه الخطط أن يشحنوا رؤوس الأطفال بالزهو الوطنى والكبرياء التى تلقنهم أن بلادهم هى أعرق البلاد ، وأعظمها ، وأن لهـا من المجـد الحربى ما طأطأت له رؤوس الدول فى جميع عصور التاريخ ••• مما تجده مترجما فى هذا الكتاب ، فى فصل التربية •

أن رسـل •• الفيلسوف الرياضى المنطقى •• هو خامس الفلاسفة الانجليز التجريبيين •• بل هو أعظمهم •• ولعله أكثرهم انسانية •• لقد ذهل عندما شبت الحرب العالميـة الأولى ، وتضعضع قلبه لما قاسته الانسانية فيها من أهوال ••• وعجب كيف تجن الانسانية هذا الجنون فتقترف جرائم القتل بالجملة ، وبهذه الصورة البشعة ، بطوربيـد الغواصات ، وقنابل الطائرات ، ومهاجمة السفن والمدن ، وقتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن والمرضى ومن لا حول لهم ولا جريرة : لقد وضع الفيلسوف قلمه ، وخرج من ميـدان الفكر المجرد ••• وخلا الى نفسه ليضع خطة عملية لوقف هـذه المجزرة بعد تشخيص أسبابها ، وتشخيص علل البناء الاجتماعى فى العالم كله ••• تلك العلل التى أدت الى الكارثة العامة ••• فكان هـذا الكتاب ••• وكان هذا البرنامج الذى خرج به على الشعوب وعلى الحكومات فى الأرض قاطبة ••• وخـرج به والحرب العالمية الأولى فى عنفوانها ، والمذابح البشرية تضرج جنبات البر والبحر والسماء بالدماء البريئة التى سمح سوء التربية بسفكها فى توحش وفى جنون ••• لمجـرد اشـباع الغرائز البهيمية التى يضللها الزهو والكبرياء ••• تلك الغرائز التى تركت لها الدول حبلهاعلى غاربها ،وتركت لها الكنيسة حبلها على غاربها ، حتى أصبحت لها الغلبة على الروح وعلى العقل ، فعميت بصائر البشر ، وانقلبوا قطعانا من الذئاب والضباع والسباع يفترس بعضهم بعضـا ، ويسطو بعضهم على بعض ، ويريق بعضهم دماء بعض بلا واعز من ضمير ، ولا رقيب من خلق ••• ذاكرا ما تحض عليـه بعض الديانات من سفك الدماء ، وتلقيبها الله برب الجنود واله الشعب

الواحد المفضل عنده على جميع الشعوب ••• الى آخر هذه الأسباب التى خلقت الهوة بين أبنـاء البشرية ، ثم أشعلت نيران الحروب بينهم ، ونفخت فى أوارها •• من هنا نادى رسل لأول مرة فى التاريخ بالحكومة العالمية العادلة ، التى يجب أن يتم لها من القوة والسلطان ما يمكن أن تقف بهما فى وجه المعتدى فى أى صقع من أصقاع العالم ••• ثم أنحى باللائمة على بلاده ، مصرحا ، وسط المعمعة ، وعلى صليل السيوف وانفجار القنابل ، بأن شـطرا كبيرا من مسئولية هذه المجزرة يقع على عاتق انجلترا ، التى تريد أن تلتهم العالم كله •• وألا تترك منه لقمة واحدة لألمانيا •• ألمانيا التى لا تقل نشاطا وحيوية عن انجلترا ، ان لم تزد عنها •••

وذهل الانجليز ••• وعجبوا كيف يكتب رجل منهم ••• بل واحد من أبرز مفكريهم ••• هذا الكلام وينشره فى كتاب •• لا يلبث أن يترجم الى لغات العالم أجمع ••• ؟ ••• ولم يصبروا عليه •• بل عزلوه من منصبه كمحاضر فى جامعة أكسفورد ، بتهمة الدعوة الى السلام ، وممالأة الأعداء والحض على الثورة الداخلية بالقـاء السلاح ••• وكانت شهرة رسل قد سـبقته الى أمريكا ••• بل كان صـيته كواحـد من كبـار المفكرين الرياضيين المناطقـة قد ملأ جامعـات الولايات المتحدة كلها ••• تلك الجامعات التى حزنت أشد الحزن لهذه المعاملة السيئة التى عاملت بهـا انجلترا أحد أبنائها ••• بل أعظم هؤلاء الأبناء ••• وقد عينته جامعـة هارفارد أستاذا بها بالفعل •• لكن الحكومة الانجليزية رفضت أن تأذن له بالسفر الى أمريكا ••• لا نكاية فيـه فقط ، بل خوفا من أن ينشر فيها دعايته الواسعة للسلام ، وفى وقت كانت انجلترا تركع على قدميها أمام الرئيس ولسن ليزج بأمريكا فى الحرب الى جانب الحلفاء ، انقاذا لهم من بطش الجيوش الألمانية ••

على أن كتاب رسل ••• هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته العربية اليوم فقط ••• كان قد انتشر فى العالم أجمع ، وكانت الآراء التى جاءت فيه قد لقيت العناية التى هى جديرة بها من ساسة العالم ومفكريه أجمعين •

ثم وضعت الحرب أوزارها سـنة ١٩١٨ ، واجتمع مؤتمر السلام ،

وكانت قراراته مهزلة المهازل ، فثار رسل ٠٠٠ وأخذ يهاجم الجشع الانجليزى ، ويدعو الى السلام الصحيح ، بمقالات من نار ، ومحاضرات فى منتهى الجراءة ، فقبضت عليه الحكومة وحاكمته ، وحكمت عليه بالسجن ستة أشهر ٠٠٠ كانت خيرا وبركة على هذا الرجل العظيم ٠٠٠ فقد قضاها وهو يؤلف مقدمته فى الفلسفة الرياضية Introduction to Mathematical Philosophy ٠٠ ولما خرج من السجن زار روسيا ، وعاد منها ليؤلف كتابه عن البلشفية عملا ونظرا ٠٠٠ ثم سافر الى الصين ليحاضر فى جامعاتها بدعوة منها ٠٠ وهناك سر سرورا عظيما من طيبة نفوس الصينيين ونبل أخلاقهم ٠٠ لكنه حزن عندما رأى الحكومة الصينية تضطر الى الاخذ (بنجاسات الغرب !) وأسلحته لتقاوم أطماعه ! فعاد من الصين بعد أن كاد يموت فيها بالتهاب الرئة ٠

ثم دخل البرلمان الانجليزى ٠٠٠ عضوا عن حزب العمال ، سنتين ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ٠٠٠ ثم توفى أخوه فورث عنه لقب ايرل سنة ١٩٣١ ٠٠ وهو طوال هذه السنين يؤلف الكتب العظيمة فى الفلسفة الرياضية وغيرها ٠٠٠ الكتب التى سيخلد بها اسمه ، وان لم يذكرها الساسة ورجال التربية وعلماء الاجتماع بجانب كتبه الجريئة التى يجفل منها الشياطين بسبب ما فيها من أفكار تقدمية لم يكن للعالم بها عهد من قبل ٠

ولقد أصبح يهتم بشئون التربية منذ أن صار والدا ٠٠٠ وآراؤه فيها تقوم على نقد النظريات المختلفة ، ثم تقرير مبادىء صريحة ، كان يشتط فيها أول الأمر ، اذ كان يدعو الى الحرية المطلقة ينعم بها التلاميذفى جميع مراحل التعليم ٠٠٠ والحرية المطلقة لا تعنى شيئا الا الفوضى ٠٠٠ وقد عاد أخيرا يعترف للمدارس بشىء من قسر التلاميذ على قدر من النظام ، القائم مع ذاك على احترام شخصية المدرس والمدرسة ، لا على تقديس ما يلقى على التلاميذ من آراء ٠٠٠ بشرط أن يكون المدرس مستأهلا لهذا الاحترام ٠

على أن الساسة والمصلحين لا ينسون هذا الكتاب بخاصة ٠٠٠ وقد كان ذكرهم اياه بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وحينماأخذوا يفكرون فى تنفيذ اقتراحه بانشاء عصبة الأمم ٠٠ فأنشأوها على نفس

الأسس التى أشار بها ، اللهم الا فكرة أن يكون للعصبة قوة مسلحة ٠٠٠ لأنهم لم يعرفوا كيف ينشئون هذه القوة ٠٠٠ على أننا نعلم من تاريخ العصبة أنها أخفقت اخفاقا ذريعا ٠٠ لأن شهوات الدو ل الكبرى تلاعبت بها ، واتخــذتها مطية لتحقيق أغراضها ، مما دعا ألمانيا الى احتقارها ، والانسحاب منهــا ٠٠٠ والعجيب أن جميع الأسباب التى ذكرها رسل ، وحذر العالم من أنها هى التى تدفع به الى الحرب ٠٠٠ هى التى أشعلت نيران الحرب العالمية الثانيــة ٠٠٠ وقد ذكرت الدول الكبرى كتاب رسل هذا مرة ثانية ، فعادت اليــه تدرسه فى امعان هذه المرة أيضا ٠٠٠ فلما أنشئت هيئة الأمم المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، كان هذا الكتاب أشــبه ببرنامج لها ٠٠ فى كل شيء ٠٠ حتى فى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ٠٠ فلقد أقاموا مجلس الأمن على ما يقرب من الأسس التى اقترحها رسل ، وأخذوا يعالجون مواضع الخلل فى بنائهم الاجتماعى ، وأباحوا الطلاق وان جعلوه مدنيــا بعيــدا عن الدين ، وعملوا على معونة الطبقات الممتازة من أهل الفكر مخافة أن تنقرض لخوف أبنائها من الزواج بسبب عجزهم المادى عن مقوماته ، واشفاقهم ـ فى حالة الزواج ـ من كثرة النسل خوفا من كثرة الانفاق وقلة الموارد ، وأنشأوا البنك الدولى لاقراض الأمم المحتاجة أو المتخلفة ، لتنفيذ الاصلاحات العمرانية الكبرى فى مختلف بقاع الأرض ، حينما تعجز الأمم منفردة عن تنفيذها ، وأخــذوا يعالجون عيوب التربية فى الأمم الراقية والأمم المتخلفة على السواء ، وأخذت تجارب التربية الأساسية تجرى فى كثير من بقاع العالم ٠٠ ومن جملتها مصر ٠ وأخذت مؤسسة اليونسكو تبث أضواء الثقــافة وتنشر نور العرفان على أسس عالميــة تهــدف الى التبشير بالاخاء الانســانى بين أهل الارض جميعا ٠٠٠ الخ ٠٠٠

ولكن !٠٠ هل عقلت الأمم الكبرى ؟! وهل اتعظت من المجزرتين السابقتين ! وهل كانت هيئة الأمم مبصرة يوم وافقت على قيام اسرائيل ؟ ومحق الشعب العربى من فلسطين ؟ وهل يصدر مجلس الأمن فى جميع قراراته عن عدالة ، وفى بعد عن مناورات الدول الكبرى ؟ وهل خلا الطريق من الشوك ، وسلمت النفوس من الدنايا؟ واذا كانت الدول الكبرى لاتزال

تدرس ما كتبه رسل فى هـذا الكتاب ، مما سجنته انجلترا الاستعمارية من أجله ، فهل جميع ما أشار به هو الصواب المطلق ؟ وهل ما يشير به من قصر الميراث على البطن الأولى من الورثة رأى سليم ؟ وهل ما كتبه فى أمور الزواج وما اليه من الصـلات الجنسية شيء يسيغه العقل ؟ وهل قيام أسطول عالمى وجيش عالمى اقتراح عملى مأمون المغبة بعـد أن أقرت الدول قيـام اسرائيل بتلك العقليـة البغيضة الخالية من المنطق والعـدالة وبعد النظر ! ..

وبعد أن رفض مجلس الأمن نظر قضية الجزائر الباسلة التى هبت تناضل الاستعمار الفرنسى البغيض ، فسلطت عليها فرنسا أسلحتها التى عجزت عن رد الجحافل الهتلرية ، فلما أخفقت هذه الأسلحة فى اطفاء جذوة الوطنية الجزائرية ، راحت فرنسا ، مهد الحرية ، تسلط أسلحة حلف الأطلنطى على الأحرار الجزائريين ، وتحصد بها أرواح الأبرياء من الأطفال والنسـاء والعجائز ... وهيئة الأمم تتفـرج و ... تسكت ... ومجلس الأمن العاجز الأصم الأبكم ... الألعـوبة ... ينظر مذهولا ... ثم يرفض النظر فى قضية من أهم القضايا التى أنشىء للنظر فيها ... لأنها قضـية حرية شعب ، له حقوقه الانسانية ، كما لشعوب العالم جميعا حقوقها .

لنترك رسل يجيب .. ولنترك القارىء ينظر فيما يشير به فى هذا الكتاب .

المترجمان

تقديم

كتبت المحاضرات التالية في عام ١٩١٥ وألقيتها في أوائل عام ١٩١٦، وكنت آمل أن أعيد كتابتها بافاضة بحيث تصبح أكثر ملاءمة للموضوع الذى تعالجه لولا أعمال كانت أولى بالانجاز استغرقت معظم وقتي وصرفتني عن ذلك الأمل الذى أرى أن فرصة انجازه لا تزال بعيدة التحقيق .

والمقصود من هذه المحاضرات هو اقتراح فلسفة سياسية تقوم على ما أعتقده من أن « النزعات (١) » أبعد أثرا في تكييف حياة الانسان مما قد يقصده عن وعي وتفكير . ومعظم « النزعات » نوعان : نزعات اقتنائية وأخرى انشائية . فاذا كانت « النزعة » تهدف الى اقتناء شيء أو الاحتفاظ بشيء لا يمكن أن تكون ملكيته مشتركة فهي نزعة اقتنائية ، واذا كانت النزعة ترمي الى خلق شيء ثمين من معرفة أو فن أو خير مثلا ــ وجميعها أشياء ليس فيها ملكية خاصة ــ فهي نزعة انشائية . وعندى أن أسمى أنواع الحياة هي التي تقوم في غالب أمرها على النزعات الانشائية ، وأسوؤها ما يقوم على حب التملك . والأنظمة السياسية ذات أثر عظيم في ميول الناس ، ولهذا وجب تكييفها بحيث ترتقي بالنزعات الانشائية على حساب النزعات الاقتنائية . فالدولة والحرب والملكية هي الرموز السياسية الكبرى التي تتمثل فيها النزعات الاقتنائية . أما التعليم والزواج والدين فيجب أن تتمثل فيها النزعات الانشائية ، ولو انها الآن تؤدى ذلك بصورة قاصرة تماما ، ان تحرير النشاط الانشائي ينبغي أن يكون أساس الاصلاح في شئون السياسة وفي شئون الاقتصاد على السواء ، وهذه العقيدة التي أومن بها هي التي حدت بي الى كتابة هذه المحاضرات .

ب . ر .

---

(١) impulse تترجم هذه الكلمة عادة اما بدافع أو باعث ولكن السياق هنا يعنى نزعة ففضلناها ..

١

أساسُ النّموّ

كان من أثر الحرب أن كل أولئك الذين لديهم استعداد لتقبل الأفكار والآراء الجديدة قد تطورت اعتقاداتهم وآمالهم السابقة تطورا يتوقف كنهه على طبيعة كل منهم وظروفه ، وعندى أن أهم ما نخرج به من دروس هذه الحرب (١)هو **وجهة نظر معينة فى مصادر التصرفات البشرية وماهية هذه المصادر ، وما عسى أن تصير اليه مستقبلا فى الحدود المعقولة ؛ ويخيل الى أن وجهة النظر هذه يمكن ـ اذا كانت صحيحة ـ أن تكون أساسا لفلسفة أكثر قدرة على الثبات فى أوقات الشدة مما أسفرت عنه سياسة الأحرار(٢) التقليدية ٠**

وعلى الرغم من أن محاضرة واحدة فقط من هذه المحاضرات هى التى تعالج موضوع الحرب الا **أنها جميعا نبتت من فكرة فى أسباب التصرفات البشرية أوحت بها الحرب** ٠ وقد حدا بى الى تدوين هذه المقالات أملى فى أن أرى أوربا يوما وقد تأصلت فيها أمثال تلك النظم السياسية الواردة فى تلك المحاضرات بحيث تجعل الناس ينفرون من الحرب ٠ وهو أمل أعتقد اعتقادا جازما أنه ممكن التحقيق ، وان تطلب هذا منا جهودا ضخمة لهدم الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ثم اعادة بنائهما من جديد ٠

والشخص الذى يقف بمنأى عن مضطرب المعتقدات والشهوات التى تجعل الحرب تبدو ضرورية ، يجد نفسه فى عزلة لا معدى عنها ٠٠ عزلة هى الانفصال الذى لا يكاد يطاق عن نشاط الحياة العامة ٠ ففى نفس اللحظة التى كانت فيها الطامة الشاملة (٢) تثير فى النفس أشد ألوان الألم ، كان هذا الألم ذاته يرغم الانسان على أن ينأى بنفسه عن هذه الموجة من الانتحار التى اجتاحت أوربا ٠ ان تشوفنا الذى لا طائل وراءه الى انقاذ البشرية من هذا الدمار الذى تسارع نحوه ليقضى علينا بالوقوف فى وجه التيار ، وما يتبع ذلك من عداء الناس لنا واتهامهم ايانا بتحجر الاحساس ، وفقداننا القدرة على اكتساب ثقة الغير ٠ انه ليستحيل علينا ان نمنع الناس من الشعور بالعداء نحونا ، الا أننا نستطيع من ناحيتنا ألا نقابل هذا العداء بمثله ، وذلك بالفهم الصحيح وما ينشأ عنه من مشاركة الغير فى عواطفهم ،

---

(١) يعنى الحرب الكبرى الأولى

(٢) Traditional Liberalism

أما اذا أعوزنا ذلك الفهم وتلك المشاركة ، فمحال أن نجد علاجا للشرور التى يعانيها العالم •

وثمة رأيان فى الحرب يبدو لى أنهما غير سليمين : أحدهما هو ذلك الرأى المألوف فى بلادنا ، والذى يعزو الحرب الى ما فطر عليه الألمان من شر ، والثانى هو ما يذهب اليه معظم دعاة السلم من أن الحرب نتيجة من نتائج التعقيدات الدبلوماسية وأطماع الحكومات ، وأحسب أن كلا الرأيين أبعد من أن يحددا لنا مدى تأصل الحرب فى طبيعتنا البشرية العادية ، فالألمان وأولئك الذين تتكون منهم الحكومات هم ، اذا حكمنا بمستواهم العام ، بشر عاديون يخضعون للانفعالات نفسها التى يخضع لها غيرهم ، ولا يختلفون عن سواهم الا فى الظروف المحيطة بهم ، كما أن غير الألمان ، ومن ليسوا دبلوماسيين ، يتقبلون الحرب بسهولة وفى اذعان ، ويسلمون بأسباب لقيامها غير صحيحة ولا كافية وما كان هذا أمرا ممكنا لو أن هؤلاء الناس كانوا ينفرون من الحرب حقيقة ؛ ان الأشياء غير الصحيحة التى يصدقها الناس ، والأشياء الصحيحة التى لا يصدقونها ، لهى دليل واضح على اتجاه نزعاتهم ، ولا أقصد هنا نزعاتهم كأفراد بل نزعاتهم كجماعات ــ اذ أن النزعة معدية • فنحن كثيرا ما نؤمن بما لا يقوم على صحته دليل أو برهان ، **لأن طبيعتنا تشتهى ــ على غير وعى منا ــ أنواعا معينة من النشاط لا تستساغ عقلا الا اذا اعتقدنا صحة أشياء لا يقوم على صحتها برهان • ان هذه المعتقدات التى لا أساس لها هى القربان الذى تقدمه النزعة الى العقل ، وهكذا يؤمن العقل بالمعتقدات المتضاربة ، وان تشابهت ، وهى المعتقدات التى تجعل الناس هنا وفى ألمانيا يؤمنون بأن واجبهم يقتضيهم اشعال نار الحرب •**

ولعل أول ما يتبادر الى ذهن من يسلم بصحة هذا التفسير ، أن من الخير للبشر لو أننا حكمنا عقولنا أكثر مما نفعل الآن ، فان الحرب ــ فى نظر الذين يؤمنون بأن شرها المستطير لا بد أن يصيب جميع المتحاربين بأضرار لا يتصور مداها ــ تبدو جنونا مطبقا ولوثة جماعية تنسى الناس كل ما تعلموه فى وقت السلم • فلو أن الناس سيطروا على نزعاتهم ولم يسمحوا لانفعالاتهم بأن تهيمن على عقولهم ، لوقاهم ذلك من التفكير فيما يقود الى الحرب ، ولأمكنهم تسوية نزاعاتهم بالطرق الودية •

ان هذا كله صحيح ، ولكنه وحده غير كاف •

ان أولئك الذين تحولت لديهم الرغبة فى الوصول الى المعرفة الصحيحة فصارت انفعالا ، هم وحدهم القادرون على ضبط مشـــاعرهم والتحكم فى نزعاتهم التى تقود الى المذابح البشرية • **اذ لا يستطيع الوقوف فى وجـه انفعال الا انفعال آخر ، ولا يحد من نزعة أو رغبة الا نزعة مضادة •**

فالعقل ـ كما يبشر به الأخلاقيون التقليديون ـ سلبى قصير الأمد ، قاصر عن أن يمهد السبيل لحياة رغدة • ولهذا لا يستطيع العقل وحده أن يمنع الحرب • بل ان الأمر فى حاجة الى أكثر من ذلك ، فى حاجة الى خلق مجموعة حية ايجابية من النزعات والشهوات مضادة للنزعات والشهوات التى تقود الى الحرب • ان السبيل الذى تسلكه النزعة هو الذى يجب أن يتغير ، وليس الطريق الذى يسلكه التفكير الواعى فحسب •

وتنبثق جميع أنواع النشاط الانسانى من مصدرين : النزعة والرغبة • والدور الذى تقوم به الرغبة فى حياة الانسان مسلم به بما فيه الكفاية • فعندما يجد الناس أنهم لا ينالون من الحياة ما يرضيهم كل الرضا ، وأنهم يعجزون عن الحصول فى الحال على ما يرضيهم ، فانهم يتصـوررون أشياء يعتقدون أن تحقيقها يجلب لهم السعادة • ولا بد لتحقيق الرغبة من فترة من الزمن تمضى بين الشعور بالحاجة الى الشىء المرغوب فيه وفرصة الحصـــول عليه • هذا وقد تكون الأفعال التى توحى بها الرغبة مؤلمة فى حد ذاتها ، وقد يكون الوقت الذى يمر قبل تحقيق الرغبة طويلا ، وقد يكون الشىء المرغوب فيه خارج نطاق حياتنا ، بل ربما كان بعـــد انتهائها • والارادة ـ كقوة موجهة ـ تهدف أول ما تهدف الى متابعة تنفيـذ الرغبة ، التى قد تكون بعيدة أو قريبة المنال ، على الرغم من أن بعض الأفعال التى يتطلبها تحقيق الرغبة تكون مؤلمة ، وعلى الرغم أيضا من الرغبات المؤقتة والنزعات المخالفة التى قد تغرى بالتحول عن تحقيق الرغبة الأصلية • كل هـــذا أمر عادى معروف ، وتقوم فلسفة الحكم التقليدية كلها تقريبا حتى الآن على الرغبة بوصفها مصدر التصرفات البشرية •

ولكن الرغبات لا تتحكم الا فى جزء من النشاط الانسانى ، وهو الجـزء الواعى الواضح المتمدين ، وليس الجزء الأكثر أهمية • أما الجزء الغريزى من

طبيعتنا فتتحكم فيه نزعات تدفعنا نحو أفعال بذاتها ، لا رغبات • فالطفل يجرى ويصيح ليس لأنه يتوقع تحقيق رغبة أو فائدة ، ولكن لأن نزعة لديه تدفعه الى الجرى والصياح بالذات ؛ والكلاب تنبح فى ضوء القمر لا لأنها ترجو من وراء ذلك مصلحة ، ولكن لأنها تشعر بنزعة تدفعها الى ذلك • فنحن عندما نقوم ببعض الأفعال كالأكل والشرب والزواج والمشاجرة والتفاخر لا نقصد من ورائها غرضا ما ، بل هى النزعات تدفعنا الى ذلك دفعا • ان أولئك الذين يعتقدون أن الانسان حيوان عاقل سيقولون انه انما ينزع الى المباهاة ليرفع من شأنه فى نظر الآخرين ؛ ولكن معظمنا يستطيع أن يتذكر مناسبات نزع فيها الى المباهاة رغم يقينه أنه سيقابل بالاحتقار من أجلها • ان الاعمال الغريزية تحقق عادة بعض النتائج التى يستريح اليها الرجل الطبيعى ، ولكنه لايقوم بهذه الأعمال رغبة فى هذه النتيجة ، اذ أن هذه الأعمال تدفع اليها نزعات كثيرا ما تكون قوية الى درجة تدفعنا الى التصرف تصرفا معينا حتى لو كانت النتائج المرغوب فيها غير ممكنة التحقيق عادة •• ويحب الرجل أن يتصور أنه يحكم عقله فى تصرفاته أكثر مما يفعل الطفل أو الكلب ، وهو يخفى عن نفسه ـ على غير وعى منه ـ الدور الكبير الذى تلعبه « النزعات » فى حياته ، ويتبع فى ذلك خطة تكاد تكون واحدة فى جميع الحالات • « فالنزعة » اذا لم يترك لها العنان فى اللحظة التى تجيش فيها ، نشأت فى النفس رغبة تحل محلها لتحقيق النتائج التى كانت النزعة تهدف اليها • فاذا كانت هذه النتائج ضارة ، نشأ صراع بين « النزعة » والبصيرة • وقد تنتصر البصيرة اذا كانت النزعة ضعيفة • وهذا ليس بتحكيم العقل • واذا كانت « النزعة » قوية ، فاما أن يموه الانسان على البصيرة ، ومن ثم يتجاهل العواقب الضارة ، أو يتحمل النتائج أيا كانت ، اذا كان مفطورا على الشجاعة •

ولكن مثل هذه الشجاعة وهذا الاندفاع فى النزعة أمر نادر ، فمعظم الناس عندما تشتد فيهم النزعات ينجحون فى اقناع أنفسهم عن طريق الانتخاب اللاشعورى للانتباه عادة بأن عواقب تحقيق نزعاتهم غير ضارة • وقد قامت مذاهب فلسفية وأخلاقية كاملة على هذا التمويه • وهى مذاهب ليست فى الواقع الا ثمرة لتفكير طغت عليه النزعة فجعلت منه مطية ،

بحيث تجعل لها مبررا فتصير أشبه بالتصرفات المبنية على العقل • **اذ أن التفكير السليم الوحيد هو ما ينبثق من نزعة حب الاستطلاع التى تؤدى الى الرغبة فى المعرفة والفهم** • ولكن معظم ما نعتقد أنه عمل ذهنى مجرد ليس فى الواقع سوى ايجاد نزعات لا تمت الى المعرفة بصلة ، وهو ليس سوى وسيلة نقنع بها أنفسنا أننا اذا أذعنا لهذه النزعة فلن نصاب بخيبة أمل أو نعمل شرا •

وعندما نكبت نزعة ما فاننا نشعربانزعاج ، بل ربما شعرنا بألم شديد • وقد نسمح بتحقيق النزعة لنتخلص من هذا الألم ، وعندئذ يصبح تصرفنا مبنيا على غرض • ولكن الألم لايوجد الا بسبب النزعة ، والنزعة موجهة نحو تصرف ما ، وليس نحو التخلص من الألم الناشىء عن كبتها • فالنزعة نفسها تظل بدون غرض ، أما غرض التخلص من الألم فهو لم يوجد الا نتيجة للكبت المؤقت •

وتلعب النزعات دورا أكبر مما تلعبه الرغبات كمصدر لنشاطنا •• ولا شك فى أن للرغبات قسطا فى توجيه هذا النشاط ، ولكنه ليس كبيرا كما يبدو ، فالنزعة عادة تجر وراءها سلسلة من الرغبات الوهمية التابعة لها ، وهذه الرغبات تجعل الشخص يعتقد أنه انما يهدف الى تحقيق نتائج بذاتها ، والواقع أن تحقيق هذه النتائج هو استجابة للنزعة التى لا دافع لها خارج ذاتها • فالانسان قد يؤلف كتابا أو يرسم صورة ، معتقدا أنه انما يفعل ذلك رغبة منه فيما قد يصيبه من ثناء ، ولكنه سرعان ما يفقد اهتمامه بما أتم ، ليبدأ عملا جديدا ، اذا كان عمله الأول لم يفلح فى اشباع النزعة الانشائية لديه •

وما ينطبق على الانشاء الفنى هو نفسه ما ينطبق على جميع تصرفاتنا الحيوية ، **فالنزعات المباشرة هى التى تحركنا ، أما الرغبات فليست الا ستارا للنزعات** •

وللرغبة ، باعتبارها نقيضا للنزعة ، نصيب كبير متزايد فى تنظيم حياة الناس ، فالنزعة فوضوية لا هدف لها ، وليس من اليسير اخضاعها لنظام معين • وقد يمكن التجاوز عنها في الأطفال والفنانين ، ولكن الشخص الذى يريد أن يتسم بالوقار لايستطيع أن يترك لنزعاته العنان • ومعظم الأعمال

التى يؤجر عليها الانسان تدفع اليها الرغبة ، لا النزعة ، وقد يكون العمل فى ذاته مرهقا مملا ، ولكن الأجر مرغوب فيه • وألوان النشاط الجدى التى تملأ ساعات العمل عند الانسان تتحكم فيها غالبا الأغراض ، لا النزعات، وذلك الا فى حالات نادرة لبعض سعداء الحظ • وبما أن مكانة النزعـــة فى الحياة الراضية غير معترف بها فقلما يعترض أحد على ذلك •

وتبدو النزعة ــ لمن لا يشترك فيها فعلا أو بخياله ــ كحالة من حالات الجنون • فالنزعات أولا وقبل كل شىء عمياء لا تأبه للنتائج ولا تقيم وزنا للعاقبة • وقد يبدو هذا الاختلاف فى وجهات النظر مسألة مبدأ أخلاقى أو مذهب عقلى ، بينما هو فى الحقيقة ناشىء عن اختلاف النزعات • وطالما بقى هذا الاختلاف فلن تتلاقى وجهات النظر • فكل أولئك الذين يعيشون حياة نشيطة قوية ينشأ لديهم نوع من النزعات يبدو لغيرهم جنونا • والنزعات العمياء قد تودى بصاحبها الى الهلاك فى بعض الأحيان ،ولكنها أحياناتؤدى الى أجمل ما تحويه الحياة • **فالنزعات العمياء هى سبب الحرب ، ولكنهاأيضا مصدر العلم والفن والحب • فليس المطلوب هو اضعاف النزعات ، ولـكن توجيهها التوجيه الصحيح نحو الحياة والنمو ، لا نحو الدمار والانحلال •**

ان تحكم الارادةالمطلق فى النزعات ،وهو مايبشر به الأخلاقيون أحيانا، والذى تكرهنا عليه الحاجة الاقتصادية فى معظم الأحوال ، ليس فىالواقع أمرا مرغوبا فيه • فالحياة التى تتحكمفيها الأغراض والرغباتفقط ،وتكبت النزعات ،لهىحياة جافة ، تنقصها الحيوية ، وتترك الشخص فى نهاية الأمر غير مكترث حتى بالأهداف والرغبات التى أراد أن يحققها • وعندما يعيش شعب بأسره على هذا الأسلوب ، فانه يتحول الى شعب ضعيف ، ويفقد القدرة على تمييز العقبات التى تحول دون تحقيق رغباته ، والتغلب عليها • ويعمل التصنيع والتنظيم باستمرار على ارغام الشعوب المتمدينة عـلى أن تحيا أكثر فأكثر حياة توجهها الأغراض دون النزعات • وتكون نتيجة مثل هذه الحياة ، أن تصبح بمضى الزمن جرداء خاوية ، أو أن تنشـــأ نزعات جديدة غير تلك التى تعودت الارادة كبحها ، أو غير تلك التى يستطيع أن يدركها العقل الواعى ، وهذه النزعات الجديدة خليقة بأن تكون أسوأ أثرا من تلك التى كبتت • فالمغالاة فى أخذ النفس بالنظام الشديد كثيرا ما ينجم

فيها نزعات تدفع للقسوة والتدمير ، وبخاصة اذا كان هذا النظام تفرضه قوة خارجة عن الشخص ؛ وهذا هو أحد الأسباب فى أن الروح العسكرية تترك أثرا سيئا فى الشعوب • فالنزعات التلقائية اذا لم تجد متنفسا ، كانت نتيجتها على الدوام تقريبا اما قضاء على الحيوية ، أو نشوء نزعات اعتدائية وضد الحياة •

ونزعات الشخص لا تحددها طبيعته منذ ميلاده ، ولكنها تتأثر الى حد بعيد بطريقة حياته والظروف المحيطة به • لذلك يجب دراسة طبيعة تأثر النزعات بهذه العوامل ، وأن تؤخذ نتائج هذه الدراسة بعين الاعتبار عند الحكم على آثار النظم السياسية والاجتماعية ، ومقدار صلاحيتها •

والحرب لا تنشأ عن رغبة أو تعقل ، بل تنشأ فى غالب الأمر عن النزعات• فهناك نزعة اعتداء ، ونزعة مقاومة الاعتداء • وقد تتفق احداهما أحيانا وما يمليه العقل ، ولكنهما والعقل على طرفى نقيض فى حالات كثيرة • وينشأ مع كل نزعة مجموعة من المعتقدات المصاحبة لها • ونستطيع أن نرى المعتقدات التى تصاحب نزعة الاعتداء فى برنهاردى Bernhardi وفى عقائد الفاتحين المسلمين الأوائل(١) • وترى على شكل أوضح فى سفر يوشع• فهناك أولا ذلك الاعتقاد فى التفوق الاسمى للمجموعة التى ينتمى اليها الشخص ، ويقينه أنها هى الشعب المختار • وهذا يبرر ما يشعر به من أن ما يصيب شعبه من خير أو شر هو وحده الجدير بالاهتمام الحقيقى ، وأن باقى العالم ليس الا ميدانا يعرض فيه الشعب المختار قوته • ونجد هذا الاتجاه فى الشئون السياسية الحديثة ، فمثلا فى مذهب التوسع الاستعمارى (الامبرياليزم) • تقف أوربا كلها هذا الموقف من أفريقيا وآسيا ، ويقفه الألمان من باقى شعوب أوربا نفسها •

وتسير جنبا الى جنب مع نزعة الاعتداء ، نزعة أخرى هى نزعة مقاومة

---

(١) لم يكن الذى دفع المسلمين فى صدر الاسلام الى فتح فارس والشام ومصر ، وبعد ذلك ما وراء هذه الأقطار ، هو نزعة الاعتداء التى اتهمهم بها المؤلف العظيم ، ولكن ذلك كان لتأمين الدولة الاسلامية التى أنشأها الرسول (ص) وما بلغ خليفته أبا بكر وعمر من استعداد الفرس والروم للقضاء عليها قبل أن تقضى عليهم •• ومن هنا كان الفتح الذى خلص الشعوب المفتوحة من مظالم لا ينكرها المؤرخون (المترجمان)

الاعتداء ، ونجد هذه النزعة ممثلة بوضوح فى شعور الاسرائيليين نحوسكان فلسطين القدماء ، وشعور أوربا فى القرون الوسطى نحو المسلمين . وينشأ عن هذه النزعة اعتقاد فى أن أولئك الذين يخشى اعتداؤهم قد فطروا على الشر الذى لا مثيل له ، واعتقاد فيما للعادات القومية التى يقضى عليهاهؤلاء المعتدون اذا أتيح لهم النصر من قيمة عظمى . فعندما اندلعت الحرب فى أوربا بدأ الرجعيون فى انجلترا وفرنسا يتحدثون عن الديمقراطية على الرغم من أنهم حتى هذه اللحظة التى قامت فيها الحرب كانوا يحاربون الديمقراطية بكل قواهم . وهم ليسوا منافقين فيما يقولون ، فنزعةمقاومة اعتداء ألمانيا جعلتهم يقدرون كل ما يخشى عليه من هجوم الألمان . فهم قد بدأوا يحبون الديمقراطية لأنهم يكرهون الألمان ، وأعتقدوا أنهم انما يكرهون الألمان لحبهم الديمقراطية .

وقد سادت النزعتان المتلازمتان ، نزعة الاعتداء ونزعة مقاومة الاعتداء ، فى جميع الدول التى اشتركت فى الحرب ، أما أولئكالذين لم تسيطرعليهم احدى هاتين النزعتين فيمكن تقسيمهم على وجه التقريب الى فئات ثلاث . فهناك أولا أولئك الذين يشعرون بالكراهية ضد الدولة التىتحكمهم ،وهذه الفئةتشملالارلنديينوالبولنديينوالفنلنديينواليهودوأفرادالشعوب المحكومة الأخرى .ونستطيع أننسقط هؤلاء الناسمن حسابنا فيمايتعلق بالموضوع الذى نعالجه ، اذ أن لديهم نفس النزعات التى لدى المتحاربين ، ولايختلفون الا فى الظروف المحيطة بهم .

وتتكون الفئة الثانية ممن لا يظاهرون الحرب من أولئك الذيناستكانت نزعاتهم . ويفترض أنصار الحرب أن جميع دعاة السلام ـ باستثناء من يعملون لحساب ألمانيا ـ ينتمون الى هذه الفئة . فالاعتقاد السائد هو أن دعاة السلام قوم عديمو الاحساس ولا حمية لديهم ، فهم يستطيعون أن ينظروا الى الأمور ويناقشوها عقليا فىهدوء وكأنما الأمر لا يهمهم،بينما اخوانهم يجودون بأرواحهم فى سبيل الوطن . ومن الجائز أن يصدق هذا على بعض دعاة السلام السلبيين الذين يقتصرون على الامتناع عن الاشتراك فى المجهود الحربى . وأنا أعتقد أن أنصار الحربعلى حق فى التنديد بمثل هؤلاء الناس . فعلى الرغم من كل الدمار الذى تسببه النزعات التى تؤدى الى الحرب ، فان مجال الأمل أوسع أمام شعب لديه هذه النزعات منه أمام

شعب ماتت لديه كل النزعات • ان النزعة هي الصورة التي تتجلى فيها الحياة، وطالما كانت موجودة فهناك أمل في أن يتجه التطور نحو الحياة ، بدلا من أن يتجه نحو الفناء ، ولكن انعدام النزعات هو الفناء ذاته ، ولا يمكن أن تنشأ حياة جديدة من العدم •

أما دعاة السلام العاملون فليسوا من هذه الفئة ، فهم قوم لا تنقصهم النزعات الدافعة ، ولكن نزعاتهم تدفع الى النفور من الحرب ، نزعات فيها من القوة ما يكفي للتغلب على نزعة الحرب • ان الرجل الذي يقذف بنفسه معترضا تيار الشعور الوطني ، الرجل الذي يدافع عن قضية يخيل للناس أن لا رجاء فيها ، ويعرض نفسه لقدح الناس فيه ويقاوم عدوى الشعور الجماعي ، ليس رجلا تنقصه الحمية • ان النزعة التي تدفع الى تجنب معاداة الرأي العام هي من أقوى النزعات في الطبيعة البشرية، ولا يتغلب عليها الا نزعة مباشرة قوية لا تعرف حسابا للعواقب• ان التفكير الهادىء لا يستطيع وحده أن يدفع الى عمل مثل هذا •

ويمكن تقسيم النزعات الى نوعين ، نزعات تعمل للحياة ، وأخرى تؤدي الى الفناء • والنزعات التي تدفع الى الحرب هي من بين النزعات التي تؤدي الى الفناء • وأي نزعة من تلك التي تعمل للحياة ، اذا بلغت حدا كافيا من القوة ، تدفع الشخص الى أن يقف ضد الحرب • وبعض هذه النزعات لا يكون قويا الا لدى من بلغوا شأوا بعيدا من الرقي ، وبعضها يشترك فيه جميع البشر • ومن أرقى النزعات التي تعمل للحياة تلك التي تدفع نحو الفن والعلم ، فكثير من الفنانين ظلوا بمنأى تماما عن شهوة الحرب ، ولم يكن هذا ضعفا منهم ولكن لأن غريزة الخلق والسعي نحو تحقيق المثل ، تجعلهم أحرص من أن يجرفهم تيار الشهوة الوطنية ، فلا يستجيبوا للأساطير التي تختفي خلفها نزعة الاعتداء • وكذلك القلائل الذين تهيمن عليهم النزعة العلمية ، فقد تنبهوا الى الخرافات التي يسوقها كل من الطرفين المتحاربين لتأييد وجهة نظره ، وقادهم الفهم الصحيح الى الوقوف على الحياد • ولكن هذه النزعات ، التي لا توجد الا عند صفوة من الناس ــ لا تكفي وحدها لخلق قوة شعبية تستطيع تغيير العالم •

وهناك ثلاث قوى لا تحتاج الى مواهب عقلية ممتازة تعمل الى جانب

الحياة ، وليست هذه القوى نادرة الوجود فى الوقت الحاضر ، وقد تصبح أكثر شيوعا فى ظل نظم اجتماعية أفضل • وهذه القوى هى الحب ، وغريزة الانشاء ، والشعور ببهجة الحياة ، والقوى الثلاث تكبحها وتضعفها فى الوقت الحاضر الظروف التى يعيش فيها الناس ، يستوى فى ذلك سيء الحظ منهم ، وغالبية القادرين فيهم • فنظمنا تقوم على الجور والسلطة ، ونحن انما نتغاضى عن وجود ألوان العسف والجور ، التى نستفيد منها ، لأننا نخلى قلوبنا من الرحمة ، ونعمى عقولنا عن الحقيقة • ان الفكرة التقليدية عن مقومات النجاح تؤدى بمعظم الناس الى حياة يضحون فيها بأكثر النزعات حيوية ، فتفقد الحياة بهجتها ، ويصبحون مرهقين فاترى الهمة ، فنظامنا الاقتصادى يقضى على جميع الناس تقريبا بأن يكرسوا أنفسهم لخدمة أهداف غيرهم ، ويجعلهم يشعرون بالعجز ، غير قادرين على الحصول الا على النزر اليسير من السرور الذى لا فضل لهم فيه ، وكل هذه الأشياء تقضى على حيوية الجماعة ، وعلى اتساع الأفق الوجدانى للفرد وقدرته على مواجهة الدنيا فى عزة • وكل هذه الأشياء لا ضرورة تحتم وجودها ، ويمكن القضاء عليها بالحكمة والشجاعة ، فاذا قضى عليها تغيرت النزعات فى الناس تغيرا كليا ، وسار الجنس البشرى نحو آفاق جديدة من السعادة والحيوية • والغرض من هذه المحاضرات هو العمل على تحقيق هذه الغاية •

ان نزعات الشخص ورغباته ، من حيث هى عوامل أساسية فى حياته ، ليست منفصلة عن بعضها ، فهى تنبعث جميعا من مصدر أساسى للنمو ، وهذا المصدر هو ضرورة غريزية ملحة توجهها وجهة معينة ، كما تتجه الأشجار نحو الضوء • وطالما ظلت هذه الحركة الغريزية تسير نحو هذا الهدف لا يعترضها عائق ، فان ما قد يحدث من عثرات ليس كارثة أساسية ، ولا ينشأ عنه التشويه الذى ينجم عن وجود عائق يحول دون النمو الطبيعى للشخص • ويجب علينا أن ندرك بخيالنا ذلك المصدر الأساسى المستقر فى صميم كل كائن بشرى ، اذا أردنا أن نفهم الانسان فهما أساسه البصيرة ، ويختلف هذا المصدر من شخص الى آخر ، ويحدد لكل شخص الناحية التى يستطيع أن يتفوق فيها • وخير ما يمكن أن تفعله النظم الاجتماعية للفرد هو أن تترك نموه حرا نشيطا ، فهى لاتستطيع أن تفرض عليه أن ينمو على نمط شخص آخر • ويوجد فى الانسان بعض

النزعات والرغبات التى لا تنبعث عن المصدر الأساسى مثل الميل نحو المخدرات ، ويجب أخذ النفس بالشدة والقضاء على مثل هذه النزعات اذا بلغت حد الضرر • وهناك نزعات أخرى مبعثها المصدر الأساسى عندبعض الأشخاص ، ولكنها ضارة بنمو الآخرين ، وهذه أيضا يجب أن تكبح لمصلحة الغير ،ولكن غالبا ما يكون السبب فى نشوء هذه النزعات هو أن أصحابها اعترض نموهم الطبيعى عائق ، وهى قلما توجد عند من لا يحول شىء دون نموهم •

والأشخاص مثل الأشجار ، يفتقر نموهم الى التربة الصالحة ، والى قدر كاف من الحرية ، والنظم السياسية تستطيع أن تساعد أو تعرقل هذين العاملين لدى الانسان ،ولو أن تهيئة التربة والحرية اللازمتين لنمو الانسان أصعب بكثير من تهيئة التربة والحرية اللازمتين لنمو الشجرة •ولا يمكن تحديد المدى الكامل للنمو الذى يمكن أن يصل اليه الانسان اذا تهيأت له الظروف ، فالأمر معقد محير للفهم ،وليس منسبيل الى ادراكه الا عن طريق الاحساس به بواسطة وجدان رقيق ، وفهمه بصورة ما عن طريق التخيل ، فهى لا تعتمد على البيئة المادية فحسب ، بل هى لا تعتمد على هذه البيئة بصفة أساسية ، بل تعتمد على المعتقدات والوجدان ، والفرص المتاحة لمزاولة النشاط ، وعلى كل ما يتعلق بحياة الجماعة • وكلما كان حظ الانسان من المدنية والتقدم أكثر ، زادت عوامل نموه تعقيدا ، وزاد تأثر هذه العوامل بالحالة العامة للجماعة التى يعيش فيها • فحاجات الشخص ورغباته ــ اذا كان واسع الأفق عميق الادراك ــ لا تقتصر على ما يتعلق بشخصه فقط ، فان ما يصيب الجماعة التى ينتمى اليها مناخفاق أو نجاح يصبح اخفاقا أو نجاحا شخصيا له ،يعوق الأول نموه ، ويغذيه الثانى •

وتعرقل بعض النظم الموروثة عن عصر أكثر بساطة مصدر النمو عند معظم الناس فى العصر الحاضر • فقد نشأت امكانيات جديدة للنمو عن تقدم الفكر والمعرفة ، وعن زيادة التحكم فى القوى المادية ، وقد أدت هذه الامكانيات الى ظهور مطالب جديدة يجب العمل على اشباعها ، اذا أردنا ألا يتوقف نمو أصحاب هذه المطالب ، لقد قل الاذعان للقيود التى لا مناص منها ،كما قل الأمل فىحياة طيبة طالما بقيت هذه القيود • فان النظم التى

تمنح بعض الطبقات فرصا أوسع من غيرها لم تعد الطبقات الأخرى الأقل حظا تعتبرها نظما عادلة ، على الرغم من أن الطبقات المحظوظة لم تزل تدافع عنها بكل قواها ، ومن هنا ينشأ صراع عالمى تجند فيه السلطة والتقاليد ضد الحرية والعدل • وتفقد المبادىء الأخلاقيـــة المعترف بها أثرها على الطبقات الثائرة لأن هذه المبادىء جزء من التقاليد التى تحـــاربها هذه الطبقات • وقدأصبح التعاون مستحيلا بين المدافعين عن القديم ، والداعين الى الجديد • واعترى كل العلاقات بين الناس انفصام فى الصميم لا ينفك يتزايد يوما بعد يوم بشكل ملحوظ • وقد ازدآد عجـــز الناس ـ بسبب انشغالهم بمعركة الحرية ـ عن تحطيم الحـــواجز التى تقيمها (الأنا) ، وتحقيق النمو الذى ينشأ عن اتحاد جيوى حقيقى •

وترجع نظمنا كلها الى مصدر تاريخى واحد هو (السلطة) ، فالسلطان المطلق الذى كان يتمتع به الحاكم الشرقى المستبد كان يقابله من الناحية المدنية الاله الواحد الذى لا حد لقدرته والذى كان تمجيـــده هو غـــاية ما يهدف اليه الناس ، والذى لا حق لانسان قبله •

وقد آل هذا الســـلطان الى الامبراطور والبابا ، والى ملوك العصـــور الوسطى ، والى نبلاء النظام الاقطاعى ، بل الى كل أب وزوج فى علاقته مع أولاده وزوجته • وتجسد السلطان الالهى فى سلطان الكنيسة ، وقامت الدولة والقانون على سلطة الملك ، ونشأت الملكية الفردية فى الأراضى من سلطة سادة الاقطاع المنتصرين ، وتحكمت فى الأسرة سلطة رب العائلة الذى منحته القوانين الرومانية مختلف الحقوق •

وما كانت النظم السائدة فى العصور الوسطى لتسمح الا لنفر ضئيل من المحظوظين أن ينموا بحـــرية ، وكانت الغالبية العظمى لا تعيش الا لخدمة هذا النفر القليل • وقد ظل مجتمع العصور الوسطى متماسكا وليس فى أساسه ما يقوضه ، وذلك طالما كان احترام السلطة حقيقيا صـــادرا من الأعماق ، يشعر به كل فرد من الخاضعين لهذه السلطة ، اذ كان ما يبدو من اذعان الناس لا يتعارض وشعورهم ا لداخلى بالحرية ، لأنه كان اذعانا عن طواعية وطيب خاطر ، والسبب فى هذا أن نظم المسيحية الغربية استندت فيما استندت اليه الى نظرية كان الايمان بصحتهـــا أكثر من الايمان بأية

نظرية تساق للدفاع عن نظمنا الحالية •

وقد انهارت الأسس التى قامت عليها الحياة فى العصور الوسطى لأنها عجزت عن أن توفر للناس ما يطلبون من عدالة وحرية • ولما تجاوز الحكام حدود سلطاتهم ا لنظرية ، اضطر ضحاياهم ـ تحت ضغط الاضطهاد ـ الى أن يتذكروا أن لهم هم أيضا حقوقا ، وأن ليس هنـــاك ما يبرر أن تصبح حياتهم وقفا على خدمة هذا النفر القليل من الحكام • وقد ظهر بالتدريج أن الناس يسيئون استعمال السلطة غالبا اذا وقعت فى أيديهم ، وأن السلطة عند ممارستها تصبح استبدادا • ولما أبى أصحاب السلطان على النـــاس ما طلبوه من عدالة ، تفرق الناس شيعا ، تقاتل كل منها فى سبيل حقوقها هى وحدها ، فلمتكن تؤلف مجتمعا أصـــيلا ، يؤلف بينه هدف حيوى مشترك • وعدم وجود هذا الهدف المشترك أصبح مصدرا من مصـــادر الشقاء • وأحد الأسباب التى حدت بكثيرمن الناس الى الترحيب بنشوب الحرب الحالية (١) أنها جعلتمن كل شعب مرة أخرى مجتمعا واحدايجمعه هدف مشترك • وقد أدت الحرب الى ذلك بعد أن قضت ـ الى وقت ما ـ على تباشير هدف مشترك للعالم المتمدين أجمع ، الا أن هذه التباشيركانت لا تزال ضعيفة الى حد أن القضاء عليهـــا لم يترك أثرا شديدا الا فى نفر قليل • وقد ابتهج الناس بهذا الشعور الجديد بوحدة مجتمعهم أكثر مما أسفوا للتباعد الذى قام بينهم وبين أعدائهم •

ان القتال فىسبيل الحرية اقتضى أن يكون النـــاس أقسى قلوبا وأكثر تباعدا عن بعضهم ، ولا ينتظر أن يزول هذا الأثر تماما فى المستقبل ،واذا أردنا ان ينمو مجتمع تدب فيه الحياة فلا مناصمن أن نغير نظمنا من أساسها بحيث تتضمن احترام الفرد وحقوقه ، الأمر الذى يتطلبه الشعور الحديث• فقد ألغت امبراطورية العصور الوسطى وكنيستهـــا الفرد تماما • وكان يوجد هراطقة ، ولكنهم كانوا معرضين للابادة بلا رحمة وبلا شىء من وخز الضمير الذى كان يصاحب حركات الاضطهاد التى جاءت بعد ذلك ،وقدكان هؤلاء الهراطقة ـ مثل مضطهديهم ـ يعتقدون أنه يجب ألا يكون فى العالم سوى دين واحد ، وكان الخلاف بينهم ينحصر فى نوع هذا الدين فقط • ثم جاءت النهضة فقوضت نظرية العصور الوسطى من أساسها لدى نفـــر

---

(١) الحرب العالمية الأولى

قليل من رجال الفن والأدب ، ولكنها لم تقدم بدلا منها سوى الشك وبلبلة الأفكار . وقدأحدث الثلمة الخطيرة الأولى فيهذه النظرية ماناديبه مارتن لوثرمن **أن رجال الدين غير معصومين من الخطأ ، وأن لكل فرد الحق في أن يحكم عقله فيما يؤمن به** . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأى أن نشأ مع مضى الوقت الاعتقاد بأحقية الشخص فى اختيار عقيدته الدينية دون تدخل من أى سلطة ، وهكذا بدأت معركة الحـــرية فى ميدان الدين ، وفى هذا الميدان كان انتصار الحرية أتم منه فى أى ميدان آخر (١)

اننا نستطيع أن نرى فى جميع مجالى الحياة تطـــورا أساسه الفردية والمطلقة ، وهوتطور يهدف الى الكفاح الذى يؤدى الى الاصلاح الشامل، كما هو المأمول . فهناك مطالب يتقدم بها بعض الناس باسم العدالة ، ويقاومهـا بعضهم باسم التقاليد والحقوق المكتسبة ، وكلا الجانبين يعتقد عن ايمـــان أنه أحق بالنصر ، اذ يوجد فى فكرنا نظريتان عن كيفية تنظيم المجتمع ، وكل شخص يختار ـ على غير وعى منه ـ النظرية التى تتفق وظروفه . ولأن المعركة طويلة وشاقة ينسى الناس تدريجيا النظريات ، ولا يبقى فى النهاية سوى تأكيد الذات ، وعندما ينال المظـــلوم حريته يصبح ظالما كســـادته السابقين .

ويرى هذا بصورة غير واضحة فى حالة ما يسمى بالقومية . فالقومية من الناحية النظرية هى المذهب القائل بأن الأفراد المتشابهين فى التقاليد، المتقاربين فى المشاعر يكونون بالطبيعة جماعات تسمى « شعوبا » ، كل منها تتولى أموره حكومة مركزية واحدة . وهذا المذهب مقبول من الناحية النظرية . ولكنا عند التطبيق نرى شيئا آخر . فيقول « القومى المضطهد» أنا أنتمى بمشاعرى وتقاليدى الى شـــعب أ ، ولكنى تحت حكم حكـــومة يتولى مقاليدها شعب ب . وليس فى هذا شىء من العدالة ، وذلك ليس فقط لأنه يتنافى ومذهب « القومية » ولكن لأن شعب أ الذى أنتمى اليه أفضل وأكثر تقدما ومدنية من شعب ب المتأخر الرجعى الهمجى ، ولذلك يجب أن

---

(١) كتب هذا قبل ان يصبح اعتناق المسيحية جريمة تعاقب بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ، وذلك بمقتضى المادة الثانية من قانون الخدمة العســـكرية (هذه الحاشية أضيفت سنة ١٩١٦).

يسمو شعب أ ويزدرى شعب ب » ولا شك أن أفراد شـــعب ب لن يعيروا أذنا صاغية لمطالب العدالة المجردة اذا كانت هذه المطالب مصحوبة بعداء وازدراء ، ثم لا يلبث شعب أ أن يسترد حريته كنتيجة من نتائج الحرب . ولكن الطاقة والشعور بعزة النفس اللذين استطاعا استخلاص الحـــرية يكونان قد ولدا قوة دافعة غالبا ما تستمر مؤدية الى محاولة الفتح الخارجي، أو الى رفض رد الحرية الى شعب أصغر . لقد كان الانجليز يقولون عن الأرلنديين : ماذا ؟ هل تقولون ان شعب حـ الذى هو جزء من دولتنا له قبلنا نفس الحقوق التى كانت لنا قبل شعب ب ؟ ان هذا تخريف . انه شعب فظ مشاغب ، لا يستطيع حكم نفسه ، وهو فى حاجة الى يد قوية تتولى أمره حتى لا يصبح مصدر تهديد لجميع جيرانه » . وهذا ما يقوله الألمان والروس عن البولنديين . وهو ما يقوله النمسويون عن المجر . وهو ما يقوله المجريون عن الصربيين . وهو ما يقوله الصربيون عن أهالى مقدونيا. وهكذا فان « القومية » ـ المذهب المقبول من الناحية النظرية ـ تؤدى فى حركة طبيعية الى الاضطهاد والحروب والفتح ، فبمجرد أن حررت فرنسا نفسها من الانجليز فى القرن الخامس عشر بدأت فوراً فى غـــزو ايطاليا ، وما ان تحررت أسبانيا من الحكم العـــربى حتى اشتبكت مع فرنسا فى نضال استمر أكثر من مائة سنة ، وذلك من أجل السيادة على أوربا . أما ألمانيا فلها حالة تبعث على الاهتمام فى هذا المجال . ففى أوائل القـــرن الثامن عشر كانت الثقافة الألمانية فرنسية بحته ، اذ كانت اللغة الفرنسية هى لغة البلاط الألمانى ، وهى اللغة التى كتب بها ليبنتز فلسفته ، وهى اللغة السائدة التى كانت تكتب بها العلوم والآداب الرفيعة ، فلم يكن هناك أثر يذكر لوعى قومى ، ثم جاء بعد ذلك عدد من الرجال النابهين الذين خلقوا شعورا باحترام النفس فى ألمانيا وذلك بما أنتجـــوه من شعر وموسيقى وفلسفة وعلوم . ولكن القومية الألمانية لم تظهر من الناحية السياسية حتى غزا نابليون ألمانيا ، وحتى ثورة الألمان ضده سنة ١٨١٣ . وبعـد قرون كانت خلالها كل القلاقل التى حدثت فى أوربا تبدأ باجتياح فرنســـا أو السويد أو روسيا لألمانيا ،اكتشف الألمان أنهم اذا اتحدوا وبذلوا مجهودا كافيا استطاعوا صد الجيوش المغـــيرة عن بلادهم . ولكن المجهود الذى بذلوه كان أكبر من أن يقف عندما استنفد أغراضه الدفاعية البحتة بعـد أن هزم نابليون . والآن ـ وبعد مرور مائة سنة ـ لم تفقد الحركة شيئا عن

قوة اندفاعها ، غير أنها تحولت الى الاعتداء والغرور ، ولا يمكن الحدس عما اذا كنا على وشك أن نشهد نهايتها الآن .

ولو كان لدى الناس أى شعور قوى بوجوب الاخاء بين الشعوب لكانت القومية وحدها كافية لأن يعرف كل شعب حدوده . ولكن لأن شعورهم بوحدة الكيان لا يتعدى حدود مجتمعهم الخاص ، فلا شيء سوى القوة يضطر كل شعب الى احترام حقوق الشعوب الأخرى حتى في الوقت الذى يطالب فيه هذا الشعب غيره باحترامهم حقوقه المماثلة .

ومن المنتظر ، بمضى الزمن ، أن يحدث تطور فى النضال بين العمل ورأس المال ، وهو النضال الذى بدأ منذ نشأة النظام الصناعى ، وأن يحدث تطور مماثل له فى النضال الذى لا يزال فى مهده ، بين الرجال والنساء .

ولابد لنا من مبدأ عام جديد يؤمن به الجميع مخلصين يهدف الى تحقيق العدالة ، وذلك اذا أردنا أن تسوى هذه الخلافات كلها ، فهذه الحال من الشد والجذب ، الناشئة عن « تأكيد الذات » المتبادل لا يمكن أن تنتهى الى اقامة العدالة الا اذا تعادلت القوى مصادفة . فليس هناك فائدة ترجى من وراء أى محاولة لتدعيم النظم التى تقوم على السلطة ، حيث أن جميع هذه النظم لابد أن ينشأ عنها ظلم ، والظلم اذا نشأ لايمكن أن يستمر دون أن يلحق أضرارا جسيمة بكل ممن يدافعون عنه ومن يقاومونه . وهذه الأضرار تجعل الانسان أكثر قسوة اذ يعمل على أن تصبح جدران « الأنا » أقوى فتحيلها سجنا بدلا من أن تكون متنفسا . آن نمو الفرد الذى يسير فى طريقه الطبيعى دون عائق يعتمد على صلات عديدة مع الآخرين ، وهى صلات يجب أن تأخذ طابع التعاون الحر ، لا صفة الخدمة الاجبارية . لقد كان التعاون يأخذ طابع الاذعان وعدم المساواة فى الوقت الذى كان يسود فيه الايمان بالسلطة ، أما الآن فلا مناص من التعاون والمساواة المتبادلة . فجميع الأنظمة ينبغى أن تعتمد ما أمكن على الاتحاد القائم على الرغبة ، لا على قوة القانون والسلطة التقليدية التى يتمتع بها أصحاب السلطان ، وذلك اذا كنا نريد ألا نقف فى سبيل النمو الطبيعى للفرد . وليس من بين نظمنا الحالية نظام يستطيع أن يظل على قيد الحياة دون تغيير أساسى شامل اذا طبقنا المبدأ السابق . وهذا التغيير واجب تمليه الضرورة حتى لا يتفكك العالم

فيصبح وحدات منفصلة كل منها فى حرب مع كل الوحدات الأخرى ٠

ان المصدرين الأساسيين للعلاقات الطيبة بين الأفراد هما الميل الغريزى والغرض المشترك ٠ وقد يبدو الغرض المشترك أكثر المصدرين أهمية من الناحية السياسية ، ولكن الغرض المشترك فى الواقع يكون نتيجة لميل غريزى أو نفور غريزى مشترك لا سبب لهما ٠ ان الجماعات البيولوجية ـ من العائلة الى الشعب ـ تعتمد فى تكوينها ، الى حد قد يزيد أو ينقص ، على الميل الغريزى ، ثم تقوم الأغراض المشتركة على هذا الأساس ٠

والميل الغريزى هو الشعور الذى يجعلنا نجد سرورا وبهجة فى صحبة شخص آخر ، ونرغب فى التحدث اليه ، والعمل واللعب معه ٠ وغاية مايصل اليه هذا الميل هو الحب بين الرجل والمرأة ، وهو ، حتى فى أضعف صوره ، ذو أهمية من الناحية السياسية ٠ ووجود شخص ممن يثيرون فى النفس نفورا غريزيا يجعل الانسان أكثر اقبالا على أى شخص آخر من الموجودين ، فان المسيحى الذى لا يحب اليهود يقبل على أى مسيحى آخر فى حضرة اليهودى ٠ وفى الصين أو فى غابات افريقيا يبتهج الرجل الأبيض لوجود أى رجل أبيض آخر ويرحب به ٠ فان النفور الغريزى المشترك هو الأكثر المصادر المألوفة التى ينشأ عنها ميل غريزى ٠

ويختلف الأشخاص اختلافا شديدا فى تعدد ميولهم الغريزية وعمقها ، بل ان الشخص الواحد قد يختلف الى حد كبير فى الأوقات المختلفة ٠ ونستطيع أن نأخذ كارليل ووالت هويتمان كطرفى نقيض فى هذا المضمار فكارليل كان يشمئز ـ على الأقل فى الفترة الأخيرة من حياته ـ من معظم الناس ، اذ كانوا يوحون اليه بنفور غريزى يجعله يجد سرورا فى أن يتخيلهم وقد طاحت المقصلة برؤوسهم أو أفنتهم الحرب ٠ وقد أدى به هذا الشعور الى الاقلال من شأن معظم الناس ، ولم يكن يبعث فى نفسه السرور الا أولئك الذين اشتهروا بأنهم قضوا على حياة أفواج كثيرة من البشر ، مثل فرردريك الأكبر والدكتور فرانسيا (١) والحاكم آير (٢) ٠ كما أدى

---

(١) دكتور فرانسيا ـ دكتاتور باراجواى ، عرف عنه استعمال القسوة الشديدة مع معارضيه والتنكيل بهم لأوهى الأسباب ٠

(٢) الحاكم آير ـ حاكم جامايكا ، اشتهر عنه العنف فى معاملة الزنوج ، وقد ثار ضده الرأى العام فى انجلترا ، وحوكم بتهمة استعمال القسوة الشديدة للقضاء على ثورة قام بها أهالى جامايكا ٠ ودافع عنه كار ليل وبرىء ٠ ولكنه أرغم على الاستقالة ٠

به الشعور نفسه إلى الشغف بالحرب وبالعنف ، واحتقار الضعيف والمضطهد مثل « الحائكات الثلاثون الألف الحزينات » اللائى كن موضع تهكمه الدائم • وتكاد تكون آراؤه الأخلاقية والسياسية فى أخريات أيامه من آثار شعوره بالكراهية للجنس البشرى بأكمله •

أما والت هويتمان (١) فقد كان ـ على النقيض من ذلك ـ ودودا، يحمل فى نفسه شعورا طيبا نحو الغالبية العظمى من الناس • وكانت فهارسه الشعرية الغريبة تبدو له مثيرة للاهتمام لأنه كان يتخيل كل قطعة منها صورة انسانية تبعث البهجة فى النفس • لقد كان هويتمان يجد فى كل الناس تقريبا ما يدعو الى الابتهاج ، وبالأحرى ذلك النوع من الابتهاج الذى لا يحسه أغلب الناس الا أمام الأشياء التى بلغت من الجمال حد الروعة • وقد نشأ لديه من حبه للناس تفاؤل ، وايمان بالديمقراطية ، واعتقاد راسخ بأنهم يستطيعون أن يعيشوا معا فى سلام ومحبة • وكانت فلسفته وآراؤه السياسية مبنية على شعوره الغريزى نحو العامة رجالا ونساء •

وليس ثمة سبب موضوعى يبرر اعتبار أحد هذين الشعورين أساسا معقولا أكثر من الآخر • فاذا حدث أن وجد أى انسان يرى أن الناس يبعثون على الاشمئزاز ، فليس ثمة ما يمكن أن نسوقه لنقنعه بأنه على خطأ • ولكن رغباته هو نفسه ورغبات الآخرين حرية بأن تجد ما يحققها لو كان أشبه بوالت هويتمان منه بكارليل • وان عالما كل أهله مثل هويتمان ليكونن أسعد حالا وأقدر على تحقيق أهدافه من عالم سكانه مثل كارليل • ولهذا ينبغى لنا ، ما استطعنا ، أن نستكثر من الميل الغريزى بين الناس ، والاقلال من نفورهم الغريزى • ولعل هذا هو أهم العوامل التى يجب أن نعمل حسابها عندما نحكم على صلاحية الأنظمة السياسية •

والمصدر الثانى لتوطيد العلاقات الطيبة بين الناس هو الغرض المشترك ، خاصة اذا كان غرضا لا يمكن تحقيقه الا بالتعاون • فان كثيرا من المنظمات، مثل النقابات والأحزاب السياسية يكاد الغرض المشترك وحده هو الذى يؤلف بين أعضائها ، ومهما حدث بعد ذلك من تآلف غريزى بينهم ، فهو

---

(١) والف هويتمان ـ شاعر وصحفى أمريكى ، يعتبره بعض النقاد أبلغ أديب انجبته الولايات المتحدة ، وضع ديوانا عبارة عن فهرس شعرى يصور فيه شخصيات من قابلهم أثناء تجواله فى كندا والولايات المتحدة • وعرف عنه حبه الشديد للناس وولعه بمساعدتهم • تطوع للترفيه عن الجرحى من جنود الشمال والجنوب على السواء فى الحرب الأهلية الأمريكية ••

ناتج من هذا الغرض ، وليس سببا له • والمنظمات الاقتصادية ، كشركات السكك الحديدية مثلا ، تقوم من أجل غرض معين ، ولكن هذا الغرض لا يلزم أن يوجد فى الواقع الا لدى المشرفين عليها ، أما العامل العادى فلاداعى لأن يكون له غرض ما ، سوى ما يبتغيه من الحصول على أجره • وهذا نقص فى نظام المنشئات الاقتصادية يجب علاجه • وهذا العلاج هو أحد الأهداف التى يرمى اليها النظام النقابى •

ويقوم الزواج ـ أو يجب أن يقوم ـ على الميل الغريزى ، ولكن متى وجد الأطفال ـ أو الرغبة فى انجاب الأطفال ـ ازدادت الرابطة الزوجية قوة بوجود عامل آخر هو الغرض المشترك • وهذا بخاصة ما يميز الزواج من العلاقات غير الشرعية التى لا يقصد من ورائها انجاب الأطفال • وكثيرا ما يستمر الغرض المشترك ، ويظل رباطا قويا يربط ما بين الزوجين ، بعد أن يكون الميل الغريزى قد تلاشى •

والأمة ، حينما تكون أمة حقيقية ، لا أمة ملفقة ، تقوم على قدر ضئيل من الميل الغريزى بين المواطنين ، وقدر كبير من النفور الغريزى المشترك من الأجانب • فعندما يعود الانجليزى من أوربا الى دوفر أو فولكستون ، يشعر بشىء محبب اليه فى عادات وفى تصرفات مواطنيه المألوفة لديه • فالحمالون الذين يبدو عليهم عدم الاهتمام ، وصيحات بائعى الجرائد ، والنساء اللاتى يقدمن الشاى الردىء فى المحال العامة ، كل هؤلاء يدخلون الى قلبه شعورا دافئا ، ويبدون فى نظره طبيعيين ، أقرب الى ما يجب أن يكون عليه الانسان مما يبدو الأجانب بمالهم من تصرفات غريبة • فهو على استعداد لأن يصدق أن كل الانجليز ناس طيبون ودودون ، بينما كثير من الأجانب قوم تملأ رؤوسهم الأفكار الخبيثة • وأمثال هذه المشاعر هى التى تجعل من السهل تنظيم الشعب وجعله وحدة ذات حكومة ، وعندما يحدث ذلك يتكون الغرض المشترك كما هو الحال فى الزواج • ان الأجانب يودون لو غزوا بلادنا وأن يعيثوا فيها فسادا ، وأن يبيدونا فى ميادين القتال ويذلوا كبرياءنا • وأولئك الذين يتعاونون معنا على اتقاء هذه الكارثة هم أصدقاؤنا ، ومعاونتهم لنا تضاعف من ميلنا الغريزى نحوهم ، لكن الأغراض المشتركة ليست المصدر الوحيد لحب الوطن • فحلفاؤنا مهما طال العهد

يتعاونهم معنا ـ لا يثيرون فينا من المشاعر ما يثيره مواطنونا • اذ أن الميل الغريزى الذى ينشأ الى حد كبير عن تشابه العادات والتقــاليد ، عامل جوهرى فى تكوين الشعور الوطنى ، بل هو فى الواقع الأساس الذى يبنى عليه هذا الشعور كله •

فاذا كنا نريد أن نجعل من البيئة عاملا يساعد النمو الطبيعى للناس ، لا أن نقيم فى سبيله العقبات ، واذا كنا نريد تحقيق أكبر قدر ممكن من رغباتهم ومطالبهم ، فيجب أن تتضمن الأنظمة السياسية ـ ما أمكن ـ أهدافا مشتركة ، وأن تعمل على تشجيع الميل الغريزى ، وهذان الهدفان مرتبطــان ، فليس هناك ما يقضى على الميل الغريزى مثل غرض حال دون تحقيقه حائل ، أو مثل رغبة لم تتحقق ، كما أنه ليس هناك ما يسهل التعــاون لتنفيذ الأغراض المشتركة مثل الميل الغريزى • والانسان اذا لم يعق نموه الطبيعى عائق يظل احترامه لنفسه سليما ، ويصبح أقل ميلا الى اعتبــار الناس أعداء ولكنه عندما يعترض نموه عائق ـ لسبب ما ـ أو يضطر لأن ينمو نمــوا مشوها وغير طبيعى ، فستبدو أمامه البيئة فى هيئة عدو ويمتلىء حقــدا ، وسيفقد الشعور ببهجة الحياة ويحل الشر فى نفسه محل المودة • ان الحقد الذى يملأ نفس الأحدب والمشوه هو مضرب الأمثال • ونجد نفس الحقد يملأ نفوس الذين أصابهم تشويه فى نواح أقل ظهورا • والحرية الحقيقيــة اذا أمكن تحقيقها ، تساعد كثيرا على القضاء على الكراهية •

وهناك اعتقاد شائع بأن كل ما هو غريزى فينا لا يمكن تغييره ، ويجب أن يقبل على علاته ، وأن يستغل أحسن ما فيه بقدر الامكان • وهذا غير الواقع تماما • فلا شك أن هناك مزاجا أصيلا فى كل منا يختلف باختــلاف الأشخاص ، وهو يتفاعل مع الظروف الخارجية مكونا شخصية الإنسان • ولكن حتى الجزء الغريزى فينا قابل للتشكيل ، فقد تغيره الاعتقادات ، أو الظروف المادية ، وقد تغيره الظروف الاجتماعية والنظم القائمة ، فغالبا ما يكون للهولندى نفس المزاج الأصيل الذى للألمانى ، ولكن غرائزهما تختلف تماما بعــد أن يبلغا مبلغ الرجال بسبب أن الهولندى ليس لديه الروح العسكرى والشعور بالكبرياء لدولة كبرى مثل الألمانى • وكذلك من الواضح أن الغرائز لدى العزاب تختلف اختلافا عميقا عنها لدى المتزوجين • ان كل الغرائز تقريبا قابلة للتشكيل فى تـوالب مختلفة بحسب المتنفس الذى يتهيأ

لكل منها • ونفس الغريزة التى تؤدى الى الخلق الفنى والعقلى قد تؤدى ــ اذا اختلفت الظروف ــ الى حب القتال • فلا معنى لأن نعتبر تصرفا معينا أو اعتقادا معينا غير قابل للتغيير لمجرد أن الدافع اليه غريزة من الغرائز • وينطبق هذا الميل الغريزى والنفور الغريزى لدى الناس ، كما ينطبق على جميع الغرائز الأخرى • فمن الطبيعى أن يحب الانسان ــ مثله فى ذلك مثل سائر الحيوانات الأخرى ــ أفرادا من نوعه وأن يكره آخرين • ولكن نسبة الميل والنفور تعتمد على الظروف ، وكثيرا ما تكون هذه الظروف تافهة فى حد ذاتها ، فأكثر ما كان من كراهية كارليل للناس كان سببه سوء الهضم ، والراجح أن نظرته نحو العالم كانت تتغير تماما لو أنه اتبع نظاما صحيا ملائما • هذا وعيب استعمال العقاب كوسيلة من وسائل علاج النزعات التى يرغب المجتمع فى كبتها ، هو أنه لا يصنع شيئا للقضاء على النزعة ، ولكنه يحاول منعها من الظهور بالاستعانة عليها بعامل المصلحة الشخصية • ولعل كل ما تفعله هذه الطريقة ــ ما دامت تقضى على النزعات ــ هو أنها تدفعها الى البحث عن متنفسات أخرى عندما ينجح العقاب فى كبتها أما اذا كانت النزعات قوية ، فان عامل المصلحة الشخصية وحده غالبا ما يخفق فى كبتها تماما ، اذ أن هذا العامل دافع ضعيف الا عند من يتمتعون بتعقل غير عادى ، أو من لا يستسلمون لانفعالاتهم • والناس يظنون أنه دافع أقوى مما هو فى الواقع ، لأن أمزجتنا تجعلنا نخدع أنفسنا عن مصلحتنا ، ثم تدفعنا الى التصديق بأن مصلحتنا الشخصية لا تتعارض والتصرف الذى تدفعنا اليه النزعة أو الرغبة •

وهكذا يتبين أن **الاعتقاد الشائع بأن الطبيعة البشرية لا تقبل التغير هو اعتقاد باطل • فكلنا نعلم أن طباعنا وطباع معارفنا تتأثر الى حد كبير بتغير الظروف** • وما يصدق على الأفراد فى هذا الصدد يصدق أيضا على الشعوب • ان الأسباب الأساسية للتغيرات التى تحدث للطبيعة البشرية العادية ترجع عادة الى ظروف مادية بحتة ــ كتغير الطقس ــ أو الى التغير فى درجة سيطرة الانسان على العالم المادى • أما التغيرات الناشئة عن ازدياد تحكم الانسان فى العالم المادى بسبب الاختراع والعلوم فلها أهمية كبيرة فى الوقت الحاضر • فهى قد أحدثت تحولا كبيرا فى حياة الناس اليومية عن

طريق « الثورة الصناعية » ، كما غيرت بنيان المجتمع كله بما أحدثته من قيام المؤسسات الاقتصادية الضخمة • ولقد أصبحت الاعتقادات السائدة بين الناس ، وهى نتيجة الغرائز والظروف ، مختلفة اختلافا كبيرا عما كانت عليه فى القرن الثامن عشر • ولكن نظمنا لم تصبح بعد ملا ئمة لا للغرائز التى تطورت نتيجة للظروف الجديدة ، ولا لمعتقداتنا الحقيقية ، فالنظم لها حياة خاصة بها ، وهى فى كثير من الأحيـــان تظل قائمة حتى بعد زوال الظروف التى جعلتها قالبا مناسبا للغريزة • وهذا ينطبق بدرجات مختلفة على معظم النظم التى ورثناها عن الماضى : مثل الدولة ، والملكية الخاصة ، ونظام الأسرة ، والمذاهب الدينية ، والجيوش والأساطيل • فجميع هذه النظم أصبحت الى حد ما لا تحتمل ، كما أصبحت من بعض نواحيها فى عداء مع الحياة •

ومن الضرورى فى كل محاولة جدية لاعادة بناء النظام السياسى ، أن نتبين الاحتياجات الحيوية للأفراد العاديين • وقد جرى المشتغلون بالأمور السياسية على أن احتياجاتنا الاقتصادية هى وحدها الجديرة باهتمامهم من سائر الاحتياجات • وهذا رأى قاصر كل القصور عن تفسير حادث مثل الحرب الحالية ، وتفسيرها على أساس الدوافع الاقتصـــادية وهمى الى حد بعيد ، ولهذا يجب البحث عن أسبابها الحقيقية خارج النطاق الاقتصادى • ان الانسان ليغفل عن الحاجات التى لا يتطلب اشباعها عادة بذل مجهود واع ، ونتيجـة هذا أن تنشأ نظرية فى الحاجات الانسانية بسيطـــة أكثر مما يجب • ان التصنيع كان سببا جوهريا فى أن كثيرا من حاجات النــاس ، التى كانت فيما مضى تشبع دون حاجة الى مجهود ، أصبحت الآن لا تجد سبيلا الى التحقيق عند أكثر الأشخاص • وعلى الرغم من ذلك تظل النظرية القديمة غير السلمية ، عن الحاجات البشرية قائمة ، جاعلة الناس يغضون عن الأصل الذى يرجع اليه عدم الاكتفاء الذى ظهر بعد التصنيع ، مخترعين لذلك أسبابا ونظريات غير صحيحة ، ويخيل الى أن الاشتراكية كعلاج للحالة التى وصل اليها المجتمع قد اخطـأت السبيل مادامت مستعدة لأن تفترض أن وجود أحوال اقتصادية أحسن من الأحوال السابقة سيجعل الناس سعداء • ان الناس ليسوا فى حاجة فقط الى عروض مادية أكثر مما لديهم ، ولكنهم

فى حاجة الى قدر أكبر من الحرية ، ومن حق الفرد فى توجيه نفسه ، والى مجال أوسع لملكاتهم الانشائية ، والى فرص أكبر للتمتع ببهجة الحياة ، وتعاون اختيارى أكثر ، واضطرار لخدمة مصالح غيرهم أقل . فهـــذا كله يجب ان تساعد نظم المستقبل على توفيره ، اذا كنا نريد أن تؤتى الزيادة فى معارفنا وزيادة سيطرتنا على الطبيعة كلها فى اقامة حياة أفضل .

٣

الـــدّولـــة

كان معظم المفكرين الأحرار فى السنين الأخيرة يحبذون أن يزداد سلطان الدولة ، متأثرين فى ذلك بالمذهب الاشتراكى ، بيد أنهم كانوا يتفاوتون فى عداوتهم لسلطان الملكية الخاصة ، على أن النقابيين (السندكاليين) كانوا فى الوقت نفسه يناصبون كلا من الدولة والملكية الخاصة العداء ، وأعتقد أن النقابيين يكادون يكونون أقرب الى الصواب من الاشتراكيين فى هذا الصدد ، فهم يرون أن كلا من الملكية الخاصة والدولة، وهما أعظم النظم سلطانا فى العالم الحديث ، قد صارتا خطرا على الحياة بسبب تفاقم سلطانهما ، وأنهما جميعا تسرعان بالعالم المتمدين الى فقدان حيويته ، الأمر الذى أخذت تزداد الشكوى فى العالم المتمدين من شره ؛ والنظامان مرتبطان كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا ، الا أننى أريد أن أتكلم الآن عن الدولة فحسب • وسأحاول أن أبرهن على ما فى كثير من سلطاتها من تضخم ، وقلة جدوى ، وضرر ، وعلى المدى العظيم الذى يمكن اختزال هذه السلطات اليه ، دون أن تفقد الدولة ما هو نافع من وجوه نشاطها ، غير أننى أعترف بأن الاختصاصات التى تضطلع بها الدولة فى نواح معينة يجب أن تزداد لا أن تنقص •

وبعض أعمال الدولة ، كادارة البريد ، والتعليم الأولى مثلا ، يمكن أن تنهض بها هيئات خاصة ، بحيث لا تأخذ الدولة على عاتقها من هذه الأعمال الا ملاحظة حسن سير أحوالها وملاءمتها ، الا أن ثمة شئونا أخرى ، كالقضاء والبوليس (الشرطة) ، والجيش ، والأسطول ، هى أدخل بالضرورة فى اختصاص الدولة ، ومن العسير أن نتصور اضطلاع هيئات خاصة بهذه الشئون طالما صح أن تكون ثمة دولة على الاطلاق • **ان وجه الخلاف بين المذهب الاشتراكى والمذهب الفردى يدور حول الأعمال غير الجوهرية التى يرغب الاشتراكيون فى زيادة عددها ، فى حين يميل الفرديون الى تضييق مداها** • أما الأعمال الجوهرية التى يتفق الاشتراكيون والفرديون على السواء فى أن تضطلع بها الدولة فهى التى أريد أن أتناولها بالنقد هنا ، وذلك مذ كانت الأعمال الأخرى ، غير الجوهرية ، لا تبدو فى نظرى محلا للاعتراض فى ذاتها •

ان لباب الحكم هو أن تكون الدولة مستودعا لقوة مواطنيها متجمعة .

وهـذه القوة تأخـذ صورتين ، احداهما داخلية ، والأخرى خارجيـة ، فالداخلية هى القضاء والبوليس ، والخارجية هى سلطة اعلان الحرب ، ممثلة فى الجيش والأسطول • والدولة تقوم على اتحاد جميع الأهالى فى رقعة معينة من الأرض ، مستعملين قوتهم المتحدة بما يتلاءم وما تأمر به الهيئة الحاكمة • والدولة المتمدينة لا تسـتعمل القوة ضد مواطنيها الا فى حدود تتفق وقواعد وضعت من قبل، وهى القواعد التى يتألف منها القانون الجنائى • أما استخدام القوة ضد الأجانب فلا ينظمـه أى تشريع ، وهو يجرى ــ الا فى حالات استثنائية قليلة ــ وفقا لبعض المصـالح الوطنية ، الحقيقية أو الوهمية •

ولا يمكن أن يكون ثمة أى شك فى أن القوة المستعملة وفقا للقانون أقل ضررا من القوة التى تصرفها الأهواء ، ولو اننا استطعنا أن نبث فى نفوس الناس قدرا من الولاء للقانون الدولى يكفى لتنظيم علاقات الدول بعضـها ببعض ، لأمكن أن نسمو فوق حالتنا الراهنة سموا عظيما • ان الفـوضى الجاهلية التى تسبق القانون شر من القانون • بيد أننى أومن بأن ثمة طورا يعلو على القانون الى حد ما وفى وسعنا أن نبلغه ، وهو الطور الذى يمكننا فيه الاحتفاظ بالمزايا التى يضـمنها لنا القانون ، دون أن نفقد حريتنا ، ومن غير أن تحيق بنا الأضرار التى يجعلها القانون والبوليس شيئا لا محيص منه ، وربما كان من الضرورى الاحتياط لهذا بمصدر ما من مصادر القوة ، على أن استخدام القوة فى صورة حقيقية قد يصبح جد نادر ، والقدر الذى نحتاجه من هذه القوة قد يكون جد قليل • والفوضى التى تسبق القانون لا تتيح الحرية الا للأقوياء • أما الحالة التى يجب أن نهدف اليهـا فتتيح الحرية ، بقدر الامكان ، لكل فرد من الأفراد ، وهذه الحالة ستحقق لنا ذلك بحصر الظروف التى تستخدم فيها القوة فى أضيق نطاق ممكن ، وليس بمنع قيام القوة المنظمة منعا باتا •

والدولة مطلقة السلطان أبدا ، الا اذا خشيت فتنة تنشب ضـدها فى الداخل ، أو حينما تخشى هزيمة فى الحرب تصيبهـا فى الخارج • وذلك أن الدولة تستطيع من الوجهة العملية ، الاستيلاء على أملاك الناس بفـرض الضرائب ، كما تستطيع سن قوانين الزواج والميراث ، ومعاقبة من يجهرون

بآراء لا ترضى عنها ، والحكم بالاعدام على من يحاولون ضم اقليم يقطنونه الى دولة أخرى ، وأمر جميع الذكور ذوى اللياقة الجسمانية ، بخوض غمار الوغى حينما ترى أن الحرب شيء مرغوب فيه • وفى كثير من الأمور تعتبر معارضة أغراض الدولة وآرائها عملا اجراميا • ولعل أمريكا وانجلترا كانتا أكثر الدول حرية فى العالم قبل الحرب ، الا أن الأمريكيين كانوا لا يسمحون لأى مهاجر بأن تطأ قدمه أرض أمريكا حتى يقر بأنه لا يؤمن بالفوضوية ولا بتعدد الزوجات ، بينما كان الانجليز فى السنين الأخيرة يقذفون فى غياهب السجن بمن يجهرون بمخالفتهم للديانة المسيحية(١) ، أو بموافقتهم على تعاليم المسيح(٢) • وفى أثناء الحرب يكون كل نقد لسياسة الدولة الخارجية عملا اجراميا • وقد يحدث أن الأغلبية ــ وبالأحرى أولئك القابضين على أزمة الأمور ــ ترى أن أشياء بعينها مرغوب فيها ، وعنــدئذ يصــبح الذين لا يعدون هذه الأشياء مرغوبا فيها عرضة للنكال وألوان من العقاب لا تختلف عما كان المجدفون لا يقاســونه فى الأزمنة الخوالى ، وهــذا القــدر من الطغيان الذى يمارسه الطغاة على هذا النحو يحجبه عن الأنظار ما يصيبه هؤلاء الطغاة من النجاح • ان قليلا من الناس يعدون التعــرض للاضطهاد الذى لا يكاد أحد يشك فى كونه اضطهادا محكم الحلقات وله نتائجه ، شيئا لا ضير فى احتماله •

ولعل الخدمة العسكرية العامة هى أبلغ مثل لما وصل اليه سلطان الدولة والصورة الواضحة للفرق بين مــوقف الدولة من مواطنيها ، وموقفها من مواطنى الدول الأخرى • فالحكومة تنزل أصرم القصاص ، وبلا محــاباة ، بأولئك الذين يقتلون اخوانهم فى الوطن ، وبأولئك الذين يرفضون قتل الأجانب على السواء ، وعلى العموم فالجريمة الثانية تعد أشنع الجريمتين ، والحرب ظاهرة من الظــواهر المألوفة ، والناس يخفقون فى ادراك وجــه غرابتها ، لكنها تبدو شيئا طبيعيا ومألوفا فى نظر الذين يقفون فى غمــار الغرائز التى تؤدى الى نشوب الحرب ، أما الذين يقفون بمنأى عن غمارها ، فلا يألفونها الا بعد زمن طويل • وعجيب ألا تجد غالبية الناس محيصا من

---

(١) محاكمات التجديف

(٢) محاكمات السند كاليين (ويجب اضافة عقاب المعترضين ذوى الضمائر اليوم)

الصبر على نظام يرغمهم على الاستسلام لجميع الأهوال فى حومة الحرب ، فى أية لحظـــة تدعوهم فيها حكومتهم • فهـــذا فنان فرنسى ، لا شأن له بالشئون السياسية ، ولا يهمه شيء غير تصاويره ، يجد نفسه مدعوا فجأة لتصويب الرصاص الى صدور الألمان الذين يؤكد له أصدقاؤه بأنهم عار على بنى الانسان ••• وبمثل هذا يدعى موسيقار ألمانى وهو لا يدرى لماذا ، ليرمى بالرصاص هذا الفرنسى الذين يزعمون أنه خؤون غـدار •• فلأى سبب لا يستطيع الرجلان اعلان حيادهما المتبادل ؟ لماذا لا يدعان الحرب لمن يرغبان فيها ويتسببان فى نشوبها ؟ غير أن الرجلين لو أعلنا هذا الحيـــاد المتبادل لرماهما أهل بلادهما بالرصاص • ولكى يتجنبا هذا المصير فهمـا يحاولان أن يعدم كل منهما صاحبه ، واذا خسر العالم الفنان ، ولم يخسر الموسيقار فان ألمانيا تختال طربا ، فاذا خسر العالم الموسيقار ، ولم يخسر الفنان ، فان فرنسا هى التى تتيه حبورا ، أما خسارة المدنية التى تتساوى فى الحالتين ، سواء قتل الألمانى أو الفرنسى ، فلا يكاد يذكرها أحد •

وهذه هى السياسة الجنونية التى لا يمكن أن تصدر الا عن مجـــاذيب مستشفى بدلام ! فلو أن الفنان والموسيقار قد سمح لهما باعتزال الحرب ، لما أصاب بنى الانسان الا الخير الكامل غير المنقوص • فسلطان الدولة الذى يجعل هذا مستحيلا هو شر محض ، شر يشبه سلطان الكنيسة التى كانت فيما سلف تحكم بالاعـــدام على من تخالف عقيدته السنة • على أنه اذا تأسست ، ولو فى زمن السلم ، عصبة قوامها أعضاء متساوو العـــدد من الفرنسيين والألمان ، يتعهدون بألا يشتركوا فى حـــرب ، لاضـــطهدتهم الدولتان الفرنسية والألمانية اضطهادا وحشيا ، لا يقل فى احـداهما عن الأخرى • ان الديمقراطيات الحديثة تفرض على مواطنيها الطاعة العمياء ، والرغبة التى لا حد لها فى القتل والموت ، بالقدر الذى كان مفروضا عـلى الانكشاريين من جنود سلاطين العصور الوسطى ، أو على رجال البـوليس السرى من حاشية طغاة الشرق (١) •

---

(١) « الأغلبية فى البلد الديمقراطى هى التى يجب أن تحكم بالرغم من كل شيء ، ومن هنـــا تضطر الأقلية الى الاستسلام بكل ما فى وسعها من سماحة وسعة صدر » عن وستمنستر غازت ــ التجنيد الالزامى ــ ديسمبر ٢٩ ــ ١٩١٥

وقد يظهر ما لسلطان الدولة من أثر عن طريق الرأى العام ـ كما يحدث فى انجلترا فى كثير من الأحيان ـ أكثر مما يظهر عن طريق القانون ، وتستطيع الدولة أن تخلق رأيا عاما بما للصحافة والخطابة من تأثير ، والرأى العام القائم على الجور والاستبداد عدو شديد للحرية لا يقل خطرا عن القوانين الاستبدادية ٠ واذا وجد الشاب الذى يرفض الذهاب الى الحرب أنه قد فصل لهذا السبب من وظيفته ، وأنه أصبح موضع الزراية من أهل بلده ، وأن جميع أصدقائه يتنكرون له ، وأنه كلما لقى امرأة ممن عسى أن يكون الحب قد عقد بين قلبيهما من قبل وجدها تشيح عنه ، وتسخر به ، ان هذا الشاب سوف يشعر بأن وبال ما يلقاه من ذلك كله شىء صعب الاحتمال ، شىء يشبه الحكم بالاعدام (١) ٠ أن المجتمع الحر لا يفتقر الى حرية القانون فحسب ، انه يفتقر الى رأى عام مسماح ، والى التجرد من هذا التدخل الغريزى فى شئون جيراننا ، ذاك التدخل الذى ينزلق بالصالحين ، فى غير وعى ، وفى صورة التأييد لمستوى أخلاقى رفيع .

---

(١) كان المستر رجنولد كمب ، وكيل النائب العام فى وست مدلسكس ، يقوم بالتحقيق فى حادث انتحار كان المنتحر فيه شابا فى الرابعة والثلاثين من عمره ، اسمه رتشارد تشارلس روبرتس ، وصناعته سائق سيارة أجرة من جهة شبردس بش ، وقد أقدم على الانتحار بسبب ما انتابه من الهم حينما لم يقبل فى صفوف الجيش ، وما أدى اليه هذا الفصل من تعيير النساء والجنود المتطوعين له

وقد سجل المستر كمب هذا ملاحظات قوية عن مسلك هؤلاء الساقطات ، وبالأحرى نساء جماعة الهويت فذر (الريشة البيضاء) فقد روت أرملة المنتحر أنه حاول الانخراط فى صفوف الجيش فى أكتوبر ، لكن طلبه رفض بحجة أنه ضعيف القلب ، وأن هذا وحده قد أحزنه وأورثه الهم لأنه تخيل أنه سوف يفقد رخصته بسبب ضعف قلبه ، وزاد فى بلواه مرض أحد أطفاله

وذكر جندى من أقربائه أن حياة المتوفى قد غدت تعاسة كاملة بسبب أولئك النسوة اللائى رحن يعيرنه ويرمينه بالجبن لأنه لم يلتحق بالجيش ، وقد وجه اليه بعضهن قبيل وفاته بأيام قليلة عبارات أثارته وصدمت نفسه

وقد ذكر وكيل النائب العام فى شىء من الحماسة ان مسلك أمثال هؤلاء النسوة كان مسلكا شنيعا ، وانه لعمل فاضح أن يسمح لنساء اللائى لا يعرفن شيئا عن ظروف أحد من الناس ، بالتقلب فى المحافل ليجعلن حياة هذا الراحل الذى قد حاول أن يقوم بواجبه جحيما لا تطاق بما يشعن عنه من شائعات ، ومما يدعو للأسف أنهن لم يكن يستطعن أن يصنعن شيئا أحسن من هذا ، فهذا مثل لرجل من الناس دفعت به طغمة من النساء البلهاوات الى براثن الموت وقد تمنى كمب لو عمل شىء ليقف مثل هذا السلوك عند حده (الديلى نيوز ١٦ يوليو سنة ١٩١٥)

الى طبائع الاستبداد والظلم • **أن ظننا السيء بالآخرين لا ينهض سببا صالحا فى ذاته لأن نحسب أنفسنا قوما صالحين ، وما دام الناس يجهلون هذا ، وما دامت الدولة تستطيع أن تصنع (تفبرك !) الرأى العام ، الا فى** الأحوال النادرة التى تكون فيها الدولة دولة ثورية ، فان الواجب أن **يعتبر الرأى العام جزءا ثابتا من سلطان الدولة •**

أما سلطان الدولة خارج حدود بلادها فمنشؤه أصلا الحرب أو التهديد بالحرب ، وبعض هذا السلطان مستمد من قدرتها على اقناع رعاياها بأن يقرضوا أموالهم أو بألا يقرضوها ، الا أن هذا أمر غير ذى بال اذا قيس الى سلطانها المستمد من الجيوش والأساطيل ، ونشاط الدولة الخارجى ، باستثناء ظروف يمكن غض الطرف عنها لندرتها ، هو نشاط أنانى•وتلطف الأنانية أحيانا بحاجة الدولة الى المحافظة على صلات المودة بينها وبين الدول الأخرى ، الا أن هذا يكيف الوسائل المستعملة فحسب ، ولا يكيف الغايات المنشودة ، اذ الغايات المنشودة ، اذا استثنينا منها الدفاع ضد الدول الأخرى ، هى ، من جهة ، فرص لاستغلال البلاد الضعيفة غير المتمدينة ، استغلالا ناجحا ، ثم هى من جهة أخرى ذاك السلطان وهذا الاعتبار اللذان نعدهما الدولة أكثر جلالا وأقل أهمية من المال • ففى سبيل هذه الأشياء لا تتردد أيما دولة فى قتل عدد لا يحصى من الأجانب ، ممن لا تتلاءم سعادتهم والاستغلال أو الاستعباد ، كما لا تتردد فى تدمير البلاد التى تظن أن نشر الرعب فى أرجائها أمر ضرورى ، وبصرف النظر عن الحرب الحاضرة ، نجد أن كثيرا من الدول الصغرى ، وجميع الدول العظمى (١) ، ما عدا النمسا قد أقدمت على مثل هذه الأفعال • أما عدم اقدام النمسا عليها فقد كان أمرا خارجا عن ارادتها ، لأن الفرصة لم تسمح به !

لماذا يستسلم الناس عن طواعية لسلطان الدولة ؟ ان ثمة أسبابا شتى لهذا الاستسلام ، بعضها قديم ، وبعضها حديث العهد جدا ، وعظيم الأهمية •

---

(١) أقدمت عليه انجلترا فى جنوب أفريقيا ، وأمريكا فى الفلبين ، وفرنسا فى مراكش وايطاليا فى طرابلس ، وألمانيا فى افريقيا الجنوبية الغربية ، وروسيا فى ايران ومنشوريا ، واليابان فى منشوريا

أما السبب القديم لطاعة الناس للحكومة فهو الولاء الشخصى لصاحب السلطان • لقد نشأت الدول الأوربية فى ظل النظام الاقطاعى ، وكانت هذه الدول أصلا ، هى تلك الأقاليم المتعددة التى يملكها زعماء الاقطاع ، ولكن علة هذه الطاعة قد انتهى أمرها ، والراجح أنها لا شأن لها اليوم الا فى اليابان ، وهى أقل شأنا فى روسيا •

وقد ظل الشعور القبلى ، الذى كان يصحب دائما الولاء لصاحب السلطان ، قويا كما كان شأنه دائما ، وهو اليوم السند الأساسى لسلطان الدولة ، وكل انسان تقريبا يدرك بأنه لابد له ، لكى يكون انسانا سعيدا، من أن يشعر بأنه عضو فى جماعة تتجدد الحياة فيها بالصداقات والخصومات ، جماعة مترابطة فيما بينها للدفاع عن نفسها أو لمهاجمة أعدائها • ولكن هذه الجماعات نوعان ، منها ما هو بالضرورة امتدادات للأسرة ، ومنها ما يقوم على غرض روحى مشترك ••• وتدخل الأمم فى عداد النوع الأول،وتدخل الطوائف الدينية فى النوع الثانى،ومن شأن الجماعات القومية أن تضعف أحيانا حينما تكون معتقداتهم متغلغلة فى نفوسهم كما حدث فى الحروب الدينية بعد عهد الاصلاح ، وفى مثل هذه الأوقات تكون العقيدة المشتركة أقوى من القومية المشتركة ، وبقيام المذهب الاشتراكى فى العالم الحديث وقع شىء من هذا القبيل ، وان يكن فى نطاق أقل بكثير ، فأولئك الذين لا يؤمنون بمبدأ الملكية الخاصة ، ويحسون بأن الرأسماليين هم أعداؤهم الحقيقيون ، تقوم بينهم رابطة تسمو فوق الانقسامات القومية ـ وهذه العقيدة المشتركة وان لم تكن من القوة بحيث تكفى لمقاومة المشاعر التى أثارتها الحرب الحاضرة ، قد جعلت هذه المشاعر أقل مرارة بين الاشتراكيين مما هى بين غيرهم ، وقد أبقت على هذا الأمل الذى راود النفوس باعادة بناء مجتمع أوربى حينما تضع الحرب أوزارها ، على أننا ، فى الغالب ، نجد أن تفشى كفر الناس بمعتقداتهم كان انتصارا للشعور القبلى ، كما جعل القومية أقوى منها فى أى عهد من عهود التاريخ • وقد وجد قليلون من المسيحيين المخلصين ، وقليلون من الاشتراكيين المخلصين ، فى عقائدهم قوة فى وسعها مقاومة هجمات العاطفة القومية ، الا أن هؤلاء كانوا من القلة بحيث لم يستطيعوا التأثير فى مجرى الحوادث ، بل كانوا

أضعف من أن يسببوا لحكوماتهم قلقا ذا بال •

ان الشعور القبلي بخاصة هو الذى تتولد عنه وحدة دولية قومية ، ولكن ليس هذا الشعور القبلي وحده هو الذى تتولد عنه قوة هـــذه الدولة ، ان قوتها قبل كل شيء نتيجة لنوعين من الخوف ، كلاهما معقـــول : الخوف من الجريمة والفوضى فى الداخل ، ثم الخوف من الاعتداء الذى يأتى من الخارج•

ان النظام الداخلي لمجتمع متمدين عمل عظيم ، وأهم العوامل التى يقوم عليها هو سلطان الدولة المتزايد ، وليس خليقا أن يظل المواطنون المحبـون للسلم مهددين بالسرقة وبالقتل ، وتكاد الحياة المتمدينة تصبح من المحال ، اذا كان فى وسع المغامرين من الناس أن يؤلفوا الجيوش الخاصة بقصدالسلب• وقد وقعت أحداث مثل هذه فى العصور الوسطى ، ولم يتخلص الناس من شرها الا بعد نضال طويل • ويحسب الكثيرون،ولاسيماالأغنياء الذين تعود عليهم القوانين والنظام بأعظم النفع ــ أن أى انتقاص فى سلطان الدولة ربما ردنا الى حالة من الفوضى العامة ، وهم يعدون الاضرابات نذر شؤم للفساد والانحلال ، ويهلعون من المنظمات التى من قبيل مؤتمر العمل العام ، وعمال العالم الدوليين ــ وهم كذلك يذكرون الثورة الفرنسية فيشعرون برغبة ليست غير طبيعية للاحتفاظ برؤوسهم فوق رقابهم ، ويجزعون بخاصة من أية نظرية سياسية يستشف منها أنها تلتمس الأعذار للجرائم الخاصة التى من قبيل حوادث التخريب الانتقامية والاغتيال السياسى ، وهم لا يرون ما يحميهم من هذه الشرور وسوى تأييدسلطان الدولة ، والايمان بأن كل مقاومة للدولة تعد من الأعمال الاجرامية

والخوف من الخطر فى الداخل يزيده الخوف من الخطر فى الخارج ، وكل دولة معرضة على الدوام لخطر الغزو الخارجى ، ولم يوفق الناس بعد للطريقة التى يقللون بها من شأن هذا الخطرالاالاستزادة من السلاح، بيدأن الأسلحة التى يقصد بها دفع الغزو فى ظاهر الأمر قد تستخدم للغزو كذلك ؛ وهكذا يكون للوسائل التى تتخذ لدفع الغزو أثرها فى زيادة خطر هذا الغزو ، وأثرها فى زيادة قوى الحرب التخريبية زيادة بالغة حينما تنشب هذه الحرب بالفعل، وبهذا يسود حكم الارهاب ، وتنال الدولة شيئا من سمات Comité du Salut Public (لجنة الأمن العام)

والشعور القبلى الذى تتطور منه الدولة هو شيء طبيعى ، والخوف الذى يشد من ساعد الدولة خوف معقول فى ظل الظروف الحالية ، وبالاضافة الى هذين العاملين ، نجد مصدرا ثالثا من مصادر القوة فى الدولة القومية ، هو الوطنية فى مظهرها الدينى .

والوطنية شعور معقد أيما تعقيد ، يتكون من الغرائز الفطـــرية ، ومن المعتقدات الراسخة فى الذهن ، فثمة حب الوطن والأسرة والأصدقاء ، ذلك الحب الذى يثير اهتمامنا بخاصة للمحافظة على بلادنا من الغزو ، وثمة هذه الغريزة الرقيقة التى تجعلنا نؤثر المواطنين على الأجانب ، ثم تلك الكبرياء المرتبطة بنجاح المجتمع الذى ننتمى اليه ، ان ثمة اعتقادا توحى به الينا هذه الكبرياء ويؤيده التاريخ ،هو أن أمة الواحد منا تمثل تقاليد عظيمة ، وأنها رمز للمثل التى لا بد منها للنوع الانسانى ، الا أن هناك عنصرا آخر ، فضلا عن ذلك كله ، أكثر نبلا ، وأشد تعرضا للهجوم العلنى ، هو عنصر العبادة ، عنصر التضحية الصادقة ، عنصر اندماج حياة الفرد وهو راضى النفس فى حياة الأمة ، وهذا العنصر الدينى من عناصر الوطنية ، عنصر جوهرى لقوة الدولة مذ كان يسجل أحسن ما تنطوى عليه صدور الذين يؤمنون بالفداء القومى .

والعنصر الدينى من عناصر الوطنية يقويه التعليم ، ولا سيما العلم بتاريخ بلاد الانسان وآدابها ، بشرط ألا يكون هذا مصحوبا بعلم غزير عن تاريخ بلاد أخرى وآدابها ، وفى كل بلد متمدين ينصب كل ما يثقف به الصغار على محاسن أمتهم ، ومعايب الأمم الأخرى ، ويحدث أن يعتقد الناس قاطبة أن أمة الانسان نظرا الى فضلها الذى لا يسمو عليه فضل ، تستحق منه العون فيما تخوضه من المعارك ، أيا كان الداعى الذى نشبت من اجله ، وتبلغ هذه العقيدة من الأصالة والعمق وأنها تجعل الناس يحتملون خسائر الحـــرب ومتاعبها وويلاتها بالصبر البالغ ، وبنفس يكاد يملؤها الرضا .. وهى كجميع الديانات التى يؤمن بها أصحابها ايمانا خالصا ، تضـــفى على الحيـــاة مظهرا أساسه الغريزة ، لكنه مظهر يسمو بالحياة ويجعل الناس يكرسونها لغاية أعظم من أية غاية شخصية ، الا أنها تشتمل على غايات كثيرة شخصية كأنها ذائبة فيها .

والوطنية اذا اتخذت دينا كانت غير وافية بالمرأم بسبب ماتفتقر اليه من الشمول ، وذاك أن الصالح الذى تهدف اليه ليس الا صالح الأمة التى ينتمى اليها الانسان فحسب ، وليس صالح النوع الانسانى جميعه ، والرغائب التى تثيرها فى نفس الرجل الانجليزى ليست هى نفس الرغائب التى تثيرها فى نفس الرجل الألمانى ، وقد يكون لعـــالم الذى يملؤه وطنيون عالما تملؤه المنازعات ، وكلما تأصلت جذور الوطنية فى أمة من الأمم اشتد فيها روح عدم المبالاة ، الذى يصل الى حد التعصب،بما تتعرض له الأمم الأخرى من الضرر؛ وعندما يحين للناس أن يتعلموا تقديم صالح مجموعة أكبر منهم عددا عـلى صالحهم الخاص ، لا يكون ثمة سبب متين لوقوفهم من النوع الانسانى كله غير ذاك الموقف ، انه هو المزيج من الكبرياء القومية التى تجعل من اليســير بمكان لنزعات الناس نحو التضحية فى وقت القيام بها ، أن تقف بهم جامدين عند حدود بلادهم ، ان هذا المزيج هو الذى يسمم الوطنية ، ويجعلها أدنى بوصفها دينا ، من العقائد التى تهدف الى خلاص الناس جميعا ، اننا لانستطيع الا أن نضمر من المحبة لبلادنا أكثر مما نضمره للأمم الأخرى ، وليس ثمةمن سبب يحملنا على أن نحب غيرنا من الأمم جميعا بدرجة متساوية ٠٠ وهذه نفسها هى حالنا مع الأفراد ، اذ لايمكن أن نسوى فى حبنا لهم جميعا ، بيد أن أية ديانة سديدة سوف تؤدى بنا الى التلطيف من عدم المساواة فى محبتنا للناس ، بحبنا للعدالة ، وبجعل أهدافنا أهدافا عالمية بتحقيق أغراض البشر المشتركة ، ولقد أثرت المسيحية فى اليهودية هذا التأثيرالذى يجبأن يحدث مثله فى أى دين قومى خالص ، قبل أن يمكن تطهيره من الشر ٠

وللوطنية منالناحيةالعملية أعداءآخرون كثيرون تناوشهم ويناوشونها؛ فمذهب العالمية ، أو مذهب القائلين بأن يكون العالم كله عشيرة واحــدة لا يمكن أن يقف عن الانتشار طالما أن الناس يحصلون على معرفة أكثرعن البلاد الأجنبية عن طريق التعليم والأسفار ، وثمة كذلك نوع من الفردية لا ينفك ينمو ، لون من ألوان الادراك مؤداه أن كل انسان يجب أن يتحرر ما وسعه التحرر ليختار غاياته بنفسه ، وألا يجبر بفعل حادث جغرافى على الجــرى وراء غايات فرضها عليه المجتمع ، فالاشتراكية والحركة النقابية ، والحركات

المضادة للرأسمالية هى فيما تقصد اليه على العموم حركات معادية للوطنية هذ أنها تجعل الناس يدركون أن هذا اللون من ألوان الدولة فى العصر الحالى يهتم أكبر الاهتمام بحماية امتيازات الأغنياء ، وان الكثير من ألوان الاصطدام بين الدول له أسبابه فى المصالح المالية لطبقة القلة البلوتقراطية ، أعنى طبقة الأغنياء المتسلطين على الحكم . وقد يكون هذا اللون من ألوان المقاومة شيئا مؤقتا ، أو مجرد حادث طارىء فى نضال العمال للحصول على السلطان، فأستراليا مثلا حيث يجد حزب العمال فوزه مضمونا ، ممتلئة بالوطنيين والعسكريين الذين يجعلون دأبهم منع العمال الأجانب من أن يشاركوهم خيرات موقفهم الممتاز ، وليس من غير المحتمل أن تتطور انجلترا ، فتكون بلدا قوميا مثل أستراليا ،اذا أصبحت دولة اشتراكية ،بيد أن الراجح أن مثل هذه القومية ستكون قومية دفاعية خالصة ، ان مشروعات الاعتداء الأجنبى التى تتسبب عنها خسارة عظيمة فى المال وفى الأرواح فى الأمم التى تأخذ بهذه السياسة لا يكاد يهتم بها الا أولئك الذين ألهبت غرائز التملك فيهم تلك القوة التى يستمدونها من الملكية الخاصة ومن نظم الدولة الرأسمالية

ان الشر الذى يجلبه على العالم الحديث سلطان الدولة المفرط فى التضخم شر عظيم ، وقل أن يفطن اليه أحد منا .

وأكبر الأضرار التى تلحقها بالعالم دولة من الدول هو الارتقاء بكفاياتها الحربية فوق كفايات غيرها ، فاذا كانت جميع الدول تزيد قوتها ، فان ميزان القوى يبقى غير متغير ، ولن يكون لأية دولة من الدول فرصة الانتصار على غيرها بأكثر مما كان لها من قبل،ومتى وجدت وسائل الاعتداء ، حتى لو كان الغرض الأساسى منها دفاعيا فى الأصل ،فمن المحتمل أن ينشأ عن وجودها اغراء باستعمالها فى الحال أو فيما بعد ، للتدليل على البطش والغلب ، وبهذا تكون الوسائل التى زادت فى أمن الدولة داخل حدودها قد زادت فى الخطر المتربص بالعالم فى كل مكان . **ان الغرض الجوهرى للحكم هو اخماد روح العنف داخل البلاد ، وتيسيره خارجها . ان الدولة تخلق تقسيما مصطنعا اصطناعا كليا لبنى الانسان ولواجباتنا نحوهم ، فنحن مقيدون بالقانون نحو**

هذه الجماعة ، أما نحو أولاء فنحن نسير فى توجس قطاع الطرق ٠ ان الدولة تصبح شرا بكثرة ما تقيمه من الحواجز بينها وبين غيرها من الدول ، وهى حينما تشرع فى حرب عدوانية تصبح عصابة تقوم على السلب والنهب ، فالنظام الحالى نظام غير معقول ، ما دام أن الفوضى الداخلية والخارجية لابد أن تكون كلتاهما صوابا أو أن تكون كلتاهما خطأ ، والناس يؤيدون هذا النظام ظنا منهم بأنه هو السبيل الوحيد لسلامتهم طالما أن غيرهم يستصوبونه ولأنه يضمن لهم لذاذات الظفر والتسلط التى لا يمكنهم الحصول عليها فى مجتمع صالح ٠ فاذا كف الناس عن الجرى وراء هذه اللذاذات ، أو اذا أصبح من غير الممكن الحصول عليها ، لأمكن أن يكون مشروع تأمين سلامة البلاد من الغزو شيئا غير عسير

واذا ضربنا عن الحرب صفحا، وجدنا أن الدولة الحديثة العظيمة شىء ضار بسبب تضخمها وما ينتج عن هذا التضخم من احساس الأفراد بالعجز ، فالمواطن الذى لا يسيغ الغايات التى تجرى الدولة وراءها ، لا يمكنه أن يقنع الدولة باتخاذ غايات أخرى ، هى فى نظره خير من تلك الأهداف ، الا اذا كان ذا مواهب نادرة ، ونحن نلاحظ ، حتى فى الدول الديمقراطية أن معظم الأمور يبت فيها نفر قليل من الموظفين والرجال البارزين، بل ان المسائل القليلة المتروكة للتصويت العام تبت فيها سيكلوجية الجماهير المتفشية لا الابتكار الفردى ، وكان أولى أن يبت فيها أصحاب الأصوات الانتخابية بعد عرضها عليهم خارج البرلمان ، وهذا ملاحظ بخاصة فى بلاد كالولايات المتحدة ، حيث نجد الناس بالرغم من ديمقراطيتهم يعجزون عجزا شديدا عن تفهم المسائل ذات التبعات الكبرى ، وفى بلاد مترامية الأطراف كهذه نرى أن ارادة الشعب تشبه احدى القوى الطبيعية ، وتكاد تكون مثلها فى عدم خضوعها لرجل واحد ،أيا كان هذا الرجل ، وهذه ظاهرة يكون من نتيجتها فى جميع الدول الكبرى ، وليس فى الولايات المتحدة فحسب ، قيام حالة من فتور الهمم وتثبيط العزائم اللذين يذكراننا بمثل هذه الحالة فى الامبراطورية الرومانية ٠ والدول الحديثة على خلاف ما كانت عليه دول المدن الصغيرة فى اليونان القديمة وفى ايطاليا فى العصور الوسطى ، لا تكاد تسمح بعرض المسائل الهامة على أفراد الشعب ليبتوا فيها بأنفسهم ، بل هى تخفق فى تنمية أى لون من ألوان المقدرة فى

معظم الناس للهيمنة على مصائرهم السياسية ، والقلة من الرجال الذين يصلون الى السلطان فى هذه الدول هم رجال من ذوى المطامع غير العادية ومن الظامئين الى السيطرة فضلاعن مهارتهم فى ختل من يفاوضونهم والاحتيال عليهم ، أما بقية الناس فيؤثرون البعد لعلمهم بعجزهم ٠

ولا يزال فى أذهان البعض أثر عجيب من آثار الفكرة الملكية القديمة عن الدولة ، فهم يعتقدون ان ثمة شيئا من الشر فى جنوح أى طائفة من طوائف الأهالى الى التمرد وشق عصا الطـــاعة ، فاذا رغبت أيرلنده وبولنده فى الاستقلال بدا لهم وجوب مقاومة هذه الرغبة بكل ما فيهم من جهد ، والحكم على أى انسان يحاول القيام بها « بالخيانة العظمى » والمثال الوحيد الذى لا تنطبق عليه تلك الملاحظة ، والذى يمكنني تذكره هو انفصال النرويج من السويد ، وهو هذا الانفصال الذى نال استحسان العالم ، ولم ينسج على منواله أحد ، ففى الحالات الأخرى لم يكن شىء يحمل الدولة على النزول عن شىء من أراضيها الا الهزيمة فى الحرب ، وهذا اتجاه مسلم به ، الا أنه ليس الاتجاه الذى يمكن التسليم به اذا كانت الدولة تهدف الى أهداف أحسن ، أما السبب فى التسليم به فهو أن الغاية الأساسية لجميع الدول العظمى تقريبا هى القوة وبخاصة القوة فى الحرب ، والقوة فى الحرب تزداد بوجود بعض أجزاء من الدولة لا يميل أهلها الى بقائهم أعضاء فيها ، فاذا كانت منفعة المواطنين هى الغاية التى تنشدها الدولة ، كان من الممكن ترك مســـألة استبقاء هذا الجزء من أجزاء الدولة أو فصله ليكون دولة مستقلة ، ليبت فيها أهل هذا الجزء بمحض حريتهم ، ولو أن الناس أخذوا بهذا المبدأ لأمكنهم أن يتجنبوا أحد أسباب الحرب الأساسية ، ولأمكنهم القضاء على عنصر من أشد عناصر الطغيان فى الدولة ٠

والمصدر الأول من مصادر الضرر الذى تتسبب فيه الدولة هو أن تكون القوة غايتها الكبرى ، وليس هذا هو الحال فى أمريكا ، لأن أمريكا آمنة من الاعتداء (١) الا أنه هو الحال فى جميع الأمم الأخرى التى تهدف الدولة فيها

---

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٩١٥ (؟)

الى أن يكون لها أعظم قدر ممكن من مقومات القوة الخارجية ، وفى سبيل هذه الغاية تنتقص حرية الأهالى، وينكل أشد التنكيل بمن يقومون بالدعاوة ضد الاستعداد العسكرى ، ولهذا الوضع جذوره من الكبرياء والخوف ، الكبرياء التى تأبى أن تأخذ بأسباب السلام ، والخوف الذى يوجس من عواقب الكبرياء الأجنبية التى تتعارض وكبرياءنا نحن ، والظاهر أنه عرض من أعراض التاريخ أن يتحكم هذان الشعوران اللذان لايمكن بأية حال أن يستنفدا مشاعر الرجل العادى السياسية ، فى سياسة الدولة الخارجية تحكما تاما على هذه الصورة ، فلو لم تكن هذه الكبرياء لما كان ثمة سبب لهذا الخوف : خوف احدى الدول بسبب ما تتوهمه من زهو دولة أخرى وكبرياء السيطرة، وبالأحرى عدم الرغبة فى حسم المنازعات بأية وسيلة الا وسيلة العنف ، أو التهديد باستعمال العنف ، هى عادة من عادات العقل التى تشجع القوة على وجودها تشجيعا كبيرا ، وهؤلاء الذين تعودوا زمنا طويلا على استخدام القوة يصبحون أوتقراطيين وميالين للشغب ، ولا يطيقون أن يروا نظراءهم الا منافسين لهم • ومما اكتسب سوء الأحدوثة بين الناس أن الاجتماعات التى يعقدها نظار المدارس من شأنها أن تنتهى الى الاختلافات الشنيعة أكثر مما يحدث فى الهيئات الأخرى المشابهة لها : وذلك أن كلا من هؤلاء النظار يحاول أن يعامل أعضاء الاجتماع كما يعامل تلاميذ مدرسته ، فاذا تبرموا بمثل هذه المعاملة ، ضاق هو بتبرمهم • ان الذين تعودوا أن يكونوا من أهل السلطان لا يصلحون بحال لمهمة المفاوضات التى يجب أن يسودها روح الود ، ولكننا نرى أن العلاقات الرسمية للدولة تكون بخاصة فى أيدى هذا النفر الذى اجتمع له قدر كبير من السلطان فى بلاده ، وهذا بالطبع ، أكثر حدوثا فى البلاد التى يكون المسيطر على مقاليد الأمور فيها بالفعل ملكا، ويقل أثر هذا حيثما وجدت أقلية حاكمة من أصحاب النفوذ ، ثم يقل أكثر فى البلاد التى تخطو بقدر ما نحو الديمقراطية الصحيحة ، لكنه صحيح الى حد كبير جدا فى جميع البلاد ، لأن رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية هم بالضرورة رجال قائمون بالحكم • وأول خطوة لعلاج تلك الحال هى أن يهتم المواطن العادى بالشئون الخارجية اهتماما بالغا ، وأن يصر على وجوب عدم السماح للكبرياء القومية بأن تعرض مصالحه الأخرى للخطر ، فالمواطن العادى حينما يستثار فى أثناء

الحرب يكون راغبا فى التضحية بكل شىء فى سبيل هذه الكبرياء القومية لكنه يكون أكثرأستعدادا من حكامه فىأيام السلم للأخذ بفكرة أنالمشكلات الخارجية ، مثلها مثل المشكلات الخاصة ، يجب أن تسوى بالطرق الودية ، وفقا للمبادىء القويمة ، وليس عن طريق استعمال القوة الغشوم ،أو التهديد باستعمال تلك القوة ٠

ويمكننا أن نلاحظ بكلوضوح أثر التحيز الشخصى الذى ينتاب تلكالفئة التىتتألف منهاالحكومات بالفعل،فىمنازعات العمل ٠ فالنقابيون الفرنسيون يؤكدون أنالدولة هى بكلبساطة ثمرة من ثمار الرأسمالية ،وبالأحرىجزء من الأسلحة التى يستخدمها رأس المال فى نضاله مع العمال ، وثمة شواهد كثيرة تؤيد هذا الرأى ، حتى فى البلاد الديمقراطية ، فمن الأمور العادية فى اثناء الاضطرابات تسليط رجال الجيش على المضربين لكبح جماحهم ، وبالرغم من أن أصحاب العمل أقل من العمال بكثير ، ومهمة كبح جماحهم أيسر بكثير كذلك ، فان هؤلاء الجنود لا يستخدمون ضدهم على الاطلاق ، وحينما تشل اضطرابات العمال صناعة بلد من البلاد ، فان المسئولية تقع على عاتق هذا النفر الذى يتهمونه بالمروق من الوطنية ، فى حين لا يوجهون شيئا من تلك المسئولية الى السادة ٠٠وان كانواضحا أن المسئولية تقععلى عاتقالفريقين٠ أما السبب الأكبر لهذا المسلك الذىتسلكهالحكومات فهو أن الرجال الذين تتألف منهم ينتمون ، بنجاحهم ، وان لم يكن بمنشئهم ، الى نفس الطبقة التى ينتمى اليها أصحاب العمل ، وتتحد محاباتهم وشركاؤهم فى جعلهم ينظرون الى اضرابات العمال وامتناعهم عنالعملبالعين التىينظر بها الأغنياء اليها ٠ وفى البلد الديمقراطى يصحح الرأى العام ، والحاجة الى استرضاء الأعوان السياسيين ، جانبا من هذه المؤثرات البلوتقراطية (الخاصة بحكومة الأغنياء) الا أن التصحيح يظل جزئيا دائما ، والمؤثرات نفسها التى تغير وجهات نظر الحكومة فى المسائل العمالية هى التى تغير آراءها أيضا فى الشئون الخارجية ٠ ومما يزيد الطين بلة أن الوسائل التى تتهيأ للمواطن العادى أقل بكثير من أن تسمح له بتكوين رأى مستقل ٠

والقوة المفرطة التى تبلغها الدولة عن طريق الاستبداد الداخلى أحيانا ، وعن طريق الحرب والخوف من الحرب فى الغالب ، هى أحد الأسباب الكبرى

لتعاسة العالم الحديث ، كما أنها أحد العوامل الأساسية لوهن العزيمة الذى يحول بين الناس وبين الوصول الى تمام قواهم الذهنية ، ولابد من الوصول الى وسيلة لعلاج هذه القوة المفرطة اذا أردنا ألا يتسرب اليأس الى نفوس الناس كما حدث فى الامبراطورية الرومانية

وللدولة غاية هى على العموم غاية طيبة ، وتلك هى احلال القانون محل القوة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولكن هذه الغاية لا يمكن تحقيقها على الوجه الأكمل الا عن طريق دولة عالمية لا يمكن اخضاع العلاقات الدولية بدونها للقانون • وبالرغم من كون القانون خيرا من القوة ، فانه الى الآن ليس الوسيلة المثلى لحسم المنازعات • ان القانون جامد شديد الجمود ، وطالما رأيناه يؤيد ما هو فى سبيله الى الفناء ، وقلما نراه يؤيد ما هو فى طريق النماء • وطالما أن السلطة المطلقة من الوجهة النظرية هى للقانون ، فلا جرم يكون القانون عرضة للتعديل بين الحين والحين ، بالثورة فى الداخل ، والحرب فى الخارج ، ولا يمكن تفادى ذلك بغير الاستعداد المستديم لتغيير القانون تغييرا يتلاءم وميزان القوى فى الوقت الحاضر ، فاذا لم يفعل العالم ذلك فستصبح البواعث الملجئة الى استعمال القوة شيئا لا يمكن مقاومته ، ان حالا وان مستقبلا • وسيكون من اختصاص الدولة العالمية ، أو اتحاد الدول ، اذا أريد أن يكون اتحادا ناجحا ، أن يحسم فى أمور العالم لا عن طريق المبادىء القانونية التى يمكن تطبيقها فى محكمة العدل بلاهاى ، ولكن ، بقدر المستطاع ، على هدى النتيجة التى كانت تصل اليها لو أن هذه الأمور حسمت بالحرب : يجب أن تكون وظيفة السلطة جعل الالتجاء الى القوة غير ضرورى ، وليس اهدار قرارات مضادة للقرارات التى يمكن الوصول اليها بالقوة •

وقد يحسب البعض أن هذا الرأى مناف للأخلاق • وربما احتج البعض بأن غاية الحضارة هى كفالة العدالة، وليس اتاحة النصر للأقوياء • ولكن حينما يسمح لهذا التناقض بأن يقع ، ينسى الناس أن محبة العدالة قد تكون هى نفسها سببا فى استعمال القوة• فاذا أردنا وضع تشريع للحسم فى موضوع مختلف عليه ، بنفس الطريقة التى كان يحسم بها لو أننا التجأنا الى القوة ، لوجب علينا أن نضع العدالة نصب أعيننا عند وضع

هذا التشريع ، بشرط أن يكون الحق فى جانب واحد بصورة صارخة بحيث يجعل الأطراف التى لا دخل لها فى الموضوع ترغب فى دخول المعركة . ان رجلا قويا اذا هاجم رجلا ضعيفا فى أحد شوارع لندن ، فان ميزان القوة يميل الى جانب الرجل الضعيف ، وذلك لأن المارة سيتقدمون لحمايته، ولو لم يتدخل رجال البوليس . ان كلامنا عن النضال بين القوة والحق ، وتمنينا فى الوقت نفسه أن ينتصر الحق ، ليس الا رياء وانحرافا منا عن الجادة . ان النضال اذا كان ناشبا حقا بين القوة وبين الحق ، فمعنى هذا أن ينهزم الحق . والذى يرمى اليه من طرف خفى القائلون بأن الحق هو القوة هو أن الجانب الأقوى ليس قويا الا لضعف مفهوم الحق فى أذهان الناس . غير أن مفهوم الحق فى أذهان الناس مفهوم شخصى بحت ، ثم هو عامل من العوامل التى تقضى بترجيح القوة . وليس مناط الرغبة فى أى تشريع هو وجوب الحسم فى الأمور بمقتضى ما يفهمه الناس عن الحق ، ولكن أن يحسم فيها بالطريقة التى نشعر أنها تجعل الالتجاء الى القوة غير ضرورى .

والآن ، وقد تكلمت عما لا ينبغى للدولة أن تضطلع به ، فلأتكلم عما ينبغى لها أن تقوم به من مهام :

ففضلا عن الحرب ، وحفظ النظام الداخلى ، نجد للدولة وظائف ايجابية أخرى معينة تقوم بها ، ووظائف أخرى معينة يجب أن تقوم بها .

ويمكننا أن نضع مبدأين فيما يتعلق بهذه الوظائف الايجابية :

أولا : ان ثمة أمورا يتوقف صالح المجتمع كله على أن يصل جميع أفراده الى حد أدنى معين منها عملا لا نظرا فحسب ، وفى أحوال كهذه ، يكون للدولة الحق فى الاصرار على بلوغ هذا الحد .

ثانيا : هناك طرق تجعل ألوانا مختلفة من المظالم فى حيز المستطاع ، وذلك لاصرار الدولة على الاكتفاء بتنفيذ القانون ، دون أن تفعل شيئا آخر مع أنها مظالم كان يمكن ألا تقع بعامل الخوف مما تثيره من غضب من تقع عليهم . والدولة هى التى ينبغى ــ بقدر المستطاع ــ أن تكون المانعة من وقوع هذه المظالم .

وأعظم الأمثلة وضوحا على أن الصالح العام يتوقف فى أمر ما من

الأمور على بلوغنا فيه حدا أدنى ، هو الاجراءات الصحية ومنع الأمراض المعدية ، فان حالة واحدة من حالات الطاعون قد ينشأ عنها كارثة لمجتمع بأسره ، ان هى أهملت • ولا يستطيع أحد أن يؤيد تأييدا معقولا ، بحجة المبادىء العامة للحرية ، وجوب ترك شخص مصاب بالطاعون هو وشأنه ، لينشر العدوى فى أوسع نطاق • ومثل هذا ينطبق على موضوع المجارى والتبليغ عن الحميات ، وما اليها من الأمور الأخرى ، والتدخل فى حرية الآخرين يظل شرا ، ولكنه ــ فى بعض الأمور يكون كما لا يخفى شرا أقل شأنا من انتشار مرض يمكن أن تجلبه علينا تلك الحرية ، ولعل استئصال الملاريا والحمى الصفراء بابادة البعوض هو أبرز الأمثلة على ما يمكن أداؤه من الخير بهذه الطريقة ، ولكن حينما يكون الخير تافها أو مشكوكا فيه ، والقدر الذى نتدخل به فى حرية الناس كبيرا ، يصبح أفضل لنا أن نتحمل قدرا معينا من المرض الذى قد يمكن اجتنابه ، من أن نقاسى هذا الاستبداد العلمى •

ويدخل التعليم الالزامى تحت العنوان نفسه الذى تدخل تحته الاجراءات الصحية • فوجود الطبقات الجاهلة فى مجموع أهل البلاد خطر على المجتمع : لأن وجود نسبة ضخمة من الأميين يوجب على الجهاز الحكومى كله أن يعمل حساب ذلك ، وقد يكون قيام الديمقراطية فى صورتها الحديثة ، فى أمة من الأمم ، مستحيلا استحالة تامة لجهل الكثيرين من الرجال بالقراءة • بيد أن الأمر لا يستلزم التعميم فى هذه الحالة كما يستلزمه فى مسألة الاجراءات الصحية ، وقد كان الأولى أن يسمح للغجر الذين جعلت السلطات التعليمية أسلوب حياتهم ضربا من المحال تقريبا ، بأن يشذوا على تلك القاعدة شذوذا كليا ، الا أننا اذا صرفنا النظر عن هذه الحالات الاستثنائية التى لاتكاد تكون لها أية قيمة فاننا لايمكن أن ندحض الأدلة على أهمية التعليم الالزامى •

والذى تصنعه الدولة للعناية بالأطفال فى زمننا ، أقل ، وليس أكثر ، مما ينبغى لها أن تفعل ، فالأطفال لا قدرة لهم على العناية بمصالحهم الخاصة ، ومسئولية الوالدين يعتورها النقص من نواح عدة ، وواضح أن الدولة وحدها هى التى يمكنها أن تتمسك بتزويد الأطفال بقدر معين من

المعرفة والصحة ، وهو القدر الذى يرضى ضمير المجتمع فىالوقت الحاضر •

وتشجيع البحث العلمى موضوع آخر ، يدخل بلاشك فى اختصاصات الدولة ، لأن منافع المكتشفات تعود بالخير على المجتمع ، بينما الأبحاث باهظة النفقات ، ولن تؤدى الى أية نتيجة اذا ترك القيام بها للأفراد ، وبريطانيا العظمى تأتى بتلكئها فى مؤخرة البلاد المتحضرة فى هذا الميدان •

والنوع الثانى من السلطات التى ينبغى للدولة أن تدخلها فى اختصاصها هو تلك السلطات التى تهدف الى التقليل من الجور الاقتصادى ، وهذا هو النوع الذى وضع الاشتراكيون النقط على حروفه ، فالقانون يخلق الاحتكار أو ييسره ، والمحتكرون قادرون على ابتزاز الضرائب من المجتمع ، وأصرخ الأمثلة على ذلك هو الملكية الخاصة للأراضى • والسكك الحديدية فى الوقت الحاضر تهيمن عليها الدولة بسبب أن الأجور يحددها القانون • وواضح انه ان لم تكن الدولة تهمين عليها : لأمكن أن تبلغ درجة خطيرة من السلطان (١) • ومثل هذه الاعتبارات ، اذا لم يكن ثمة اعتبارات غيرها ، يمكن أن تبرر الاشتراكية الكاملة ، الا أننى أحسب أن العدالة ، فى ذاتها ، هى كالقانون جامدة هذا الجمود الذى يستحيل عليها معه أن تكون مبدأ سياسيا أسمى ، فهى ، حينما تنفذ ، لا تشتمل على أى من بذور الحياة ، أو على أية قوة دافعة من قوى التطور • ولهذا السبب ، كان من المهم ، اذا أردنا أن نعالج احدى المظالم ، أن ننظر اذا كنا بفعلنا هذا سنضحى بالحافز الذى يحفزنا الى القيام بأعمال عظيمة تعود فى جملتها بالفائدة على المجتمع • والملكية الخاصة للأراضى ، وأى مصدر آخر من مصادر الايجار الاقتصادى ، لا ترتبط ، فى مدى ما يصل اليه علمى ، بأى عمل من هذه الأعمال ، واذا كان الأمر كذلك ، لزم أن تكون الدولة هى المتسلم الأصيل للاجارات •

واذا سمح للدولة بكل هذه الاختصاصات ، فماذا يكون مصير المحاولات التى نبذلها لكف طغيان الدولة على حرية الأفراد ؟

ان هذا جزء من المشكلة العامة التى تواجه جميع أولئك الذين

(١) ويمكن أن يكون هذا صحيحا فى ظل النظام النقابى كما هو فى الوقت الحاضر

لا يزالون يهتمون بالمثل التى أوحت الى الناس بالحركة التحـــريرية ، وبالأحرى مشكلة الربط بين الحرية والابتكار الفردى من ناحيـــة ، وبين التنظيم من ناحية أخرى • ان الشئون السياسية والشئون الاقتصـــادية آخذة شيئا فشيئا فى الخضوع للمنظمات الضخمة التى تهـــدد الأفراد بالعجز عن مواجهتها • والدولة هى أكبر هذه المنظمات ، وهى أكبر خطر يتهدد الحرية ، ومع هذا ، فيبدو أن كثيرا من اختصاصاتها يجب أن يزداد لا أن يختزل

وثمة طريق واحد يمكن بواسطته ربط التنظيم بالحرية ، وذلك بتأمين سلطة المنظمات الاختيـــارية المكونة من رجال رغبوا فى أن يتبعوا هذه المنظمات لأنها تهدف الى غاية ما ، هى فى نظر أعضائها غاية هامة ، وليست غاية قضى بها حادث طارىء أو أمر خارج عن الارادة • والدولة ، من حيث أنها وحدة جغرافية ، لايمكن أن تكون كلها عشيرة تألفت بمحض ارادتها ، ولكن ، لهذا السبب نفسه ، كان لابد من رأى عام قوى لكبح جماحها ، حتى لا تستعمل سلطاتها استعمالا تعسفيا ، ولا يمكن تأمين هذا الرأى العام ، فى معظم الأحوال ، الا باقامة الروابط بين أولئك الذين لهم مصالح معينة ، أو رغبات مشتركة •

والأعمال الايجابية للدولة ، فضلا عما تقوم به من المحافظة على النظام ، يجب ألا تنهض بها الدولة نفسها ، بل يترك أمر تنفيذها ما أمكن للمنظمات المستقلة التى ينبغى تركها وشأنها ، دون أى تدخل من الحـــكومة طالما أن الدولة مقتنعة بأن هذه المنظمات لا تهبط فيما تقوم به عن الحد الأدنى الذى لابد منه • ويحدث هذا فى التعليم الابتدائى بقدر محدود فى الوقت الحاضر، وقد تعتبر الجامعات هى أيضا قائمة مقام الدولة فى موضوع التعليم العالى والأبحاث ، الا أنها معفاة فى هذين من التزام حد أدنى • وفى الميـــدان الاقتصـــادى يجب أن تقوم الدولة بالاشراف ، ولكن يجب أيضا أن تدع لغيرها الخطوات الانشائية • وثمة أسباب لاحصر لها تدعو لمضاعفة الفرص الانشائية ، ولاعطاء كل فرد أعظم نصيب ممكن من حرية التصرف ، لأن الدولة ان لم تفعل هذا ظن بها الناس العجز ، وتثبيط الهمم • فيجب أن يكون ثمة سعى متواصل يرمى الى ترك نواحى الحكم التى تغلب عليهـــا

المسحة الايجابية للمنظمات الاختيارية ، وذلك ما دامت غاية الدولة هي مجرد توخي الجدارة ، وأن تضمن حسم المنازعات حسما وديا ، سواء كان ذلك في داخل حدودها أو خارج هذه الحدود ، مع ما يجب مراعاته في أثناء ذلك من روح التسامح في أكبر عدد مستطاع من الحالات الاستثنائية، وعدم الاحتفال بالرسميات الا في أضيق الحدود .

ويمكن أن يتم الشيء الكثير على يد الحكومات المحلية عن طريق الاتحادات المهنية ، وعن طريق المناطق . وهذا هو أعظم الآراء أصالة عند النقابيين ، وهو رأى له قيمته من حيث أنه قيد يكبح جماح الطغيان الذى يمكن أن يغرر بالمجتمع لاستعماله ضد طبقات معينة من أعضائه . وجميع المنظمات القوية ، التى تؤلف رأيا عاما جزئيا ، مثل الاتحادات الجغرافية ، والجمعيات التعاونية ، واتحادات المهن الفنية ، والجامعات ، يجب الترحيب بها بوصفها دروعا تحمى الحرية وتهيىء الفرص للقيام بالمشروعات . **ونحن مفتقرون الى رأى عام قوى لصالح الحرية نفسها . ويجب علينا أن نخوض من جديد معارك حرية الفكر ، وحرية القول ، التى كنا نظن أن البشرية قد انتصرت فيها نهائيا ، وذلك لأن معظم الناس لا يأذنون بالحرية الا للآراء التى يرضى عنها الشعب ، والتشريعات لا يمكن أن تصون الحرية الا اذا تحقق الناس من أن الحرية شيء ثمين ، والا اذا كانوا راغبين في أن يبذلوا ما فى وسعهم للابقاء عليها .**

وهناك اعتراض قديم على كل imperium in imperio أى ـ دولة داخل دولة ـ ولكن هذا ليس الا غيرة الطاغية فحسب ، أما واقع الامر فهو أن كل دولة حديثة تحتوى على منظمات كثيرة لا تستطيع أن تقضى على نشاطها الا فى حالات نادرة حينما يستثار الرأى العام ضد هذه المنظمات ، وقد كانت الحرب الطويلة التى أثارها المستر لويد جورج ضد اتحاد المهن الطبية حول قانون التأمين ممتلئة بطوالع كثيرة من طوالع السعود والنحس الهومرية ، كما هزم عمال المناجم فى ويلز سنة ١٩١٥ ، تؤيدهم الأمة المستفزة ، جميع جيوش الدولة . أما رجال المال ، فليس ثمة حكومة يدور بخلدها أن تشتبك معهم فى صدام ، فحينما تطالب جميع الطبقات الأخرى

بالتضحية فى سبيل الوطن فانها لا تمس الأربعة والنصف بالمائة ، التى تمنح لرجال المال بسوء ، كما يمنحـــون علاوة فائدة مقابل ما يقدمونه للحكومة من مشورة • ومن المفهــــوم فى جميع الدوائر أن أيما فزع الى وطنيتهم يمكن أن يظهرنا بمظهر الجاهلين بأمور المال ، ومما يتنافى وما جرى عليه العرف التجاء الدولة الى سلب الماليين أموالهم بتهديدهم بسحب حمايتهـــــا البوليسية لهم ، وليس هذا لما يثيره مثل ذلك التصرف من صعوبات ، بل لأن الثروة الضخمة تنال اعجابنا الشديد جميعا ، ونحن لا نحتمل أن نرى رجلا واسع الثراء يعامل معاملة خالية من الاحترام •

وقيام المنظمات القوية داخل الدولة كاتجادات الحرف مثلا ليس غير مرغوب فيه الا من وجهة نظر الموظف الرسمى الذى يبتغى الاستحواذ على السلطة المطلقة ، أو من وجهة نظر المنظمات المنافسة ، كاتحادات أصحاب العمل الذين قد يفضلون أن يكون خصومهم غير منظمين ، ولا يستطيع معظم الناس ، نظرا لضخامة اختصاصات الدولة أن يجدوا متنفسا لابتكاراتهم فى المجالات السياسية ، الا فى المنظمات الثانوية المنشأة للأغراض الخاصة ، والناس ان لم يجدوا هذا المتنفس للابتكار فى المجـــالات السياسية فقدوا حيوتهم الاجتماعية واهتمامهم بالشئون العامة ، وأصبحوا فريسة لمكائد الكائدين الذين فسدت ضمائرهم ، وللمتجرين بعواطف الشعب ممن حذقوا فن اللعب بمشاعر الرعاع الضعفاء المتبطلين • وعلاج هذا كله هو أن نزيد فى سلطات المنظمات الاختيارية ، لا أن ننقص منها ، وأن نهيىء لكل شخص مجالا محدودا من النشاط السياسى كما يتفق وميوله ومقدرته، وأن نحد من اختصاصات الدولة الى أقصى قدر مستطاع ، فلا تتعدى هذه الاختصاصات حفظ الوئام بين المصـــــالح المتنافسة •**ان القيمة الجوهرية للدولة هى فى منعها أى شخص من استعمال القوة داخل البلاد• أما مساوئها الجوهرية فهى ترويجها لاستعمال القوة فى الخارج** ، وأنهـــــا ، لضخامة اختصاصاتها ، تجعل كل فرد يشعر بضآلته حتى فى الدولة الديمقراطية• وسأعود فى محاضرة تالية الى مسألة منع الحرب • ان تلافى شعور الفرد بالعجز لا يمكن أن يتم بالرجوع الى نظام دولة المدينة ذات النطاق الضيق ، هذا النظام الذى يمكن ان يكون له رد فعل أشبه برد الفعل الذى ينجم عن

عودتنا الى ما قبل اختراع الآلات ، وواجبنا أن نتلافى هذا الشعور بالطريقة التى تساير اتجاهات العصر الحاضر • وممكن أن تكون هذه الطريقة هى زيادة تحويل الابتكار فى المجالات السياسية الفعلية الى الهيئات التى تكونت بمحض ارادتها بقصد القيام بأعمال من نوع خاص • على أن تكون الدولة بعد هذا أشبه ما تكون بالسلطة الفدرالية ، أو أشبه بمحكمة للتحكيم ، ويمكن أن تحصر الدولة همها عندئذ فى الاصرار على أن يكون لها الحق فى شىء من حسم الخلاف بين المصالح المتنافسة • ويمكن أن تكون قاعدتها الوحيدة فى تقرير الطريقة الصحيحة لحسم هذا الخلاف محاولة للوصول الى الاجراءات التى ترضى عنها اجمالا جميع الجهات صاحبة الشأن •

وهذا هو الاتجاه الذى تتجه نحوه فى الواقع جميع الدول الديمقراطية ، الا اذا صرفتها عنه الحرب ، أو خوف الحرب ،**فاذا ما فتئت الحرب خطرا وشيك الوقوع فى أى يوم فستظل الدولة شبحا مخيفا تضحى فى بعض الأحيان بحياة الفرد ، وتضحى دائما بارتقائه ، الذى لا يصح أن يتقيد بقيد ، فى سبيل النضال العقيم من أجل السيادة بسبب التنافس بينها وبين الدول الاخرى ، الا أن أبشع أعداء الحرية ، سواء فى الشئون الداخلية أو الشئون الخارجية ، هى ••• الحرب •**

٣

الحرب بوصفها نظاماً

بالرغم مما هو معروف من أن معظم الأمم فى معظم الأحيان تستمتع بالسلام نلاحظ أن الحرب نظام دائم فى جميع البلاد الحرة ، شأنها فى ذلك شأن البرلمان الذى هو أحد نظمنا المستديمة ، وان كنا نعلم أنه لا ينعقد على الدوام ، وأنا أريد الآن أن أتكلم عن الحرب بصفتها تلك ، أى بصفتها مؤسسة دائمة ، أريد أن أنظر فى الأسباب التى تجعل الناس يحتملون الحرب ، والأسباب التى يجب أن تجعلهم ينفرون منها ، والخير الذى يعود عليهم اذا أمكن أن يفروا منها ، والطرق التى فى وسعهم أن يقضوا بها على الحرب اذا هم أرادوا ذلك

والحرب نزال بين فريقين ، يحاول كل منهما القضاء على أكبر عدد ممكن من الفريق الآخر ، أو تعجيزه عن العمل ، وذلك فى سبيل الوصول الى بعض أغراضه ، وهذا الغرض يكون عادة جريا وراء نفوذ ، أو طمعا فى ثروة ؛ والناس يستشعرون لذة من اظهار سلطانهم على ناس آخرين ، كما يحلو لهم أن يستحلوا ما يكسبه غيرهم بعرق جبينهم • وفى وسع المنتصرين فى الحرب أن يستمتعوا بقدر من هذه المناعم أوفى مما يستطيع المغلوبون• الا أن الحرب كغيرها من ألوان النشاط الانسانى جميعا ، لا تدور رحاها فى أغلب الأحيان بسبب ما يصبو اليه مثيروها من مطامع ، بقدر ما تثيرها نزعتنا الى الحرب نفسها ، ففى كثير جدا من الأحيان يطمع الانسان فى شىء لا طمعا فى الشىء نفسه ، ولكن بسبب ما فى طبيعته من الميل الى الأعمال التى تؤدى الى ذلك المطمح ، ونحن نلاحظ بناء على ذلك : أن الغايات التى نطمع فى الوصول اليها عن طريق الحرب تبدو فى روعنا ، قبل أن نحارب ، أهم بكثيرمنها اذا حققناها عن طريق الحرب بالفعل ، وذلك بسبب أن الحرب نفسها تشبع شهوة من الشهوات المركبة فى طبيعتنا • ولو كانت أعمال الناس تصدر عن رغبات تحدوهم الى ما يجلب السعادة حقا ، لكانت البراهين المنطقية الخالصة قمينة بأن تضع حدا للحروب منذ زمن بعيد • والذى يجعلنا عاجزين عن كبت شهواتنا الى الحرب هو أنها تصدر عن نزعة ، أكثر مما تصدر عن حسن تقدير للمنافع التى نطمع فى أن نستخلصها من الحرب

وتختلف الحرب عما يستعمله البوليس من قوة فى أن الأعمال التى يقوم

بها البوليس تأمر بها سلطة محايدة ، أما فى الحرب ، فان الأطراف التى تثير المنازعات هى نفسها التى ترخى العنان للقوة الحربية ، وهذا الفرق ليس على اطلاقه ، وذلك لأن الدولة ليست دائما محايدة حيدة تامة فيما يتسبب من قلاقل داخل البلاد ، فحينما تحدث الاضرابات تنحاز الدولة الى جانب الأغنياء ٠ وحينما يحل العقاب بأصحاب الآراء المناهضة للقائمين بالأمر فى الدولة لا يخفى علينا أن الدولة هى أحد أطراف النـــزاع ، ومن ثمة كان من الممكن أن تقوم الدولة بكل أنواع التعسفات ، من كبت الحرية الشخصية الى الحرب الأهلية ٠ ولكن يمكننا أن نميز بصفة عامة بين القوة التى تستعمل وفقا لقوانين وضعها من قبل مجتمع بأكمله وبين القوة التى يستخدمها مجتمع ضد مجتمع آخر فى ظروف لا يكون القاضى فيها الا المجتمع الأول ٠ ولقد قصدت هذا الفرق بالذات لأنى أعتقد أنه لا يمكن الاستغناء تماما عن استعمال القوة بواسطة البوليس ، وعندى أن استعمال القوة على هذا النحو ، فى معترك الشئون الدولية ، هو خير ما نأمل لحفظ السلام الدائم ٠ ففى هذه الأيام ، يقوم النظام فى الشئون الدولية على المبدأ الذى يوجب على كل دولة ألا تتدخل فى مشكلة من مشاكل الا اذا كانت تمس مصالحها ٠ والعرف الدبلوماسى يحرم هذا التدخـــل لمجـــرد تأييد القانون الدولى ، ويمكن أن تحتج أمريكا حينما تغرق الغواصات الألمانية مدنيين أمريكيين ، الا أنه لا موجب لاحتجاجها اذا لم يكن فى المغرقين مدنيون أمريكيون ٠ ويمكن أن تكون الحال من هذا القبيل فى الشئون الداخلية ، اذا لم يتدخل البوليس الا فى حوادث القتل التى يتصادف وقوعها على رجال البوليس ق وطالما أن هـــذا المبدأ هو المعمول به فى علاقات الدول بعضها ببعض فلا يمكن أن تستخدم قوى الدول المحايدة استعمالا مجديا فى منع الحرب

وتتعاون قوتان فى كل دولة من الدول المتمدينة للتسبب فى الحرب ٠ ففى الأوقات العادية يكون بعض الناس ــ وهم عادة قسم صغير من مجموع عدد السكان ــ ميالين الى اشعال نار الحرب : انهم يتكهنون بوقوع الحرب ، وظاهر أن الأمل فى وقوعها يثلج صدورهم ٠ وطالما كانت الحرب بعيدة الاحتمال رأيت غالبية السكان لا تعير هؤلاء الناس الا التفاتا قليلا ، فهم لا

ينشطون الى تأييدهم ، ولا ينشطون الى معارضتهم ، ولكن عندما يبدو لهم ان الحرب موشكة الاندلاع ق رأيت حمى الحـــرب تنتاب الشعب ، ورأيت الذين كانوا من قبل ميالين الى اشعال نار الحرب يحظون بتأييد الجميع لهم تأييدا حارا ، اذا استثنيت أقلية لا أهمية لها • وتختلف النزعات التى تثير حمى الحرب بعض الاختلافات من النزعات التى تجعل بعض الناس ميالين الى اشعال نار الحرب • فى الأوقات العادية ، والمتعلمون هم وحدهم الذين قد يميلون الى الحرب فى الأوقات العادية وذلك لأنهم وحدهم الملمون الماما تاما بأحوال البلاد الأخرى ، وبالدور الذى يمكن أن تنهض به بلادهم فى شئون العالم • الا أن علمهم ، وليست طبائعهم ، هو الذى يميزهم من مواطنيهم ينصح بذلك النقابيون •

ولنضرب لذلك بأشد الأمثلة وضوحا ، أعنى السياسة الألمانية ، التى لم تكن فى سنى ما قبل الحرب تنفر من الحرب ، ولم تكن سياسة ودية نحو بريطانيا • ومما يعود علينا بالنفع محاولة تفهم الحالة الذهنية التى نشأت عنها هذه السياسة

ان الذين يوجهون السياسة الألمانية هم قبل كل شىء رجال وطنيون الى حد لا يعرفه الفرنسيون أو الانجليز ، وهم يخيل اليهم أن مصالح ألمانيا هى وحدها المصالح الجديرة بالاعتبار ، دون أن ينازعهم فى ذلك منازع • وليس من شأنهم هم ، مادام همهم هو هذه المصالح ، أن يفكروا فيما يصيب الأمم الأخرى من اضرار ، ولا فيما تجره هذه السياسة من تخريب للمدن ودمار للأهالى ، ولا ما يلحق بالحضارة من تلف لا يمكن اصلاحه •• انهم لا يقيمون وزنا لأى شىء ماداموا يستطيعون أن يسبغوا على ألمانيا ما يحسبون أن فيه منفعتها

والنقطة الثانية الجديرة بالاعتبار فى السياسة الألمانية ، هى أن تصور ألمانيا لصالحها القومى يقوم على التنافس بخاصة • ان الثروة الجديرة بالاعتبار فى نظر الحكام الألمان ليست هى ثروة الاكتفاء الذاتى الذى لا يدفع الى المنافسة ، سواء أكانت هذه الثروة مادية أم معنوية ، بل هى الثروة المقارنة لتى تتنافس ألمانيا والبلاد المتمدينة الأخرى فى ميدانها • ومن أجل

هذا كان تدمير الأشياء الصالحة خارج بلادهم شيئا يكاد يكون مرغوبا فيه كرغبتهم فى ابتكار أشياء صالحة فى ألمانيا نفسها . والناس فى معظم أقطار الأرض يعدون فرنسا أكثر أمم العلم حضارة : فللفنون الفرنسية وللأدب الفرنسى ، ولأساليب الفرنسيين فى الحيـاة سحرها فى نفوس الأجانب ، وهو مالا تتمتع ألمانيا بشىء منه . كما أن الانجليز قدنضجت عندهم الحرية السياسية ، بقدر ما نما فيهم فن الاحتفاظ بامبراطورية ، مع استعمال حد أدنى من الغضب ، وذلك بطريقة أظهر الألمان حتى اليوم أنهم ليسوا أهلا للأخذ بها ، وهذا وذاك من العوامل التى تثير الحسد ، والحسد يثير رغبة الحاسدين فى تدمير ما هو صالح فى البلاد الأخرى ، وقد كان العسكريون الألمان على حق كل الحق حينما ذهبوا الى أنه من الممكن تدمير أحسن ما فى فرنسا وانجلترا عن طريق حرب كبرى ، ولو لم تؤد هذه الحرب آخر الأمر الى هزيمة فرنسا وانجلترا فى ميادين القتال نفسها . ولقد قرأت بيانا بعدد كتاب فرنسا الناشئين الذين قتلوا فى ميدان الوغى ، والراجح أن السلطات الألمانية قد اطلعت هى أيضا على هذا البيان ، وأن دلائل البهجة قد بدت على قسماتها لأن عاما آخر يمضى على فرنسا فتصاب فيه بمثل هذه الخسائر سيقضى على الأدب الفرنسى لمدة جيل ، بل ربما قضى عليه الى الأبد بسبب ما تخسره فرنسا من مأثور السلف . ان كل صيحة ضد الحرية فى صحفنا هى التى أشد شغفا باثارة الحروب ، وكل تحريض على اضطهاد الألمان الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم ، وكل سمة من سمات الوحشية المتزايدة فى موقفنا .. ان ذلك كله يقرأه الألمان الوطنيون ، ولا بد ، قراءة المغتبط اللهفان ، بوصفه شاهدا على نجاحهم فى سلبنا أحسن ما نملك ، وبوصفه شاهدا على أنهم يجبروننا على أن نقتدى ببروسيافى عمل أسوأ ما تعمله من أشياء .

بيد أن ما يحسدنا عليه الحكام الألمان أشد الحسـد هو القوة والثروة ـ القوة التى تتيحها لنا سيطرتنا على البحـار والمضايق ، والثروة التى واتانا بها تفوقنا الصناعى طيلة قرن من الزمان ـ وهم يشعرون أن لديهم من المؤهلات فى هاتين الناحيتين أكثر مما لدينا ، فلقد كرسوا من تفكيرهم

ومهارتهم فى ميادين التنظيم العسكرى والصناعي أكثر مما كرسنا بشوط بعيد ، ومستواهم أعلى بكثير من مستوانا من حيث الذكاء والعلم ، ومقدرتهم على مواصلة السعى الى غاية يمكن ادراكها ، مستعينين عليها بحسن بصرهم وتكاتفهم ، هى أعظم بكثير مما نستطيع ٠ الا أننا ، لمجرد أننا اتيحت لنا فرصة البدء فى هذ السباق (كما يظنون) ، قد أقمنا امبراطورية مترامية الأطراف أعظم مما استطاعوا أن يفعلوا ، كما أتيح لنا التحكم فى ثروة أضخم بكثير مما عندهم ٠ وهذا كله شيء لا يطاق ، لكنه شيء ، لا يمكن تبديله بغير حرب كبيرة

وفضلا عن هذه المشاعر كلها ، فان ثمة فى ألمانيا كثيرين ، وبخاصة أولئك الذين يعرفوننا خير معرفة ، يضمرون لنا كراهية شديدة ، بسبب ما فينا من كبر ٠٠

Farinata degli Uberti surveyed Hell. ”Come avesse lo Inferno in gran dispitto”.

وهذا هو ما يحدث تماما عندما يقع ضباط انجليز فى أسر الألمان ، فهم – كما يقول الألمان أنفسهم – لايفتأون يتلفتون حولهم بين آسريهم ثم ينتحون ناحية ، كأنما أعداؤهم مخلوقات قذرة مؤذية ، أو أنها ضفادع سامة أو بزاقات (١) أوعقربانات (٢) ٠٠ مايمسها الانسان وهوراضيالنفس بل يقذف بها وهو غاثى النفس اذا ما اضطر الى الامساك بها لحظة ٠ وليس يصعب علينا أن نتصور كيف كانت الشياطين تمقت فايناتا (٣) Farinata وكيف كانت تغلو فى الحاق الآلام به أشد مما كانت تصنع بجيرانه ، لكى تجعله يبدى شيئا من لتوجع يعترف به بوجودها ، فاذا أستمر فى هدوئه الذى يجعلها كأنما هى غير موجودة جن جنونها ، وهذا هو نفس الأمر الذى يطيش صواب الألمان بما نبديه لهم من برود الطبع ، ونحن فى أعماق أنفسنا ننظر الى الألمان كما ينظر الانسان الى الذباب فى اليوم الحار ٠٠

(١) نوع من ذوات الأصداف الضارة بالحدائق

(٢) أم أربعة وأربعين

(٣) فاريناتا دلجى أوبرلى F. Delgi Uberti (١٣٧٠ – ١٣٦٤) قائد جبلى (من حزب الجبليين) نفى من فلورسا ٠٠ وقد وضعه دانتى فى جحيمه (الفصل العاشر)

فالذبابة حشرة مضايقة لا يجد الانسان بدا من مطاردتها عن نفسه ، ولكن لا يدور بخلدنا أن نترك الذباب يصرفنا عما نحن بصدده : فعندما تسرب الينا الشك فى يقيننا بالنصر أول الأمر ، بدأنا نتأثر بالألمان تأثرا عميقا ولو أننا قد توالى اخفاقنا فى مشروعاتنا العسكرية ، لكان حريا أن يجىء الوقت الذى نؤمن فيه بأن الألمان بشر مثلنا ، وليسوا مجرد شىء مقلق ، ويحق لنا عندئذ أن نمقتهم ذلك المقت الذى لا يملكون أن يشمئزوا منه ، وليس بين مثل هذا المقت والتقارب الحقيقى سوى خطوة قصيرة .

والمشكلة التى ينبغى أن تحل ، اذا أردنا أن يكون مستقبل العالم أقل مما هو الآن شناعة هى مشكلة الحيلولة بين الأمم وبين الوقوع فى تلك الأحوال النفسية التى وقعت فيها كل من ألمانيا وانجلترا عندما نشبت هذه الحرب فهاتان الأمتان يمكن اتخاذهما فى تلك الفترة مثالا يكاد يكون أسطوريا للكبرياء والحسد : « **انك ياانجلترا : أيتها المعقدة المنتفخة الأوداج ، انك تحجبين عن العالم كياني كله ، وان أعضاءك المتعفنة لتحجب الشمس من أن تضىء فوقى ، كما تحجب المطر من أن يمدنى بماء الحيـاة .. فلابد من تشذيب أفنانك المنتشرة ولابد من مسخ جمالك المتسق ، حتى أستطيع أنا أيضا أن أجد حرية النماء ، وحتى لا يعود جرمك المتعفن فيقف فى سبيل شبابى النابض** » .. أما انجلترا ، المنعزلة التى نال منها الضجر .. انجلترا الخالية البال عن مطامع الدول الأخرى ، فقد حاولت ، من حيث لا تدرى ، أن تكتسح هـــذا المنافس المحـــدث الذى شرع ينغص عليهـا تأملاتها ، لكنها لم تكتسحه ، بل هو باق الى الآن ، ولا يزال يراوده شىء من أمله القديم فى تحقيق دعاواه ، وما مطالبه ، وما مقاومة هذه المطالب الا حماقة ، فليس ثمة مايبرر مقاومتنا لأى من المطالب الألمانية التى لا تتعارض واستمرارنا فى هذا الوجود ، فهل ثمة سبيل لمنع مثل هذه الحماقة المتبادلة فى المستقبل ؟

وعندى أن الألمان أو الانجليز لو كانوا يستطيعون التفكير على أسس من المصلحة الفردية ، لا على أساس من الكبرياء القومية ، لكان خليقا بهم أن يفطنوا الى أن أولى السبل بالاتباع فى كل لحظة خلال الحرب هو أن

ينتهوا الى السلم فى الحال ، وبأحسن الشروط التى كان ممكنا أن يصلوا اليها ٠٠ وانى لأومن بأن هذا السبيل هو أصوب ما يمكن أن تفعله كل أمة على حدة لخيرها ولخير الحضارة بصفة عامة ٠ ان أبشع ما يستطيع العدو القيام به من أذى فى وقت من أوقات السلام المزعزع قد يكون هنة اذا قيس الى الويلات التى تنزلها الأمم بنفسها باستمرارها فى الحرب ، والكبرياء هى التى تعمى أبصارنا عن هذه الحقيقة الناصعة ، الكبرياء التى تجعل الاعتراف بالهزيمة شيئا لا يحتمل ، والتى تسبغ على نفسها سربال الحق بما توجيه الى أصحابها من جميع أنواع الرزايا التى يفترض أن تقع بهم ، ان هم سلموا بالهزيمة ، الا أن الشر الذى لا شر غيره ، انما هو المهانة ٠٠ والمهانة شيء ذاتى ، ونحن لن نشعر بالمهانة اذا ما اقتنعنا بأننا كنا مخطئين باشتراكنا فى الحرب ، وأنه من الخير لنا القيام بأعمال أخرى لا تعتمد على التوسع ، فاذا استطاع الانجليز أو الألمان التسليم بهذه الحقيقة تسليما صادقا لكان من اليسير أن يوافقوا على أى نوع من أنواع الصلح الذى لا يهدم الاستقلال القومى ، وذلك دون أن تجرح كرامة أحدهما ٠٠ تلك الكرامة التى لا غناء عنها لحياة طيبة

لقد كان الروح الذى دخلت به ألمانيا الحرب روحا بغيضا ، غير أنه كان روحا رضع لبان الروح الانجليزى المطبوع ، فلقد كنا نتيه كبرا بمستعمراتنا وثرائنا ، ولقد كنا على أهبة الاستعداد دائما للدفـاع بقوة السيف عما فتحناه فى الهند وفى أفريقيا ٠ ولو أننا كنا قد تبينا تفاهة امبراطوريتنا وأظهرنا رغبتنا فى تسليم بعض المستعمرات لألمانيا دون أن ننتظر هذا التهديد بالالتجاء الى القوة ، فلربما كان هذا قد اتاح لنا أن نقنع الألمان بأن مطامعهم كانت مطامع جمقاء ، وبأن احترام العالم شيء لا يمكن أن تناله أمة من الأمم بانتهاجها سياسة استعمارية ، لكننا بمقاومتنا لتلك الأطماع برهنا على أننا مثلهم فيما نعيبهم به ٠ ولقد أصبحنا ، لأننا ملاك هـــذه المستعمرات بالفعل ، من انصار الـ Status quo أى الوضع الراهن ، ومن هنـــا كانت رغبة الألمان فى اشعال نار الحـــرب لقلب هـــذا الوضع الراهن رأســا على عقب ، ومن هنا أيضـــا كانت رغبتنا فى الحـــرب

للحيلولة دون أن يكون قلب الوضع الراهن فى صالح الألمان ، ولقد بلغ بنا ايماننا بقدسية سياسة الوضع الراهن درجة لم نتبين معهـــا كيف عادت هذه السياسة علينا بالنفع ، أو كيف اننا ، باصرارنا عليها ، ساهمنـــا بالمسئولية ، فى هذه الحرب • ان من غير الممكن ولا من المرغوب فيه ، اتباع سياسة الوضع الراهن على الدوام فى عالم تقوم فيه الأمم وتفنى ، ويتبدل ميزان القوى ويتحول ، وتضيق الممالك بساكنيها • ان واجب الأمم ، اذا **كان لابد لها من صون السلام ، أن تتعلم كيف تتقبل التغيرات التى تطرأ على خريطة العالم ، والتى لا توافق هى عليها ، دون أن تشعر بأن الواجب يقضى بأن تنهزم ، قبل الموافقة عليها ، فى ميدان الحـــرب ، أو دون أن تشعر بأن التسليم بهذه التغيرات يعرضها للهوان •**

ان اصرار المشرعين ، ومحبذى صون السلام باقرار الأمر الواقع ، هو الذى دفع بألمانيا الى نظامها العسكرى ، فلألمانيا الحق كل الحق فى انشـاء امبراطورية كما لأية دولة عظمى ، بيد أنهـــا لا تستطيع تحقيق هـــذه الامبراطورية الا عن طريق الحرب ، وذلك أن الدول كانت تغلو فى الجمـع بين محبتها للسلام ، وبين نظرتها الجامدة الى العلاقات الدوليـــة • وقـد علمتنا المنازعات الاقتصادية أن كل ما تتسم به طبقات العمال ذوى الأجور من قوة وحيوية ، لا يستتب لجو الســـلام الذى يجب أن يسود ميـــدان الصناعة ، وذلك لأن النظام القائم لتـــوزيع الثروة هو نظام غير عادل • وأولئك الذين يتمتعون بمراكز ممتازة يحاولون تقوية دعاواهم بتحبيـــذ الرغبة فى السلم ، والتنديد بأولئك الذين يروجون للنضال بين الطبقات• وليس يدور فى أخلاد الرأسماليين بحـال أنهم مشتركون فى المســئولية حرب الطبقات بمعارضتهم للتغيرات ، دون أن يفكروا فيما اذا كانت تغيرات عادلة ، وعلى هذا المنوال نفسه تضطلع انجلترا بنصيبها من المسئولية ، فى الحرب التى أثارتها ألمانيا • واذا كان للحرب الفعلية أن تنتهى فى يوم من الأيام ، فلابد أن تكون ثمة وسائل سياسية نحقق بها النتائج التى لا يمكن تحقيقها اليوم الا بالنصر فى الحرب ، وأن تتقبل الأمم بمحض رغبتها مطالب الآخرين التى تبدو فى نظر المحايدين مطالب عادلة •

ولن يمكن القضاء على الروح العسكرية الى الأبد ، الا اذا تقبل العـــالم

قيام لون من هذا النظام ، يتمثل فى برلمان من الأمم ، له السلطان المطلق فى تبديل توزيع الأراضى • وقد يمكن أن تسفر هذه الحرب عن تبدل فى ميول الدول الغربية ، وفى نظرتها العامة ، يكفى لجعل قيام مثل هـذا النظام ممكنا • وقد يقتضى الأمر نشوب حروب أخرى ، وحدوث دمار غير هـذا الدمار قبل أن تثور غالبية سكان العالم المتمدين على هذه الوحشية ، وعلى هذا الدمار العقيم الذى تحدثهما الحروب الحديثة • وأنا لا يساورنى الشك فى أن التفكير السليم سوف ينتصر ، ان عاجلا وان آجلا ، على هذه النزوات العمياء التى تلقى بالأمم فى أتون الحرب ، اللهم الا اذا قضى على نظرتنا الى الحضارة ، وعلى قدرتنا على التفكير الانشائى بأن يظلا فى انحطاط مستمر • ولن تكون هناك أية صعوبة ، اذا ضممت غالبية كبـيرة من الدول العظمى تضميما لا يتزعزع على وجوب صون السلام ، لن تكون هناك أية صعوبة فى انشاء الأداة السياسية لحسم المنازعات ، وفى انشاء النظم التعليمية التى تستطيع أن تغرس فى أذهان الناشئين صورة بشعة للفزع الأكبر الـذى تجلبه تلك المجزرة التى تجعلهم يعجبون ببلادهم الآن •

وثمة ، فضلا عن القوى الواعية البصيرة بالعواقب التى تدفع بالعالم الى الحرب ، تلك المشاعر المبهمة •• مشاعر العامة ، تلك المشاعر التى هى على استعداد دائما ، وفى معظم البلاد المتمدينة ، لأن تلهبها حمى الحرب فتنطلق بأصحابها الى الميدان مؤتمرة بأوامر رجال السياسة • فواجبنا ، اذا أردنا أن نضمن السلام ، أن نقلل الى حد ما من اسـتعداد الناس للاصابة بحمى الحرب ، وواجب أى انسان يريد النجاح فى هذا المضمار أن يفهم قبل كل شىء ما هى حمى الحرب ، ولماذا تنشأ •

ان الأشخاص الذين لهم أثرهم العام فى هذا العالم ، سواء كان هذا الأثر خيرا أو شرا ، تسيطر عليهم ، عادة ، رغبة ذات ثلاث شعب • فهم يرغبون أولا فى نشاط يستغلون فيه استغلالا تاما تلك الملكات التى يشـعرون بأنهم يتفوقون على غيرهم فيها ، وثانيا ، ذلك الاحساس بالنجاح فى التغلب على ما يعترض سبيلهم ، وثالثا ، احترام الآخرين لهم بناء على ما أدركوه من نجاح • وثالث هـذه الرغبات يكون غير موجود فى بعض الأحيان •

فبعض الناس ممن كانوا عظماء بالفعل ، كانوا لا يتصفون بهذا « الضعف الأخير » ، وكانوا يقنعون باحساسهم هم أنفسهم بالنجاح ، أو بمجرد ابتهاجهم بما بذلوا من جهد شاق • بيد أن الرغبات الثلاث موجودة بصفة عامة • وتتحدد مواهب بعض الناس حتى لتتحكم طبيعة ملكاتهم فى اختيار ألوان نشاطهم ، وثمة آخرون تتوفر لهم فى عهد الشباب كفايات فى نواح متعددة ممكنة التحقيق بحيث لا يحدد اختيارهم سوى الاحترام المتفاوت الدرجات الذى يوليه الرأى العام لأنواع معينة من النجاح فى الحياة •

وتجيش هذه الرغبات نفسها ، بدرجة أقل وضوحا عادة ، فى صدور الذين لا يملكون كفايات غير عادية • بيد أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون انجاز شيء من الأشياء الشديدة الصعوبة بمجهودهم الشخصى ، وانه ليستحيل عليهم ، كوحدات ، أن يدركوا معنى العظمة ، أو يحسوا بذلك الانتصار الذى يتأتى عن طريق التغلب على العقبات الكبيرة ، فحياتهم كأفراد حياة خاملة خالية من المغامرات ، انهم يتوجهون فى الصباح الى مكاتبهم ، أو الى مخازنهم ، ثم يعودون فى المساء مكدودين لا ينبسون ، الى أزواجهم وصغارهم ، ولاعتقادهم أن الضمان هو الوسيلة المثلى للخير ، فقد أمنوا ضد المرض والموت ، وقد وجدوا من يستخدمهم دون أن يخشوا شيئا ذا بال من الفصل ، وان لم يكن لهم أى أمل فى تحسين عظيم يصيبهم • الا أن الضمان ، اذا ما حصل عليه المرء ، يصيب صاحبه بحال من السأم • وللمغامرة والتخيل والمخاطرة مطاليبها هى الأخرى ، ولكن أنى للشخص العادى الذى يكسب قوته بالأجر أن يوفى هذه المطاليب ؟ وحتى اذا أمكن أن يوفيها ، فان مطالب الزوجة والصغار مقدمة عليها ، ويجب ألا يصيبها الاهمال •

على ان الفرج قد أدرك هذا الرجل الذى هو فريسة القانون والتنظيم الجيد •• وقد جاءه الفرج فى لحظة من لحظات الأزمات المفاجئة ••• فهو ينتمى الى أمة ، وهذه الأمة قد تضطلع بالمخاطرات ، وقد تشترك فى مشروعات صعبة ، وهى تتمتع بالمشاعر الحارة التى تصحب النضال المشكوك فى نتائجه ، وتثير أخيلة الناس وميلهم الى المغامرة بارسال

الحملات العسكرية الى جبل سيناء ، وجنات عـــدن ٠ فالذى تفعله أمته ، يفعله هو بمعنى من المعانى ٠ والذى تقاسيه بلاده ، يقاسيه هو أيضا ٠ ان السنين الطويلة التى مضت فى حذر انتهت بهذا الجنون الشامل الذى يقتص منه ٠ ان الناس يحسبون ان جميع واجبات الاقتصاد والنظام والحرص تلك الواجبات المزعجة التى درج الانسان على أدائها كل فيما يخصـــه ، لا تمت الى الشئون العامة بصلة : ان من الوطنية والنبالة أن يكون الانسان مغامرا فى سبيل بلاده ، وان يكن من النذالة أن يكون مغامرا فى ســـبيل نفسه ٠ ان العواطف البدائية العتيقة التى تنكرت لها المدنية ، لتجيش فى صدر الانسان أقوى وأقوى كلما حاول كبح جماحها ، فترى الفكر والغريزة يرتدان فى لحظة خلال القرون ، وهنا يبرز انسان الغاب المتوحش من محبس العقل الذى أطبقت عليه جدرانه ٠ هذا هو الجزء الأعمق من سيكلوجية حمى الحرب ٠

وفضلا عن ذلك العنصر غير المنطقى ، والغريزى ، من عناصر حمى الحرب فان ثمة كذلك ، قدرا معينا من التصور شبه المنطقى ، الـــذى يســـمونه « التفكير » من باب التلطف ، موجودا دائما ، ولو كوسيلة لاطلاق النزعـــة البدائية من عقالها فقط ٠ ويندر أن تصيب حمى الحرب أمة من الامم الا اذا اعتقدت هذه الأمة أنها ستنتصر فيها ٠

ومما لا شك فيه أن الناس يبالغون فى تجســيم فرص النجاح مدفوعين الى ذلك بعامل الاثارة ، الا أن ثمة شــيئا من التناسب بين الشىء الـــذى يتمناه المرء ، وبين الشىء الذى يمكن أن يتوقعه انسان منطقىّ ٠ فهولنده ، وهى بلد انسانى مثل انجلترا سواء بسواء ، لم يكن ثمة ما يدفعهـــا الى دخول الحرب فى سبيل بلجيكا ، وذلك لأن احتمال وقوع الكارثة كان من الوضوح بدرجة لا تدع مجالا للشك فى أمرها ٠ ولو قد عرف أهل لندن تلك التطورات التى تطورت اليهـا الحرب لما انتشوا تلك النشـــوة التى غمرتهم من أمد بعيد فى يوم تلك البطالة الرسمية من أيام أغسطس ، ان الأمة التى لها حديث تجربة بالحرب ، والتى أيقنت من أن الحرب تكاد تكون دائما أشد ايجاعا مما كان الناس يتوقعون أن تكون فى أول شـــبوبها ،

تصبح أكثر نفورا من أن تصيبها حمى الحرب ، ثم يظل نفورها ذاك حتى يشب فيها جيل جديد من أبنائها • ان الحكومات ورجال الصحافة الذين يريدون الحرب يعرفون عنصر التفكير الصحيح فى الحرب ، كما قد يدل على ذلك تهوينهم ، جميعا وبلا استثناء ، لمخاطر الحرب التى يريدون ايقاد نيرانها • فلقد فصل السير وليم بطلر من منصبه عند بداية الحرب فى جنوب أفريقية لهذا السبب الذى لم يكن يدق على الافهام ، وهو قوله بأن ستين ألف جندى ، وثلاثة أشهر ، قد لا تكفى لاخضاع جمهوريات البوير ، فلما تبين أن الحرب حرب شاقة ، وطويلة الأمد ، انقلبت الأمة على أولئك الذين أضرموا نارها • ونحن نستطيع أن نعترض ، دون أن نقيم كبير وزن للمنطق فى شئون البشر ، ان أمة ما من الأمم يمكن أن تقاسى من حمى الحرب لو استطاع كل انسان وافر العقل من أفرادها أن يرى ان الهزيمة محتملة كل الاحتمال •

ومناط الأهمية فى هذا أنه يمكن أن يجعل نشوب حرب عدوانية شيئا غير خليق بأن يقع الا فى النادر ، اذا كانت فرص الانتصار فيها فرصا غير ذات بال • فلو أن الأمم المحبة للسلام كانت من الكفاية بالقدر الذى يكفل لها هزيمة الأمم الراغبة فى شن الحروب العدوانية ، فلا بأس من أن تؤلف هذه الامم المحبة للسلام حلفا ، وأن تتعاهد على أن تحارب مجتمعة أية أمة ترفض أن تعرض دعاواها على مجلس دولى • ولعلنا لم نكن نعدو الصواب قبل هذه الحرب الحاضرة لو أننا أملنا فى صيانة السلم فى العالم بمثل هذه الطريقة • غير ان قوة ألمانيا العسكرية أثبتت لنا أن مثل هذا المشروع ليس مكفول النجاح بدرجة عظيمة فى الوقت الحاضر • على أن نجاحه قد يكون أكثر احتمالا فى زمن غير بعيد وذلك لما يجرى فى أمريكا من تطورات سياسية •

ومن اليسير كبح جماح القوى الاقتصادية والسياسية التى تعمل على اثارة الحروب اذا تأصلت الرغبة فى السلام تأصلا قويا فى جميع الأمم المتمدينة • الا أنه ما دامت الشعوب قابلة لحمى الحرب ، فان كل عمل فى سبيل السلام لابد أن يبقى مزعزعا • واذا لم يكن فى الامكان اثارة حمى

الحرب ، كان فى المستطاع شل العوامل السياسية والاقتصادية فلا تؤدى الى أية حرب طويلة الأجل ، أو شاملة التدمير . والمشكلة الأساسية أمام رجل السلام هى كبح جماح النزعات التى تقود الى الحرب ، تلك النزعات التى تستولى على مشاعر مجتمعات بأسرها من وقت الى آخر ، وهذا لا يمكن القيام به الا اذا أحدثنا تغييرات بعيدة المـــدى فى أساليب التعليم ، وفى البناء الاقتصادى للمجتمع ، وفى القانون الأخلاقى الذى يتحكم الرأى العام بواسطته فى حياة الناس رجالا ونساء (١) .

ان طائفة كبيرة من النزعات التى تقود الأمم الى الحرب هى فى نفســها نزعات ضرورية لأية حياة قوية أو تقدمية ، فأى مجتمع لا يحفزه التفكير وحب المغامرة سرعان ما يصبح مجتمعا راكدا ، ويأخذ فى الانحـلال . والنضال ، بشرط ألا يكون مدمرا ووحشيا ، ضرورى لحفز الهمم ، ولتأمين انتصار ما هو حى ، على ما هو ميت ، أو ما هو مجرد تقليد من التقاليد . فرغبة المرء فى الظفر بغاياته ، وشـــعوره بالتضامن والهيئات الكبيرة من الناس ، ليسا من الأمور التى يرغب انسان عاقل فى أن يقضى عليهـا . وليس الشر الا ما يؤدى الى الموت والدمار والكراهية . فالمشـــكلة هى : الابقاء على هذه النزوات ، دون أن نجعل الحرب ثمرة لها .

ان جميع الطوبويات التى أنشأها أصحابها حتى اليوم هى طـوبويات سقيمة منتهى السقم ، وأى انسان فيه أى مقدار من القوة ليفضل أن يعيش فى هذه الدنيا ، بكل ما انطوت عليه من أوضارها المفزعة ، على أن يعيش فى جمهورية أفلاطون ، أو بين خيول سوفت البشرية (٢) . فمنشـئو الطوبويات يقيمونها على افتراض داحض فيما تقوم عليه الحيـاة الطيبة . انهم يحسبون أن فى مقدورهم أن يتصوروا حالة معينة للمجتمع وأسلوبا معينا للحياة ، يجب على الناس فى رأيهم أن يعترفوا بهما كآخر ما يمكن أن تصل اليه الحياة الطيبة، ويجب أن يستمروا لهذا السبب الى أبد الآبدين.

---

(١) سنتناول هذه التغييرات التى يجب أن نرغب فيها من أجلها هى ، وليس لكى نمنـــع الحروب فحسب ، فى محاضرات تالية

(٢) Houyhnhnms خيول لها سمات انسانية تخيلها سوفت

انهم لا يدركون أن أقصى قدر من سعادة الانسان يتوقف على ما يبذله من نشاط ، وأن فضلة جد ضئيلة من هذه السعادة تأتيه من التمتع الذى لم يبذل فيه أى جهد • والمسرات نفسها التى هى مادة هذا التمتع بالفعل ، لا تكون مسرات مرضية عند معظم النـاس الا حينمـا تأتيهم فى فترات نشـاطهم • والمصـلحون الاجتماعيون ، مثلهم مثل منشئى الطوبويات، عرضة لنسيان هذه الحقيقة الجلية من حقائق الفطـرة الانسـانية • فهم يهدفون الى توفير وقت فراغ أكثر ، وفرص أكثر للاستمتاع به ، أكثر مما يهدفون الى جعل العمل نفسه أكثر رضا للنفس ، وأكثر ملاءمة للنزعة ، وثمرة أشهى للغريزة الخلاقة ورغبة المرء فى استعمـال طاقاته • ان العمل فى هذا العهد الحديث ، هـو عنـد معظم من يعتمدون فى معاشهم على ما يكسبون ، مجرد عمل ، وليس صورة للرغبة فى النشاط • والراجح أن هذا أمر لا معدى عنه الى حد بعيد • الا أننا الى الحد الذى يمكننا تلافيه ، يجب أن نصنع شيئا كى تثمر النزعات التى تؤدى الى الحرب ثمرة من ثمرات السلام •

وقد يكون من اليسير بطبيعة الحال أن يسود السلام فى العالم ان لم يكن فى الناس حيوية • فلقد كانت الامبراطورية الرومانية مسالمة وغير منتجة، ، بينما كانت أثينا فى عهد بيركلس أكثر البـلاد انتاجا ، كما كان أهلها أشد الشعوب نزوعا الى الحرب فى التاريخ تقريبا • والنـوع الوحيد من أنواع الانتاج التى يتفوق فيها عصرنا هو العلم ، وألمانيا ، أقـوى الدول الكبرى الحربية ، لا تدانيها دولة أخرى فى ميدان العلوم • ولا جـدوى فى الاكثار من ضرب الأمثال ، الا أنه واضح أن النشاط الحيوى نفسه الذى ينتج عنه كل ما هو خير ، تنتج عنه أيضا الحرب ، ومحبة الحرب ، وهذا هو أساس المقاومة لمذهب المسالمة ، هذا الأساس الذى يشعر به كثيرون ممن ليست أهدافهم ولا ألوان نشاطهم وحشية بحال من الأحوال • وفى كثير جدا من الأحيان لا تعنى المسالمة الا مجرد افتقار صاحبها الى القوة ، وليس أنه يرفض استعمال القوة فى قهر الآخرين • واذا أردنا لمذهب المسالمة أن ينتصر وأن يسلك سبيل الخير فى وقت معا ، فواجبنا أن نجـد متنفسا ،

تأتلف والشعور الانسانى ، للنشاط الذى يسوق الأمم فى الوقت الحاضر الى الحرب والدمار •

ولقد تناول وليم جيمس هذه المشكلة فى خطاب يدعو الى الاعجاب ، موضوعه : « المعادل الأدبى للحرب » ألقاه فى مؤتمر دعاة السلام فى أثناء الحرب الأسبانية الأمريكية التى نشبت سنة ١٨٩٨ ، ولم يكن فى وسع أحد أن يأتى بأحسن مما قرره عن هذه المشكلة ، وهو فيما أعلم الكاتب الوحيد الذى واجه المشكلة مواجهة سديدة ••• بيد أن الحل الذى قال به لم يكن حلا سديدا ، ولعل الحل السديد ليس شيئا ميسورا •• والمشكلة على كل حال من المشاكل التى تختلف باختلاف ظروفها ، وكل متنفس جديد سلمى للنشاط الانسانى يقلل من القوة التى تدفع الأمم فى طريق الحرب ، وتجعل الحرب أقل حدوثا ، وأقل ضراوة • ومن حيث اختلافها باختلاف الظروف ، ففى الامكان أن تتفاوت حلولها تبعا لظروفها •

ان كل انسان ذى همة يفتقر الى لون ما من ألوان التنافس ، الى شىء من المقاومة يستظهر به ، كلما يشعر أنه يمارس كفاياته ، ولقد نشأت فى ظل الشئون الاقتصادية نظرية مؤداها أن ما يرغب الناس فيه هو الغنى ، وقد كان من شأن هذه النظرية أن تبعث نفسها بنفسها ، لأن أعمال الناس تتحدد فى الغالب بما يظنون أنهم يرغبون فيه ، أكثر مما تتحدد بما يرغبونه فى الواقع • وأقل أفراد المجتمع نشاطا لا جرم يريدون الثروة فى أكثر الأحوال ، مذ كان ذلك يساعدهم على اشباع ميلهم الى الاستمتاع السلبى، كما يساعدهم على أن يضمنوا احترام الناس ، دون أن يبذلوا فى سبيله جهدا • الا أن ذوى النشاط الذين يكونون ثروات عظيمة نادرا ما يرغبون فى المال نفسه : انهم انما يرغبون فى معنى القوة عن طريق التنافس ، وما فى النشاط الناجح من متعة ، ولهذا السبب ، كان أكثر الناس الحاحا فى جمع المال أكثرهم ، فى الغالب ، استعدادا لانفاقه ، وثمة أمثلة على ذلك كثيرة مشهورة بين أصحاب الملايين الامريكيين • وعنصر الصدق الوحيد فى النظرية الاقتصادية التى تذهب الى أن هؤلاء الناس انما تحدوهم الرغبة فى المال هو هذا : لما كان الاعتقاد السائد من أن المال هو ما يرغب الناس فيه، فانهم يسلمون بأن جمع المال هو مقياس النجاح • والشىء المرغوب فيه هو

النجاح المرئى الذى لا ريب فيه ، ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق الا اذا كان الانسان واحدا من هؤلاء القليلين الذين يصلون الى غاية يتمنى كثيرون أن يصلوا اليها . ولهذا السبب ، كان للرأى العام أثره العظيم فى توجيه همم ذوى العزم . والناس فى أمريكا يحترمون صاحب الملايين أكثر مما يحترمون الفنان العظيم ، وهذا يدفع الناس الى أن يصيروا أصحاب ملايين بدل أن تكون لهم الخيرة فى أن يكونوا ما يشاؤون . أما فى ايطاليا فى عصر النهضة، فقد كان الفنانون أكثر احتراما من أصحاب الملايين ، وكانت نتيجة ذلك عكس ما هو موجود اليوم فى أمريكا .

وبعض أنصار السلام وجميع العسكريين ينقمون على المنازعات السياسية والاجتماعية . والعسكريون على حق فى هذا ، من وجهة نظرهم ، الا أن أنصار السلام غير مصيبين فيما يخيل لى . فالملاحم الناشئة عن الشئون السياسية بين الأحزاب ، والملاحم بين رأس المال والعمال ، وبالاجمال جميع تلك الملاحم الناجمة عن اختلاف المبادىء ، والتى لا تتضمن الحرب ، تخدم أغراضا كثيرة نافعة ،.ولا ينجم عنها الا قدر ضئيل من الضرر ، انها تزيد من اهتمام الناس بالشئون العامة ، وهى تهيىء متنفسا بريئا نسبيا لحب الناس للنضال ، وهى تساعد على تغيير القوانين والنظم ، حينما يعمل تبدل الظروف وزيادة العلم على خلق الرغبة فى التبديل . ان كل شىء يقوى من الحياة السياسية من شأنه أن يثمر اهتماما سليما من نوع الاهتمام نفسه الذى يؤدى الى الرغبة فى الحرب .

والمسائل السياسية تتيح لكل صاحب صوت فى مجتمع دمقراطى شعورا بالمبادأة والسلطان والمسئولية يفرج عن نفسه شيئا مما تحسه من الضيق الناشىء من عدم المغامرة . وينبغى أن يكون هدف رجل السلام أن يهيىء للناس قدرا يزداد حينا بعد حين من الرقابة السياسية على أنفسهم ، وينبغى أن يكون هدفه بخاصة ادخال الطرق الدمقراطية فى ادارة الصناعة ، كما الأكثر منهم جهلا !

والمشكلة التى تجابه رجل السلام المتأصل ذات شطرين ، أولهما : كيف يحافظ على السلام لبلاده ، وثانيهما كيف يحافظ على السلام فى العالم ، ومن المستحيل أن نحافظ على السلام فى العالم بينما الأمم عرضة لهذا

المزاج الذى دخلت به ألمانيا الحرب الا اذا كانت احدى الأمم أقوى ـ على التحقيق ـ من جميع الأمم مجتمعة ، حتى تكون الحرب لا ضرورة اليها لتلك الأمة ، وحربا لا أمل فيها لتلك الأمم مجتمعة ، حتى تكون الحرب لاضرورة اليها لتلك الأمم ،وقد راح الناس يتساءلون،عندما أخذت هذه الحرب(١) تضجرهم بطولها المضنى ، عما اذا كان الاستقلال القومى يستأهل هـــذا الثمن الذى ينبغى أن يدفعوه من أجله ؟ وهل لا يكون من الخير أن نكفـل السلام العالمى بتفوق دولة واحدة على العالم كله • ولعل رجل السلام الذى لا حيلة له راح يفكر فى خلال العامين الأولين من الحرب : « ان صون السلام عن طريق اتحاد عالمى قد يفتقر الى شىء من التعقل فى الحكام وفىالشعوب ، وهو لهذا السبب أمر ليس فى الامكان ، أما صونه بترك الحبل على الغارب لألمانيا ، تملى شروطها على أوربا ، فقد يكون أمرا ميسورا • وقد يسترسل هذا الداعى الى السلام بأيما ثمن ، فيزعم أنه طالما ليس ثمة وسيلة أخرى لوقف رحى الحرب ، فلنجرب تلك الوسيلة التى أتيحت لنا فى هذه الآونة على سبيل الصدفة • وهذا الرأى جدير بأن نبذل له من اهتمامنا قدرا أكثر مما تعودنا أن نبذل من قبل •

وثمة مثال تاريخى عظيم من أمثلة السلم الطويل الأجل الذى كفلهالعالم عن هذا الطريق ، وأعنى به الامبراطورية الرومانية • ونحن نفخـــر فى انجلترا بهذا ال (٢) Pax Britannica الذى فرضناه بهذه الطريقة على الشعوب وأهل الأديان الميالين الى الحرب فى الهند • فاذا كنا على حق فى فخرنا بهذا ، واذا كنا حقيقة قد أدينا للهند فائدة بهذا السلام المفروض ، فقد يكون الألمان على حق اذا استطاعوا أن يفرضوا Pax Germanica على أوروبا • وربما حق للناس أن يقولوا ، قبل هـــذه الحـــرب ، ان أوربا والهند ليستا سواء ، لأن الهند أقل مدنية منأوربا ، ولكنى آمل ألا يكونثمة أحد الآن من القحة بحيث يؤيد هراء مثل هذا الهراء • ولقد واتتنا الفرص

---

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى

(٢) منع الولايات التابعة لبريطانيا من الحرب ـ وكانت الدولة الرومانية تمنع مستعمراتهـا أيضا من الحرب وكان يطلق على هذا Pax Romana

مرارا فى تاريخنا الحديث لتحقيق الوحدة الأوربية بزعامة دولة واحدة ، ولكن انجلترا كانت تقف دائما حجر عثرة فى سبيل هذه الغاية ، أخذا بمبدأ توازن القوى ، وكانت تحافظ على هذا الذى كان ساستنا يسمونه « حريات أوربا » وهذا هو العمل الذى نحن معنيون به فى الوقت الحاضر ، بيد أننى لا أظن أن ساستنا ، ولا أحدا غيرهم من رجالنا ، قد بذلوا جهدا يؤبه له ، للتفكير فيما اذا كان هذا العمل يستأهل ما يجب أن ندفعه من ثمن فى سبيله .

لقد كنا مخطئين فى احدى الحالات خطأ واضحا : وذلك يوم قاومنا فرنسا الثائرة ، فلو أن فرنسا الثائرة استطاعت أن تفتح القارة الأوربية وبريطانيا العظمى ، لأمكن أن يكون العالم الآن أسعد حالا ، وأكثر حضارة ، وأشد حرية ، ولأمكن أن يكون أوفر سلاما فى الوقت نفسه . ولكن فرنسا الثائرة كانت مثالا لا نظير له على الاطلاق ، لأن فتوحها الأولى كانت تتم باسم الحرية ، أى ضد الطغاة ، وليس ضد الشعوب ، وكانت الجيوش الفرنسية تقابل بالترحاب فى كل مكان ومن الجميع ، الا من الحكام المتعصبين ، وذلك بوصفها محررة الناس من قيود الاستعباد . أما موقفنا من فيليب الثانى ، فقد كنا على حق مبين بقدر ما كنا مخطئين فى موقفنا من الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣ . ونحن لا يصح أن نعلل تصرفنا فى كلا الحالين بشىء من هذا الرأى الدبلوماسى المجرد الذى نسميه « حريات أوربا » ولكن علته هو ما كان لانجلترا من مثل القوة الطامحة الى السيادة ، ثم بما كانت ترجح أن يكون لها من الأثر فى سعادة الأفراد العاديين فى القارة الأوربية رجالا ونساء .

ان السيادة كلمة غامضة ، وكل شىء يتوقف على درجة التدخل الذى تتضمنه تلك الكلمة . وثمة درجة من التدخل فى الحرية ، قاتلة لكثير من ألوان الحياة القومية ، فايطاليا مثلا ، فى القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، كانت حطاما أمام التفوق الأسبانى والنمسوى ، ولو أن الألمان كانوا ينتوون حقا ضم أقاليم فرنسية الى بلادهم كما صنعوا سنة ١٨٧١ لكان الراجح أن يصيبوا تلك الاقاليم بضرر خطير ، ولجعلوها أقل نفعا للمدنية بوجه عام . فلمثل هذه الاسباب كانت الحرية القومية مسألة

لها أهميتها الحقيقية ، ولعل الراجح أن تكون أوربا ، اذا حكمتها ألمانيا بالفعل ، بلادا جد عقيم وجد ميتة • ولكن اذا كانت السيادة تعنى مجرد نفوذ متزايد فى المسائل الدبلوماسية ، وتوفير محطات أكثر لتزويد السفن بالفحم ، وممتلكات أكثر فى أفريقية ، وسلطانا أعلى لتأمين المعاهدات التجارية ذات المزايا •• اذا كانت السيادة تعنى مجرد هذا ، فقد لا يستطيع أحد حينئذ أن يقول انها قد تصيب الأمم الأخرى بضرر ذى بال ، وهى على التحقيق لا يمكن أن تنشر من الدمار ما تنشره الحرب الحالية بالفعل ، وأنا لا يمكن أن يساورنى الشك فى أن سيادة مثل هذه كانت حرية أن ترضى الألمان كل الرضا ، لو لم تقع هذه الحرب ، ولكن تأثير الحرب الى هذا المدى كان من شأنه أن يزيد بما لا يدخل فى حسبان أحد من الاخطار التى أردنا تفاديها بالحرب •• وليس لنا الآن الا أن نختار بين استنزاف قوى أوربا ـ الى حد ما ـ فى محاربة ألمانيا ، وبين ضرر محتمل يصيب الحياة القومية فى فرنسا من الطغيان الألمانى •• أما النتيجة التى انتهينا الآن اليها فلا تعدو تأويلنا هذه الحرب بداعى الحضارة وخير البشرية ، لا بداعى الكرامة القومية ••!

وبفرض أن الحرب لا ينهيها غلبة دولة على جميع الدول الأخرى ، فان الطريقة الوحيدة التى يمكن بها وقف شبوب الحرب على الدوام هى تكوين اتحاد عالمى ، اذ طالما أن هناك دولا كثيرة ذات سيادة ، لكل منها جيشها الخاص ، فلن يأمن العالم ألا تنشب فيه حرب ، ولابد من وجود جيش واحد وأسطول واحد فى العالم • قبل أن يحق لنا الظن بأن الحرب لن تقوم لها قائمة ، وهذا معناه أن الدولة مهما يكن اهتمامها وأعمالها العسكرية ، فالواجب ألا يكون فى العالم بأسره الا دولة واحدة يشمل سلطانها الدنيا بأسرها •

وليس للمهام المدنية للدولة ـ تشريعية أو ادارية أو قضائية ـ أية علاقة جوهرية ذات خطر بمهامها العسكرية ، وليس من سبب يمنع الدولة من أن تمارس هذه الوظائف بنوعيها بطريقة عادية ، على أن ثمة أسبابا لا حصر لها تجعل الدولة المدنية والدولة العسكرية شيئين جد مختلفين ، فالدول الحديثة الأعظم من غيرها هى بالفعل دول كبيرة الجرم جدا ، أصبحت أكبر

من أن تكتفى بالقيام بالأغراض المدنية ، ولكنها أضيق من أن تمتنع عن الا غراض العسكرية ، لكنها لا تتبسع الاتساع الكافى للاغراض العسكرية ، وذلك لأنها لاتسيطر على العالم كله ،وهذا الاختلاف بين الرقعتين المطلوبتين لنوعى الدولة يسبب ارتباكا وتذبذبا لا شـــك فيهما ، حينما لا يتجلى أن العملين لا تصلهما صلة ضرورية ذات بال : فهذه طائفة من الاعتبارات تومىء الى الدول الصغيرة،وتلك طائفة تومىء على الدوام الى الدول الأكبر منها • ولابد ، بطبيعة الحال ، من قيام هيئة دولية ما ، لاصدار الأوامر بالعمل الى الجيش والاسطول الدوليين ، اذا قسم لهذين أن يوجدا ، ولكن هذه الهيئة لن تحتاج قط الى أن تشغل نفسها بأى شأن من الشئون الداخلية للدول القومية ، والشيء الوحيد الذى لابد منه هو اعلان القواعـد التى يجب أن تنظم علاقاتهما ، والنص صراحة على حق المقاضاة حينما تنقض هذه القواعد نقضا يستدعى تدخل القوة الدولية • أما كيف يسهل تحديد سلطان هذه الهيئة الدولية ، فيمكن الوصول اليه على ضوء أمثلة واقعية كثيرة •

وفى أوقات كثيرة تختلف الدولة المدنية عن الدولة العسكرية لأسباب عـــدة ، فجمهوريات أمريكا الجنوبية جمهوريات ذات سيادة فى جميـــع تصرفاتها الا من حيث علاقاتها مع أوربا ، فهى تخضع بشأنها للـــولايات المتحدة ، وجيش الولايات المتحدة وأسطولها هما جيش هـــذه الجمهوريات وأسطولها فى معاملاتها مع أوربا • والممتلكات البريطانية المستقلة استقلالا ذاتيا لا تعتمد فى الدفاع عن نفسها على قواتها الخاصة ، ولكن على الأسطول البريطانى • ومعظم الحكومات فى الوقت الحاضر لا تهدف الى ضم احـــدى البلاد التى تود الاستيلاء عليها ضما رسميا ، ولكنها تهـدف الى اعـــلان حمايتها عليها ــ وبالأحرى جعلها بلدا مستقلا استقلالا ذاتيا خاضـــعا لهيمنتها العسكرية، ومثل هذا الاستقلال الذاتى هو بالطبع استقلال ناقص من الوجهة العملية ، لأنه لا يساعد البلد المحمى على الأخذ بالأساليب التى ترفضها الدولة الحامية بحق الفيتو بما لها من الهيمنة العسكرية ، الا أن هذا الاستقلال الذاتى قد يقرب من أن يكون استقلالا كاملا ، كما هى الحال فى الممتلكات البريطانية التى تحكم نفسها ، على أن هذا الاستقلال الذاتى قد يصبح مجرد مهزلة ، كما هى الحال فى مصر (١) • وفى حالة قيام حلف

(١) حفظ الله الثورة التى قضت على هذا العار

تتمتع البلاد المتحالفة ، كل منها على حدة ، باستقلال ذاتى كامل ، كما تتمتع بما هو من الوجهة العملية انضمام لقواتها العسكرية فى قوة موحدة ..

والمزية العظيمة لدولة عسكرية كبيرة هى أنها تزيد فى الرقعة التى لا يحتمل نشوب حرب داخلية فيها الا اذا نشبت ثورة. ومن الأمور الطبيعية أنه اذا نشأ خلاف بين انجلترا وكندا ، أن يصلا الى حسم هذا الخلاف بالمباحثات ، وليس بالقوة . وهذه هى الحال نفسها اذا نشب خلاف بين منشستر وليفربول ، بالرغم مما هو معروف من أن كلا من البلدين مستقل استقلالا ذاتيا فى كثير من شئونه المحلية . ولم يدر فى خلد أحد أن يكون ثمة سبب معقول لاعلان لفربول الحرب كى تمنع منشستر من أن تنشىء قناة السفن المسماة باسمها ، وان كان ذلك السبب الذى له مثل تلك الأهمية خليقا تقريبا أن تنشب من أجله الحرب بين دولتين كبيرتين ، ولعل الراجح أن الحرب كانت تنشب بين انجلترا وروسيا بسبب ايران ، لو لم يكونا حليفين ، ومع هذا فقد أوصلتهما الدبلوماسية الى نفس النتائج غير العادلة التى كانتا تصلان اليها لو حدث العكس ونشبت الحرب بينهما . ولعل الراجح أيضا أن كانت الحرب تنشب بين اليابان واستراليا لو أن كلتيهما كانتا مستقلتين استقلالا تاما ، ولكن لأن حرية كل منهما تتوقف على الأسطول البريطانى لم يكن لهما مندوحة من تسوية خلافاتهما بالطرق السلمية .

أما أكبر سوءات الدولة العسكرية الكبرى فهى اتساع الرقعة التى تتأثر بالحرب اذا نشبت الحرب الخارجية ، والاتفاقيات الرباعية القائمة الآن (١) هى من هذا النوع ، لأنها تجعل من الدول الضالعة فى الاتفاقية دولة عسكرية واحدة ، وعلى هذا فتكون النتيجة أنه بسبب نزاع بين النمسا وصربيا ، تجتاح بلجيكا ويقتل الاستراليون فى الدردنيل . ومن سوءاتها أيضا أنها تسهل الظلم ، فالدولة العسكرية الكبرى قوة لا تقهر ازاء دولة صغرى ، وفى استطاعتها أن تفرض عليها ما تريد ، كما حدث من انجلترا

(١) فى الحرب العالمية الاولى

وروسيا فى ايران ، وكما فعلت النمسا فى الصرب • ومحال أن نطمئن الى منع الظلم بأيما ضمانات آلية خالصة ، ولن تكون ثمة حماية حقيقية الااذا سادت روح انســانية ، لقد كانت انجلترا تستطيع تمام الاستطاعة أن تخمد أنفاس أيرلنده ، بالرغم من وجود نواب أيرلنديين فى وستمنستر ، بل لم يكن وجود نواب بولنديين فى الريخستاج ليمنع ألمانيا من اضطهاد بولندا البروسية • ولكن الديمقراطية والحكم النيابى لاجرم يجعلان الظلم أقل رجحانا ، وهما يتيحان لمن عسى أن يلحق به الظلم وسيلة يستطيع بها الاعلان عن رغائبه وبث ظلاماته ، ويجعلان من المحقق أن الاقلية وحدها هى التى يمكن أن يلحق بها الظلم ، وهذا لا يكون الا اذا كانت الاغلبية راغبة بالاجماع فى ظلم الأقلية • وممارسة الظلم تتيح قدرا من الغبطة للطبقات الحاكمة ، التى هى أداة تنفيذ هــذا الظلم ، أكثر بكثير مما تتيحــه لكتلة السكان ، ولهذا السبب ، فان كتلة السكان ، حيثما كان لها سلطان ، خليقة بأن تكون أقل طغيانا من حكومة الأقلية (الأوليجاركية) أو الحــكومة البيرقراطية •

فضرورى ، لكى نمنع الحرب ، ولنحافظ على حريتنا فى الوقت نفسه ، ألا تكون فى العالم الا دولة عسكرية واحدة ، وأنه حينما ينشب نزاع بين بلاد مختلفة ، فلابد أن تتصرف هــذه الدولة العسكرية الواحدة وفقا لقــرار تصدره هيئة مركزية ، وهذا هو ما يمكن بالطبيعة أن ينتج من اتحاد يجمع العالم كله ، اذا تحقق تكوين مثل هــذا الاتحاد يوما ما ••• ولكن المطمح بعيد الشقة ، ولن يضيع سدى ما ننفقة من تفكير فى بحث أسباب بعد تلك الشقة ••

ان وحدة الأمة ثمرة العادات المتشابهة ، والميول الغريزية ، والتــاريخ المشترك ، والعزة المشتركة • ان وحدة الأمة ترجع ، الى حد ما ، الى وشائج القربى الحقيقية بين مواطنيها ، الا أنها ترجع الى حدما كذلك الى ضــغط العالم الخارجى ومباينته لهذه الأمة •• فلو أن أمة من الامم كانت بمعــزل عن العالم لكانت قمينة بألا يكون لها التماسك نفسه ، أو الحماسة نفسها ، اللذان للوطنية • ونحن اذا أمعنا النظر فى الأحلاف لا نكاد نجد شــيئا يدفعها الى التماسك الا الضغط الخارجى • فانجلترا وأمريكا ، الى حد ما ،

تؤلف بينهما نفس الأسباب التى تقوم عليها الوحدة القومية : من لغة مشتركة (تتفاوت فى انجليزيتها) ، ونظم سياسية متشابهة ، وأهداف متشابهة فى محيط السياسة الدولية · أما انجلترا وفرنسا وروسيا ، فقد ألف بينها خوفها من ألمانيا ليس غير ؛ ولو أن ألمانيا قضت عليها جائحة طبيعية لبدأت هذه الدول يبغض بعضها بعضا فى الحال ، كما كان حالها قبل أن يشتد ساعد ألمانيا ، وعلى هذا فلا يصح أن يجعلنا التعاون بين دول الحلف الحالى ضد ألمانيا نأمل بأى حال فى أن ينشأ حلف سلام يشمل جميع الأمم وتتعاون على أساسه على الدوام · وقد ينتهى الباعث الحالى للتماسك ، وبالأحرى هذا الخوف المشترك ، ولا يمكن أن يحل محله أى باعث آخر ، اللهم الا حينما تصبح أفكار الناس ومطامحهم غير ما هى الآن·

ان الحقيقة الأساسية التى تتسبب عنها الحرب ليست علة اقتصادية أو سياسية ، وهى لا تستند الى أية صعوبة فى اختراع الوسائل لحسم المنازعات الدولية بطرق سلمية · أن الحقيقة الأساسية التى تتسبب عنها الحرب هى أن شطرا كبيرا من بنى البشر ينزعون الى الخصام أكثر مما ينزعون الى الألفة ، ولا يمكن جعل هؤلاء الناس يتعاونون مع بعضهم البعض الا حينما يقاومون عدوا مشتركا أو حينما يهاجمون هذا العدو المشترك · وهذه هى الحال فى حياة الأفراد كما هى فى علاقات الدول · فمعظم الناس ، حينما يشعرون بأنهم أقوياء القوة الكافية ، يشرعون فى العمل على جعل أنفسهم أكثر مخافة ، لا أكثر محبة ، والرغبة فى كسب الرأى الطيب مقصورة عادة على هؤلاء الذين لم يحصلوا على سلطان مضمون · أما النزعة الى الشجار والاعتداد بالذات ، والالتذاذ بتحقيق رغائب النفس فمن دأب معظم الناس · وهذه النزعة نفسها ، أكثر من أى حافز من حوافز المنفعة الذاتية الموهومة ، هى التى تؤدى الى الحرب ، وتسبب الصعوبة فى تحقيق الدولة العالمية ، ولا تقتصر هذه النزعة على أمة واحدة من الامم ، بل هى كائنة ، بدرجات متفاوتة ، فى جميع أمم العالم القوية ·

بيد أنه ليس ثمة ما يدعو لأن تؤدى هذه النزعة الى الحرب ، بالرغم من قوتها ، انها ، على التحقيق ، هى نفس النزعة التى كانت تؤدى الى المبارزة، الا أن المتمدينين اليوم يدبرون مشاجراتهم الخاصة دون أن يلجأوا الى اراقة

الدماء ، فلو أننا استعضنا عن الحرب بالنضال السياسى فى دائرة الدولة العالمية ، لأمكن لتفكيرنا فى وقت قصير أن يعود نفسه على الوضع الجديد ، كما عود نفسه من قبل على اغفال المبارزة ، والناس مستطيعون ، بفعل النظم والعادات ، ودون تبديل ذى بال للطبيعة البشرية ، أن يتعلموا النظر الى الحرب كما ننظر نحن الى تحريق الكفرة ، أو تقديم القرابين البشرية الى آلهة الوثنيين ، وأنا اذا ذهبت لأشترى غدارة تسوى جنيهات عدة لكى أقتل بها صديقى ، بفكرة أن أسرق من جيبه ستة بنسات ، فلن أكون فى أعين الناس لا عاقلا راجح العقل ، ولا فاضلا كبير الفضل ، أما اذا استطعت أن آتى بخمسة وستين مليونا من الشركاء ليصحبونى فى هذه السخافة الاجرامية فانى أصبح مواطنا من مواطنى أمة عظيمة مجيدة ، مضحياً فى شهامة بثمن غدارتى ، وربما ضحيت بحياتى ، فى سبيل الاحتفاظ بالبنسات الستة من أجل كرامة بلادى ، ولسوف يمتدحنى المؤرخون ، الذين هم أهل زلفى فى الغالب ، ويمتدحون شركائى اذا نجحنا فى مهمتنا، وسيقولون عنا أننا جديرون بأن نكون خلفاء لهؤلاء الابطال الذين خضدوا شوكة رومة الاستعمارية ٠ أما اذا انتصر علينا مقاومونا ٠٠ اذا دافعوا بالكثير من الجنيهات عن كل من بنساتهم الستة ، واذا ضحوا بأرواح عدد كبير من بنى جلدتهم فى سبيل ذلك ، فلسوف يدعونى المؤرخون عندئذ لصا قاطع طريق (كما أنا !) وسيمدحون فى الذين قاومونى نخوتهم وروح تضحيتهم ٠

لقد جرت التقاليد على أن تجلل الحرب بهالة من البهاء ٠٠ ونحن نجد ذلك فى هومر ، وفى أسفار العهد القديم ، وفى أساليب التعليم الأولى ، وفى الأساطير التى أحكمها منشئوها لأهمية الأغراض التى أنشأوها من أجلها ، وفى أنباء البطولة والتضحية بالنفس التى تشيد بهما هذه الأساطير٠ فهذا يفتاح (١) الذى يعدونه رمزا للبطولة لأنه ضحى بابنته ، لو لم تخدعه أسطورة من الأساطير لأمكن أن يبقى على حياتها ٠والأمهات يتسمن بالبطولة لأنهن يرسلن بأبنائهن الى حومة الوغى ، الا أنهن جد مخدوعات

(١) يفتاح الجلعادى ـ قضاة ١١ ـ العهد القديم (المترجم)

كما خدع يفتاح ، وفى كلتا الحالتين على السواء نجد أن هذه البطولة التى مصدرها القسوة ، كان يمكن أن يبطل سحرها لو لم يكن ثمة هذا الأثر من البربرية فى تلك النظرة الخيالية التى تنبع الاساطير من معينها ٠ ان الاله الذى يمكن أن تسره تضحية فتاة بريئة لا يمكن أن يعبده الا أناس لا ينظرون الى فكرة هذه التضحية على أنها فكرة غير بغيضة كل البغض ٠ والأمة التى تؤمن بأن صالحها لا يمكن أن يصان الا بالتضحية بمئات الآلاف من أمثال هذه القربات المفظعة ، وتعريضها للأذى ، هى أمة لا ادراك عندها للمثل الروحى الحق لما يتألف منه صالحها القومى ٠ انه لأفضل مائة مرة أن نتخلى عن لذائذنا المادية ، وعن سلطاننا ، وأبهتنا ، ومجدنا الظاهرى ، من أن نقتل غيرنا ويقتلنا غيرنا ، ونكرههم ويكرهونا ، وأن نقضى فى لحظة مجنونة من لحظات الغضب على تراث أسلافنا المجيد ٠٠ لقد تعلمنا بالتدريج كيف نبرىء ربنا مما نسبه اليه الاسرائيليون والقساوسة البدائيون ٠ والقليلون منا من يؤمنون اليوم أن الله يسره أن يعذب معظم البشر فى نار جهنم خالدين فيها ٠٠ الا أننا لم نتعلم بعد كيف نحرر مثلنا القومية من شوائبها القديمة ٠ فالولاء للأمة ربما كان أعمق ديانات العصر الحاضر وأعظمها انتشارا ، وهو يتطلب منها ما كانت تتطلبه الديانات القديمة من ألوان الاضطهاد والمحرقات (١) وقساوات البطولة المفظعة ، وهو مثلها فى وبدائيته ، ووحشيته وسعاره ، والدين الذى يتسكع خلف بعض الضمائر بفعل ثقل التقاليد ، يصنع الآن ــ ما كان يصنعه فى الماضى ــ انه يقسى قلوب الناس فلا تعرف الرحمة ، ويحجر عقولهم فلا تعرف الحق ٠ واذا أردنا النجاة لهذا العالم ، فلابد أن يتعلم الناس النبل فى غير قسوة ، وأن تمتلىء قلوبهم بالايمان دون أن تستغلق على الحق ، وأن تعمرها الاغراض العظيمة دون أن تكره أولئك الذين يحاولون احباط هذه الأغراض ٠٠ **ولكن ٠٠ قبل أن يمكن أن يحدث هذا ، يجب أن يواجه الناس أولا هذه الحقيقة المفزعة ٠٠٠ يجب أن يعلموا أن الآلهة التى سجدوا لها ، كانت آلهة زائفة ٠٠ وأن القرابين التى قدموها كانت باطلة ٠٠ وقبض الريح !**

---

(١) المحرقات فى أسفار العهد القديم القرابين الذى تحرق بعد ذبحها (المترجم)

٤

الملكيــــة

من أشد كتاب القصص الواقعى كآبة ، بل لعله أكأبهم جميعا الكاتب جسنج الذى يعيش هو وأبطال قصصه تحت وطأة كابوس ثقيل ، كابوس المال الذى يتجسم فيكون صنما مخوفا يخر له الناس مع ذلك عابدين . ومن قصصه التى تعد نموذجا لذلك قصة « فداء حواء » التى نرى بطلتها تتذرع بشتى الحجج ، كلها شائن وكلها معيب ، لكى تتخلى عن الرجل الفقير الذى تهواه ، حتى تتزوج من الرجل الثرى الذى تهوى ماله أكثر مما تهوى حبيبها الفقير . واذ يجد الفقير أن ثراء غريمه قد هيأ لها حياة أفضل وجاها أوفر مما استطاع حبه أن يهيىء لها ، يقتنع بأن ما فعلته حبيبته هو الصواب ، وأن حبه قمين بهذا المصير لأنه خالى الوفاض من المال ، وقد صور لنا جسنج فى هذه القصة ، وفى قصصه الأخرى ، تصويرا دقيقا مدى سلطان المال على النفوس ، وما يفرضه على الغالبية العظمى من أهل العالم المتمدين من خشوع له .

ان الحقائق التى يسردها « جنسنج » لا سبيل الى انكارها ، ومع ذلك فان هذا النحو الذى ينحوه فى قصصه يحدث ثورة فى نفس أى قارىء حى العاطفة جياش الرغبات . ان عبادة المال ليست الا صدى للشعور بخيبة نفسية . والانحلال الذى يسرى فى العالم الحديث بوجه عام هو الذى شجع الناس على عبادة الأعراض المادية ، وقد عملت هذه العبادة بدورها على سرعة الانحلال الذى يشتد بين الناس حينما يخضعون لهذه العبادة . ان الرجل الذى يؤله المال يكون قد فقد الأمل فى سعادة يحققها بما يبذله هو نفسه من مجهود وما يمارسه من أعمال ، فهو ينظر الى السعادة نظرته الى تلذذ سلبى بمتع يحصل عليها من العالم المحيط به . والفنان أو العاشق لا يعبد المال فى لحظات توقده . لأن رغباته محددة ، وهى موجهة نحو أهداف لا يستطيع غيره تحقيقها . وعلى العكس من ذلك عابد المال الذى لا يمكن أن يكون شيئا فى دنيا الفن أو عالم الحب .

وقد ندد الأخلاقيون منذ القدم بحب المال . وأنا لا أريد أن أضيف جديدا الى ما بذلوه فى ذلك ، اذ أن مجهوداتهم لم تأت بنتائج مشجعة . والذى أريد أن أوضحه هو كيف أن عبادة المال هى سبب ونتيجة فى نفس الوقت لنقص الحيوية ، وكيف يمكن تغيير نظمنا الحالية بحيث تتضاءل عبادة المال

بيننا وتزداد الحيوية فينا • ولست هنا بصـدد الحديث عن الرغبة فى المال بوصفها وسيلة لغايات معينة • فقد يحتاج فنان مكافح الى المال حتى يوفر لنفسه الوقت الكافى للفن ، ولكن هذه الرغبة محدودة ، ويمكن اشـباعها اشباعا تاما بمبلغ معقول • ان « عبادة » المال هى ما أريد التحدث عنه : أريد التحدث عما يعتقده الناس من أن جميع القيم يمكن أن تقاس بمعايير مادية، وأن المال هو المقياس النهائى الذى يقاس به النجاح فى هذه الحياة ، ان هذا معتقد تدين به جماهير كبيرة من الناس ، وان كانوا لا يصرحون به • وهو معتقد لا يلائم الطبيعة البشرية ، اذ أنه يتجاهل كثـيرا من حاجات الناس الحيوية ، وميلهم الغريزى لنوع خاص من أنواع النمـو • ثم هو يجعلهم يهونون من شأن رغباتهم التى تتعارض واقتناء المال ، مع أن هذه الرغبات تكون عادة أهم لخير الانسان من أى زيادة فى دخله • ان هذا الاعتقاد يدفـع الناس الى تشويه طبائعهم بسبب نظرية خاطئة عن مقومات النجاح ، كمـا يدفعهم الى الاعجاب بأعمال لا تضيف شيئا لخير البشرية • انه يزيد فى هذه الرتابة الميتة التى تتسم بها طبائع الناس وأهدافهم ، كما يؤدى الى نقصان فى بهجة الحياة ، والى خلق حالة من الضيق والاعياء تصيب مجتمعات بأسرها بالضنى ووهن العزيمة وخيبة الأمل •

ويعتقد الكثيرون أن أمريكا ، رائدة التقدم الغربى، هى المثل المجسم لعبادة المال فى أكمل صورها • فان الغنى الأمريكى ، الذى لديه بالفعل ما يكفيه لاشباع جميع مطالبه المعقولة ، كثيرا ما يستمر مكبا على عمـله كمن يعمل ليكسب ما يقيه شر الموت جوعا •

والناس فى انجلترا ، باستثناء أقلية ضئيلة ، يكادون يشبهون الأمريكيين فى عبادتهم للمال • والمشاهد أن حب المال فى انجلترا يأخذ سمة الرغبـة الصادرة عن روح التعاظم فى المحافظة على مستوى اجتماعى معين ، أكثر مما يأخذ صورة المحـاولة لزيادة الدخل الى ما لا نهـاية • فالرجال يؤخرون زواجهم حتى يتهيأ لهم دخل يمكنهم من المعيشة فى منازل بها عدد من الغرف وعدد من الخدم يتفق ومكانتهم • وهذا يقتضيهم أن يضبطوا عواطفهم طوال شبابهم ، حتى لا ينساقوا الى ارتكاب حماقة : وبهذا يتكون لديهم نوع من عادة الحذر العقلى ، والخوف من الوقوع فى المحظور ، وهما أمران تستحيل

معهما الحياة الطليقة المليئة بالحيوية • وهم بتصرفهم على هـذا النحو يخيل اليهم أنهم يأخذون بأهداب الفضيلة ، اذ يشعرون أنه مما يصعب على المرأة أن يطلبوا اليها أن تنحط عن منزلة أبويها الاجتماعية ، كما أنه مما يشينهم أن يتزوجوا امرأة فى منزلة اجتماعية دون منزلتهم• ان أمور الطبيعة لا تقدر بطريق مقارنتها بالمال •

ولكن الناس مع ذلك يعتبرون أن الأمر عادى وليس فيه عنت على المرأة أن تضطر لقبـول زواج ـ هو تجربتها الوحيدة فى دنيا الحب ، من رجل يحاذر أن يمنحها من عاطفته الا بقدر ، رجل فقد قدرته العاطفية خلال سنين من الكبت الذى يوجبه التعقل ، أو بعد سنين من العلاقات الحقيرة مع نساء لا يكن لهن أى احترام فى نفسه • ان المرأة نفسها لا تجد فى كل ذلك شيئا من العنت ، لأنها هى أيضا تعلمت هذا الحذر مخافة الهبوط عن منزلتهـا الاجتماعية ، ولقنت منذ فجر صباها أن العواطف الفائرة مما لا يليق بها • وهكذا يتزوج الاثنان ويقضيان حياتهما جاهلين بكل ما له قيمة فى الحياة • ان الخـوف من نار جهنم ما كان ليحـول بين أجدادهما وبين الاستمتاع بعواطفهم ، أما هما فقد استولى عليهما خوف أكبر ، هو الخوف من اتضاع منزلتهما الاجتماعية ، فحرمهما من الاستمتاع بعواطفهما أشد الحرمان ••

والدوافع التى حدت بالناس الى الزواج المتأخر ، هى نفسها التى دفعتهم الى تحديد النسل • فأصـحاب المهن الفنية المحترمة يرغبـون فى ارسال أبنائهم الى المدارس الخاصة ، على الرغم من أن نوع التعليم الذى يحصـلون عليه فيها ليس خيرا مما هو فى المدارس العامة • وعلى الرغم من أن زملاءهم فى الدراسة ليسوا أفضل ، ولكن روح التعاظم هى التى قضت بأفضـلية المدارس الخاصـة ، ولا راد لما قضت به • أما السبب الذى يجعل هـذه المدارس أفضل فى نظرهم ، فهو أنها أكثر كلفة • ويجرى مثل هذا النضال الاجتماعى نفسه ، فى صور مختلفة ، بين جميـع الطبقات ، باسـتثناء الطبقات الرفيعة الشأن جدا أو الوضيعة جدا ،ومن أجل هذا يتجشم الناس عناء أدبيا كبيرا ، ويبدون من ضبط النفس بسببه قدرا مدهشا ، على أنه ليس لما يتحملون من عناء وما يبدون من ضبط النفس ، من نتيجـة الا أن ينضب فيهم معين الحياة ، فيصبحوا ضـعفاء فاترى الهمة ، تافهين ، لأن

مجهوداتهم لم توجه نحو أهداف انشائية • ان تربة مثل هذه لا تصلح لأن تزدهر فيها الملكات التى تخلق العبقرية • لقد استبدل الناس بحياة الغابة الطليقة ، قيود الصالونات : لقد أصبحوا مقيدين متأنقين ، مشوهين مثل أقدام الصينيات • وأهوال الحرب نفسها لم تستطع أن تشفيهم من أوهام الوقار والغرور • ان عبادة المال هى السبب الأساسى فى هذه الاغفاءة التى تشبه الموت ، التي أصابت كل ما لدى الناس من صفات تقود نحو المجد •

وقد أخذت عبادة المال فى فرنسا صورة الحرص الشديد • وليس من الميسور أن يجمع المرء لنفسه ثروة فى فرنسا ، ولكن من المألوف كثيرا أن يرث الانسان مالا يضمن له عيشا ناعما ، فاذا حدث هذا أصبح هدفه الأول فى الحياة أن يحتفظ بالميراث كاملا لأبنائه ، وزيادته ان أمكن •

وذوو الدخول الثابتة من الفرنسيين هم احدى القوى الكبيرة التى تؤثر فى السياسة الدولية ، وهم السبب الذى زاد من مكانة فرنسا فى الشئون الدبلوماسية وأضعف من قدرتها على الحرب ، وذلك بما تسببوا فيه من زيادة رصيد فرنسا من رأس المال وقلة رصيدها من الرجال • ان ضرورة اعداد بائنة للابنة عند زواجها ، وتقسيم الممتلكات الذى ينشأ عن قانون المواريث جعل الأسرة ، بوصفها مؤسسة ، أقوى فى فرنسا منها فى أى بلد متمدين آخر • ويعمل الفرنسيون على أن تظل الأسرة قليلة العدد ، كى يرتفع مستواها ، وكثيرا ما يضحون بأفراد منها للمحافظة على كيانها • ورغبتهم فى المحافظة على بقاء الأسرة تجعل رجالها هيابين ، وتفقدهم روح المثابرة ، ان الطبقة الكادحة المنظمة وحدها هى التى لا تزال تحتفظ بتلك الروح المغامرة التى أشعلت الثورة وقادت العالم فى السياسة فكرا وعملا • ولقد أصبحت قوة الأسرة سببا فى ضعف الأمة الفرنسية بفعل سلطان المال ، اذ أوقفت هذه القوة تقدم الشعب ، بل جعلته أميل الى الانحلال وحب السلامة • هذا وقد بدأ يترك آثارا مماثلةفى كل بلد آخر، الأن فرنسا كانت من أسبق الأمم الى هذا ، كما سبقتها الى أمور أخرى أفضل •

وعبادة المال فى ألمانيا أحدث عهدا منها فى فرنسا وانجلترا وأمريكا ، بل الواقع أنها لم يكن لها أثر محسوس قبل الحرب بين بروسيا وفرنسا ، ولكن الألمان اعتنقوها الآن بالشدة والاخلاص اللذين طالما تميزت بهما

المعتقدات عندهم • ومما يلفت النظر أن عبادة المال قد اقترنت فى ألمانيا بالدولة ، كما اقترنت بالأسرة فى فرنسا • وقد علم ليست ، الذى كان ينفر من رجال الاقتصاد فى انجلترا ، مواطنيه أن يفكروا فى المسائل الاقتصادية على أسس قومية ، والألماني الذى ينشىء مؤسسة اقتصادية هو فى نظر الناس وفى نظر نفسه رجل يؤدى خدمة للدولة • والالمان يعتقدون ان سر عظمة انجلترا هو التصنيع والامبراطورية ، وأن نجاحنا فى هذين المضمارين هو نتيجة لقوميتنا العميقة• أما ما يبدو من عنصر الدولية الظاهر فى سياستنا الخاصة بحرية التجارة ، فهم يعتبرونه رياء خالصا ، وقد أخذوا يحاكوننا على حقيقتنا كما يتصورونها الا فى الرياء • ويجب أن نعترف بأنهم أصابوا نجاحا مدهشا • الا أنهم دمروا أثناء ذلك كل ما جعل ألمانيا ذات قيمة بالنسبة للعالم ، ثم هم لم يقلدوا ما قد يكون فينا من خير ، اذ أنهم لفظوه بعد أن حكموا عليه بأنه رياء ، الا أنهم باقتباسهم أقبح خطايانا ، جعلوها أكثر قبحا ، فبدلا من أن تكون خطايا خبط عشواء ، وقليلة بحيث لا يرتكبها الجميع كما هى الحال عندنا ، نظموها هم وأقبلوا عليها مجمعين بصورة نعجز عنها نحن الانجليز لحسن حظنا •

ان للعقائد التى تعتنقها ألمانيا أهمية كبرى فى العالم ، لأن الألمان لديهم قوة الايمان الحقيقى ، والقدرة على تحصيل ما تتطلبه عقيدتهم من فضائل ورذائل • فمن أجل خير العالم ، وخير الألمان أنفسهم يجب أن نأمل أن يهجروا قريبا عبادة المال التى تعلموها منا •

ان عبادة المال ليست شيئا جديدا ، ولكنها أصبحت أكثر ضررا مما كانت ، لأسباب عدة • فالتصنيع قد جعل العمل أكثر ارهاقا وشدة ، وأقل بعثا للسرور واثارة للاهتمام بالنسبة للرجل الذى يعمل من أجل الأجر • كما أن القدرة على تحديد النسل أوجدت مجالا جديدا للقصد فى انفاق المال • كما أصبح الناس بسبب انتشار التعليم وزيادة القدرة على ضبط النفس أكثر قدرة على متابعة أغراضهم فى اصرار ، على الرغم من المغريات ، وعندما تكون هذه الأغراض ضد الحياة فانها تصبح أكثر خطرا كلما زاد تصميم أولئك الذين يهدفون اليها • وقد جعلتنا زيادة الانتاج التى نشأت عن التصنيع قادرين على أن نكرس قدرا أكبر من العمل ورأس المال

للجيوش والأساطيل لحماية ثروتنا من جيراننا الذين يحسدوننا،ولاستغلال الشعوب الضعيفة التى جردتها الدول الرأسمالية من كل خيراتها • والجزع وانشغال البال خوفا من ضياع المال ، ينقصان من قدرة الناس على السعادة ، ويجعلان الخوف من وقوع الكارثة أكثر ضررا من وقوع الكارثة نفسها • **اننا نستطيع أن نرى من تجاربنا ، أن أسعد الناس هم أولئك الذين لا يهمهم المال ، لأن لهم أهدافا محددة تقف حاجزا بينهم وبينه • ومع ذلك فان آراءنا السياسية ، سواء كنا من أنصار سياسة التوسع الاستعمارى ، « الامبريالزم » أو كنا تقدميين أو اشتراكيين ، تكاد تنحصر فى معالجة رغبات الناس الاقتصادية ، كأنما هى وحدها الأمر الذى له أهمية حقيقية •**

وللحكم على نظام صناعى ، سواء كان ذلك الذى نعيش فى ظله أو كان نظاما آخر يقترحه المصلحون ، فلابد أن نأخذ بعين الاعتبار مقاييس أربعة أساسية يمكن تطبيقها :

فيجب أن ننظر اذا كان هذا النظام يكفل ١ **ـ الحد الأقصى للانتاج • ٢ ـ عدالة التوزيع • ٣ ـ حياة مريحة للمنتجين • ٤ ـ أكبر قدر ممكن من الحرية الحافزة الى الحيوية والتقدم** • ونستطيع أن نقول بصفة عامة ان **النظام الحالى يهدف الى تحقيق الغرض الأول فحسب ، ويهدف النظام** الاشتراكى الى تحقيق الغرضين الثانى والثالث • ويقول بعض أنصار النظام الحالى ، ان المؤسسات الخاصة تعمل على تشجيع التقدم الفنى أكثر مما لو كانت الصناعة فى يد الدولة ، وهم بذلك يعترفون الى حد ما بالهدف الرابع من الأهداف التى ذكرناها • الا أنهم ينظرون الى هذا الهدف من ناحية الفائدة التى تعود على السلعة وصاحب رأس المال ، وليس من ناحية العامل • وعندى أن الهدف الرابع هو أهم الأهداف جميعا ، وأن النظام الحاضر يقف فى سبيل تحقيقه ، وأن الاشتراكية بوضعها الحالى تقف فى سبيله أيضا •

ان أحد الفروض التى لا تقبل المناقشة فى النظام الرأسمالى هو وجوب العمل على زيادة الانتاج بكل وسيلة ممكنة • باستعمال أنواع جديدة من الآلات ، وباستخدام النساء والأطفال ، وباطالة **ساعات العمل بالقدر**

الذى لا يؤدى الى نقص كفاية العامل ٠٠٠ الخ ، ان أهالى أواسط افريقيا ، الذين تعودوا أن يعيشوا على ما تنتجه لهم الأرض من ثمار ، والذين هزموا منشستر باستغنائهم عن الملابس ، وقد فرضت عليهم ضرائب لا يستطيعون دفعها الا اذا عملوا عند الرأسماليين الأوربيين ٠ ومن المعترف به أنهم أسعد حالا طالما تركوا أحرارا بعيدين عن النفوذ الأوروبى ، وأن التصنيع يجلب عليهم مرارة الحبس داخل المصانع ، وهو أمر لا رغبة لهم فيه ، ويعرضهم للموت من الأمراض التى اكتسب البعض مناعة جزئية ضدها ٠ ومن المعترف به أن أفضل العمال السود هم « العنصر الخام » الذين جىء بهم لتوهم من الأحراش مباشرة ، فلم يسبق لهم أن مروا بالتجربة التى يمر بها كل ذوى الأجور من العمال ٠ ومع ذلك فان أحدا لم يجاهد ـ وكان لجهاده أى نتيجة ـ فى سبيل تجنيبهم المصير السىء الذى نسوقهم اليه ، لأن أحدا لم يساوره الشك فى أنه من الخير زيادة الانتاج العالمى مهما كان الثمن ٠

ان الايمان بأهمية الانتاج يتسم بالقسوة والتعصب الأعمى ٠ فطالما كان هناك انتاج ، فان ما ينتج لا أهمية له ٠ ونظامنا الاقتصادى كله يشجع هذا الاتجاه ، ما دام الخوف من البطالة يجعل أى نوع من العمل نعمة بالنسبة لذى الأجر ٠ وقد صرف جنون « زيادة الانتاج » الناس عن التفكير فيما هو أهم ، وحرم العالم من الفوائد التى تتيحها زيادة قدرة العامل الانتاجية ٠

وعندما نجد كفايتنا من غذاء وكساء ومأوى ، فان ما يزيد على ذلك لا داعى له الا للفخفخة أو لاشباع شهوة الاقتناء ، تلك الشهوة التى لا يمكن أن يستطيبها أحد بالرغم من أنها شهوة غريزية ٠ ويستطيع جزء من الشعب أن ينتج كل ما تدعو اليه الحاجة الحقيقية من سلع ، اذا استعمل الوسائل الحديثة ، دون حاجة الى اطالة ساعات العمل٠والوقت الذى يضيع الآن فى انتاج الكماليات ، يمكن استغلال بعضه فى الترويح عن النفس وقضاء الاجازات الحلاوية وفى الحصول على تعليم أفضل ، وفى أعمال غير يدوية ولا آلية ٠

فنحن نستطيع ، اذا أردنا ، أن نحصل على قدر أكبر من العلم والفن ، وأن نتوسع فى نشر الثقافة والتحصيل الذهنى ، وأن نوفر فراغا أكثر لذوى الأجور ، وقدر أعظم للاستمتاع بالمتع العقلية ٠ فالعامل فى الوقت

الحاضر ، لا يستطيع الحصول على أجر الا بالعمل ساعات أطول بكثير مما ينبغي له أن يعمل ، وهذا ينطبق أيضا على جميع الدخول الناشئة عن العمل تقريبا • ان الرجل الذي يكسب بالعمل المرهق ثمنمائة من الجنيهات فى العام لا يستطيع أن يكسب أربعمائة بنصف هذا العمل • وكثيرا ما لا يستطيع أن يكسب أى شىء مطلقا اذا لم يكن مستعدا للعمل طول اليوم وكل يوم •

وبسبب المغالاة فى الايمان بفائدة الانتاج يعتقد النـاس أن من الحق والصواب أن يعمل الرجل ساعات طويلة ، وينسون الخير الذى قد ينشأ عن العمل ساعات أقل • ولا تثير أنواع القسوة الناجمة عن النظام الصناعى ـ لا فى أوروبا وحدها ، بل فى المناطق الاستوائية بخاصة ـ الا أبسط الاحتجاجات التى يقوم بها بعض ذوى القلوب الخيرة من وقت الى آخر • والسبب فى ذلك أن الفساد الناشىء عن نظمنا الاقتصادية الحالية جعل رغباتنا الواعية المتعلقة بمثل هذه المسائل قاصرة عن الاحاطة بغير جزءمنها، وهذا الجزء ليس مع ذاك الجزء المهم من حاجاتنا الحقيقية التى كانت نتيجة للعمل الصناعى • وليس ثمة علاج لهذه الحالة الا بنظام اقتصادى مختلف تبرز فيه أهمية العلاقة بين نشاط الانسـان وحاجاته ، وتصبح علاقة مباشرة •

اننا ـ مهما تقادم الزمن ـ لن نبلغ هدفنا من زيادة الانتاج الى غايته القصوى اذا استمر نظامنا الصناعى الحاضر على ما هو عليه ، اذ أن فيه مضيعة للقوى الانسانية ، بسبب الضرر الصحى والنقص فى كفاية العمال الصناعيين وبخاصة فى حالة استخدام النساء والأطفال ، هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى لما يميل اليه أمهر العمال من تحديد النسل ، ولأن أكثر الشعوب مدنية معرضة للانقراض تدريجيا • ان كل مدينة كبيرة هى بؤرة من بؤر الفساد للجنس البشرى • وقد كتب سير هـ • لبولين سميث عن حالة مدينة لندن من هذه الناحية مدعما ما كتبه باحصائيات مستفيضة (١) ولا شك فى أن ما ذكره يصدق على حالات أخرى • وهو يصدق أيضا عن مصادر المادة : فالعالم يستهلك المعادن ، والغابات البكر ، وحقول الغلال

(١) الجزء الثالث من كتاب « حياة الناس وأعمالهم » تاليف بوث

أستهلاكا مسرفا ستكون نتيجته التي لا شك فيها التسبب للأجيال المقبلة فى عنت شديد •

ويعتقد الاشتراكيون أن علاج ذلك يكون بنقل ملكية الأرض ورأس المال الى الدولة ، مع تطبيق نظام أكثر عدالة فى التوزيع • ولا سبيل الى انكار أن نظامنا الذى نتبعه الآن فى التوزيع هو نظام لا يمكن الدفاع عنه من أية ناحية من نواحيه بما فى ذلك ناحية العدالة • ان نظامنا الحالى للتوزيع ينظمه القانون ، ويمكن تعديله من نواح كثيرة مألوفة لدينا الآن ، بحيث أصبحنا ننظر اليها على أنها أمور طبيعية ولا محيص عنها • ويمكننا أن نتبين أربعة مصادر رئيسية معترف بها ترتب حقوق ملكية قانونية : ١ ـ حق الانسان فيما حصل عليه بكده هو ، ٢ ـ حق الحصول على فائدة لرأس المال ٣ ـ ملكية الارض ، ٤ ـ الميراث • وهذه المصادر مرتبة على أساس ما تبعثه فى النفس من احترام • **فرأس المال أدعى الى الاحترام من العمل ، والأرض أدعى الى الاحترام من رأس المال ، والمال الموروث أيا كان نوعه أدعى الى الاحترام من المال الذى نحصل عليه بمجهودنا الشخصى •**

ان حق الرجل فى ثمرة عمله لم يحظ فى الواقع الا بقدر ضئيل من اعتراف القانون• وقد أصر الاشتراكيون الأوائل ، ولا سيما الاشتراكيون الانجليز الذين مهدوا الطريق لماركس ، على أن هذا الحق هو أساس لكل نظام عادل فى التوزيع ، ولكن كيف يتيسر لنا تحديد ما أنتج كل عامل على حدة فى العمليات الصناعية الحديثة المعقدة ؟ ما هو الجزء الذى يستحقه الشيال من بضاعة تنقل بواسطة السكة الحديدية ؟ وعندما ينقذ جراح حياة رجل ، فما مقدار ما يستطيع الجراح المطالبة به ، مطالبة عادلة ، مما ينتجه هذا الرجل بعد ذلك ؟ ان مثل هذه المشاكل غير قابلة للحل • وحتى اذا أمكن حلها ، فان اعطاء كل رجل ثمرة ما ينتجه بنفسه ليس أقصى أنواع العدالة • ان بعض الرجال أقوى من غيرهم ، أو أحسن صحة ، أو أمهر ، وليس ثمة سبب فى أن نعمل على زيادة ظلم الطبيعة بظلم مصطنع يفرضه القانون • ان هذا المبدأ يدعمه من ناحية أنه يقضى على الغنى الفاحش ، ومن ناحية أخرى أنه يحث الناس على العمل • الا أننا نستطيع تحقيق الفائدة

الأولى بطريق أخرى على وجه أكمل ، أما الفائدة الثانية فتصبح أمرا غير مرغوب فيه اذا نحن كففنا عن عبادة المال ٠

ان الفائدة على رأس المال أمر طبيعى فى المجتمعات التى لا تحدد الملكية الفردية والتى تعاقب على السرقة ، لأن بعض عمليات الانتاج الاقتصادية تتم ببطء ، وقد يفتقر أولئك الذين تتوفر فيهم المهارة لانجازها الى ما يقوم بأودهم حتى تتم ٠ ولكن القدرة على اقراض المال تعطى أصحاب رأس المال من الأفراد ، اذا لم تفرض عليهم رقابة شديدة ، ثروة واسعة ونفوذا كبيرا لا يتفقان وما ينبغى من الحرية الحقيقية لبقية أفراد الشعب ٠ وأثر هـذه القوة فى الوقت الحاضر فى عالم الصناعة وميدان السياسة الدولية سىء الى حد ينبغى معه ابتكار وسيلة للحد من سلطانها ٠

وليس للملكية الخاصة من سند يبررها الا ما كانت تقوم عليه فى غضون التاريخ من قوة السيف ٠ فقد كان لبعض الأشخاص فى عهد الاقطاع من القوة العسكرية ما مكنهم من ارغام الذين يبغضونهم على عدم البقاء فى بقعة معينة ٠ أما الذين سمحوا لهم بالبقاء فقد أصبحوا تابعين لهم ، واضطروا أن يخدموهم مقابل الاذن لهم بالبقاء ٠ وكان لابد ، لكى يحل القـانون محل القوة الخاصة ، من أن تترك الحقوق التى اكتسبت بالسيف دون مساس ٠ ـ وأصبحت الارض ملكا لاولئك الذين غزوها ، وسمح للتابعين بأن يدفعوا ايجارا بدلا من قيامهم بخدمات عينية ٠ فليس هناك من سند آخر للملكية الخاصة للأرض سوى ما كان الناس يضطرون اليه فيما سلف من ارضاء لصوص شرسين ما كانوا لينصاعوا للقانون بأى وسيلة أخرى ، ولقد اضطر الناس الى ذلك فى أوروبا منذ قرون طويلة ، ثم اضطروا الى مثله تماما فى أفريقيا منذ عهد قريب جدا ٠ فبنفس الطريقة ، مع تعديل طفيف بقصـد التعمية ، تم الاستيلاء على مناجم الماس فى كمبرلى ومناجم الذهب فى راند على الرغم من الحقوق السابقة التى كانت للأهالى ٠ انه لمثل صارخ للجحود الانسانى أن يستمر الناس حتى الآن فى تحمل السلب والجور اللـذين تستطيع فئة قليلة فرضهما بسبب ملكيتهم للأرض ٠ **ان الملكية الخاصـة للأرض لا ينشأ عنها أى خير للمجتمع ٠ ولو عقل الناس لقرروا الغـاءها**

على الفور دون أدنى تعويض سوى تقرير دخل بسيط مدى الحيـــاة لملاكها الحاليين .

ان مجرد الغاء الايجار لن يقضى على الظـــلم ، اذ أنه يمنح امتيازات لا مبرر لها من يستغلون أحسن المناطق وأخصب الأراضى وقت الالغاء ، انه من الضرورى أن يكون هناك ايجار ، الا أنه يجب أن يدفع للدولة أو لأية هيئة تقوم بخدمات عامة ، فاذا كان المتحصل من الايجار يزيد على حاجـة الدولة والخدمات العامة التى يمكن القيام بها ، جمـــع الباقى فى اعتمـاد مشترك ووزع بالتساوى بين أفراد الشعب . ومن الممكن أن تكون هـــذه طريقة عادلة ، فهى لن تساعد فقط على محاربة الفقر ، بل انها ســـتمنع أيضا الاستغلال السيء للأرض ، وتقضى على طغيان ملاك الأراضى المحليين . ان كثيرا مما يبدو أنه مظهر لقوة رأس المال هو فى الواقع قوة مالك الأرض: مثال ذلك شركات السكك الحديدية ، وأصحاب المناجم . ان الشر الناجم عن النظام الحالى ، والظلم الذى يلحق الناس من جرائه ، لأمر لا يخفى على أحد ، ولكن صبر الناس على الشرور التى يمكن ملافاتها بلغ حـــدا عظيما يستحيل معه الحدس بالموعد الذى يضعون فيه حـــدا لهذه الســـخافة الغريبة .

والميراث ، وهو مصدر الجزء الأكبر من الدخول التى لا يبذل فيها مجهود، يعتبره معظم الناس حقا طبيعيا . ففى بعض الأحيان ، كما هى الحال فى انجلترا ، يكون حق التوريث مطلقا للمالك يتصرف فيه كما يتراءى له دون قيد . وفى أحيان أخرى كما هى الحال فى فرنسا ، يقيد هـــذا الحق بحق الأسرة فى أن ترث على الأقل جزاء مما يتركه المورث . ولكن ليس لحق المالك فى أن يوصى بأملاكه ، ولا لحق الأطفال فى أن يرثوا آباءهم أى أساس سوى الغرائز الاقتنائية والاعتزاز بالعائلة . وقد تـكون ثمة أسباب تبرر أن يستمتع رجل ما ، لعمله قيمة ممتازة ، كمخترع مثلا ــ بدخل أكبر مما يحصل عليه الرجل العادى ، الا أنه ليس ثمة من سبب وجيه يبيح أن يرث هذا الامتياز أبناؤه من بعده ثم أبناء أبنائه الى ما شاء الله . فان هذا ينبنى عليه أن تنشأ طبقة من الكسالى المجدودين ، ممن يكسبهم مالهم النفـــوذ

والسلطان ، وممن يعارضون الاصلاح خوفا من أن يكون موجها ضدهم . فيصبح أفق تفكيرهم ضيقا ، بسبب مايخشونه من أن يضطروا الى الاعتراف بأن لا وسيلة للدفاع عن مركزهم ، ومع ذلك فان بريق الفخفخة الكاذبة ورغبة الطبقة الوسطى فى الحصول على رضائهم تجعل كل هذه الطبقة تقريبا تقلدهم تقليدا أعمى ، وتدافع عن وجهة نظرهم ، وبهذا يصبحون شرا يسمم أفكار جميع المثقفين تقريبا .

ويقول البعض أن الناس قد لا يعملون بالهمة التى يعملون بها وهم مدفوعون بدافع الميراث اذا جردوا من هذا الدافع . وهم يؤكدون لنا أن كبار رجال الصناعة تستحثهم الرغبة فى تأسيس أسرة ، وأنهم لن يكرسوا حياتهم للعمل المرهق المتواصل اذا لم يكونوا يأملون تحقيق هذه الرغبة . وأنا لا أعتقد أن جزءا كبيرا من العمل المفيد فائدة حقيقية يتم بدافع من تلك الرغبة ، فالعمل العادى يدفع اليه طلب العيش ، وخير الأعمال ما تدفع اليه لذة العمل نفسه . وحتى كبار رجال الصناعة أنفسهم ، أولئك الذين يقال أنهم انما يهدفون الى تكوين عائلات ـ وقد يعتقدون هم أنفسهم أنهم يهدفون الى ذلك ـ قد يكون الدافع لهم على العمل حب السلطة ونشوة المغامرة التى تتضمنها المشروعات الكبيرة أكثر مما تدفعهم الرغبة فى تكوين عائلة ، وحتى اذا كان ثمة بعض النقص فى كمية العمل ، فانه يهون فى سبيل التخلص من طبقة الأغنياء الذين لا عمل لهم الا ما يشيعونه من جور وضعف وفساد .

ولا يقوم نظام التوزيع الحالى على أى مبدأ . فقد بدأ الأمر بنظام فرضه الغزو ، ثم جاء القانون فأجاز القواعد التى وضعها الغزاة ، ولم تغير هذه القواعد تغييرا أساسيا حتى الآن . فما هو المبدأ الذى يجب أن يقام عليه البناء من جديد ؟

فأما الاشتراكية ، التى تحظى بأكبر قسط من التأييد الشامل بوصف كونها الخطة المثلى للاصلاح ، فهدفها الأول هو تحقيق العدالة ، ان التباين الحالى فى الثراء هو تباين غير عادل ، وقد يقضى قيام الاشتراكية على هذا التباين. والاشتراكية لا تتطلب المساواة التامة فى الدخل ، ولكنها تستلزم

أن يكون سبب الاختلاف فى الدخـــول ، فى كل حالة من الحـــالات ، هو الاختلاف فى حاجات الناس ، والاختلاف فى نوع الأعمال التي يقومون بها، وليس ثمة من ينكر أن النظام الحالى ينطوى على جور كبير • **بيد أننى لا أظن** أن العدالة وحدها تكفي كمبدأ يقوم عليه اعادة البناء الاقتصـــادى • فان **العدالة تتحقق اذا كان الناس جميعا سعداء ، كما تتحقق اذا كانوا جميعـا غير سعداء • والعدالة وحدها اذا تحققت لا تكون منبعا لحياة جديدة** • ان الإشتراكي الماركسى الثائر القديم لم يدر فى خياله ما ستكون عليه حيـاة المجتمعات بعد أن يستتب الأمر للنظام السـعيد • انه تخيل أن جميـــع الناس سيعيشون فى رغد من العيش كما يعيش أبطال القصص الخيالية • الا أن هذا لا يحدث فى الحيـاة الحقيقية • ان الحيـــاة ، لكى تكون محتملة ـ تستوجب أن يكون فيها رغبات ، ونشاط ، وأهداف ، أما حيـاة العصر السعيد التى تخيلها أولئك القوم فان الأمل فى تحقيقها قد يجلب السرور، ولكنها تكون غير محتملة لو تحققت •

حقيقة أن الاشتراكيين المحدثين فقدوا ذلك الايمـان الدينى الذى كان يمتاز به رواد الاشتراكية الأول ، وأصبحوا ينظرون الى الاشتراكية عـلى أنها اتجاه أكثر منه هدف محدد • ولكنهم ظلوا عنـــد رأيهم من أن دخل الشخص هو الذى يحتل المكانة الأولى من الناحية السياسية ، وأن رفـع أجور العمال يجب أن يكون الهدف الأساسى للسياسى الديمقوقراطى • وعندى أن هذا الرأى ينطوى على فكرة سلبية عن مقومات السعادة • فحقيقة أن عالم الصناعة فيه مئات ضخمة من الناس أفقر من أن تتاح لها فرصـــة الحياة الطيبة، ولكن الحياة الطيبة لن تتحقق من تلقاء نفسها كلما زال الفقر. ان قليلين جدا من أفراد الطبقة الموسرة يعيشـــون حياة طيبـــة فى الوقت الحاضر ، وقد يكون كل ما ستفعله الاشتراكية هو احلال الشرور التى تحيق الآن بالطبقات الموسرة فقط ، محل الشرور الناجمة عن الفقر •

وعلى الرغم من أن الحركة العمالية القائمة من أهم بواعث التطـور ، فان هناك اتجاهات يجب على المصلحين أن يكونوا على حذر منها • ان الحـــركة العمالية هى فى صميمها حركة تهدف الى تحقيق العدالة ، وتقوم على الاعتقاد

بأن تضحية الأغلبية فى سبيل الأقلية ليس لها ما يبررها الآن ، أيا كانت مبرراتها فى الماضى • فعندما كان العمل أقل انتاجا ، وكان التعليم أقل انتشارا ، كان من الجائز أن يكون وجود الطبقة الأرستقراطية هو الوسيلة الوحيدة لقيام عالم متمدين : من الجائز أنه كانت هناك ضرورة لأن تساهم الأغلبية فى تيسير أسباب العيش للأقلية ، اذا كانت الأقلية تساعد على تطور العالم وزيادة رصيده من الفن والحياة الفكرية والمدنية ، ولكن هذه الضرورة قد انقضى عهدها أو هى فى سبيلها الى الزوال السريع ، ولم يعد هناك أى اعتراض وجيه على تحقيق ما تقتضيه العدالة • ان الحركة العمالية لا يمكن مقاومتها عن طريق الحجة العقلية ، وليس ثمة فى الوقت الحاضر ما يقاومها مقاومة جدية سوى الاهواء والاعتداد بالذات • ان الآراء الحية جميعا فى جانبها ، وليس يعارضها الا كل ما هو تقليدى ميت • ولكن على الرغم من أنها هى نفسها حية ، فليس هناك ما يؤكد تأكيدا مطلقا انها نعمل للحياة •

والعمل توجهه بعض تيارات الفكر السياسى توجيهات لو ظلت قوية بعد انتصاره لأصبحت عاملا خطيرا من عوامل الضغط • وغالبية أفراد الطبقة المثقفة يقاومون ما تطمح اليه الحركة العمالية بصفة عامة ، اذ يرون أنها لا تهدد راحتهم الشخصية فحسب ، ولكنها تهدد أيضا الحياة المتحضرة التى يعيشون فيها والتى يؤمنون ايمانا عميقا بأهميتها للعالم • وعندما تكون الحركة العمالية نشطة ثورية ، فانها تميل بسبب مقاومة الطبقات المتعلمة لها الى احتقار كل ما تمثله هذه الطبقات • وعندما تكون الحركة العمالية أميل الى الاحترام ، كما هو حال زعمائها فى انجلترا ، فان تأثير الرجال المتعلمين ، الذى يعمل فى الخفاء ودون أن يتنبه له أحد ، قمين بأن يقضى على الحماسة الثورية ، وأن يترك محلها الشك وعدم الثقة ، بدلا من الثقة السريعة التى كان من الجائز الوصول الى النصر عن طريقها • ان الميل الذى يبديه خير رجال الطبقة الموسرة نحو الحركة العمالية ، واستعدادهم للاعتراف بمطالبها العادلة ، قد يكون لهما تأثير فى تخفيف معارضة زعمائها لبقاء الحال على ما هو عليه ، وأن يزين لهم أنه من المستحيل احداث

تغيير أساسى ـ ولما كانت هذه المؤثرات تصيب زعماء الحركة العمالية أكثر مما تصيب جنودها ، فان النتيجة أن يفقد الجنود ثقتهم فى الزعماء ، وتنشأ لديهم الرغبة فى ايجاد زعماء جدد ممن يكونون أقل استعدادا لتقبل وجهات نظر الطبقات المجدودة . وقد تكون النتيجة فى النهاية حركة عمالية تبلغ فى عدائها لحياة الفكر الحد الذى يتصور بعض المذعورين من الملاك أنها بلغته الآن فعلا .

ان مقتضيات العدالة اذا فسرت تفسيرا ضيقا تعمل على تقوية هذا الاتجاه . فقد يعتبر من غير العدل أن يتمتع بعض الرجال بدخل أكبر من دخل غيرهم ، أو بساعات عمل أقل من ساعاتهم ، ولكن الكفاية فى الأعمال العقلية ـ بما فيها الأعمال التربوية ـ تتطلب على التحقيق راحة أكثر مما تتطلب الكفاية فى الأعمال الجسمانية ، ولو بسبب أن العمل العقلى ليس صحيا من الوجهة الفسيولوجية . فاذا لم يراع ذلك فان حياة الفكر قد تضار بسبب قصر النظر أكثر مما يضرها العداء المتعمد .

ان التعليم يعانى الآن ـ وقد يظل يعانى مدة طويلة ـ من رغبة الآباء فى أن يتكسب أولادهم مالا بأسرع ما يستطيعون . فكلنا نعرف أن نظام نصف اليوم فى المدرسة مثلا نظام غير صالح ولكن نفوذ الحركة العمالية المنتظمة يعمل على بقائه . وواضح أن علاج هذا الشر ، وكذلك حل مشكلات السكان هو أن نرفع عن كاهل الآباء عبء تعليم أبنائهم ، وأن نمنع فى نفس الوقت حقهم فى الاستيلاء على أجور أبنائهم .

ان الطريق الى تجنب مقاومة العمل الخطرة لحياة الفكر ليس معارضة الحركة العمالية ، وهى أقوى من أن تعارض معارضة عادلة ، بل الطريق السليم هو الاثبات بطريقة عملية واقعية أن الفكر مفيد للعمل ، وأن العمل بدون الفكر لا يمكن أن تتحقق أهدافه المحددة ، وأن ثمة رجالا فى عالم الفكر على استعداد لأن يكرسوا مجهوداتهم لمساعدة العمل فى نضاله . ان مثل هؤلاء الرجال يستطيعون أن يمنعوا العمل من تدمير ما هو حيوى فى عالم الفكر ، اذا كانوا مخلصين عاقلين .

وثمة خطر آخر فى أهداف الحركة العمالية المنظمة ، وهو خطر «الرجعية»

فى وسائل الانتاج • ان التحسينات التى تدخل على الآلات وعلى التنظيم تحمل فى طياتها مزايا كبيرة لأصحاب المصانع ، ولكنها تتضمن خسارة مؤقتة لذوى الأجور ، وقد تكون خسائره دائمة . فلهذا السبب ، وللنفور الغريزى من تغيير العادات ، كثيرا ما تقف منظمات عمالية قوية فى سبيل التقدم الفنى • ويجب أن تكون القاعدة الأساسية التى يبنى عليها كل تقدم اجتماعى ، زيادة الكفاية الفنية ، أى الحصول على نتائج أفضل من قدر معين من العمل • واذا استمر العمل يقاوم التقدم الفنى مقاومة فعالة • فانه مع مرور الوقت سيوقف كل أنواع التقدم الأخرى •

ان الطريقة المثلى للتغلب على مقاومة العمل ليست المبادرة بالعداء ، ولا بالقاء المواعظ الخلقية ، ولكن بمنح العمال المصلحة المباشرة التى يتمتع بها الآن أصحاب العمل فى العمليات الاقتصادية • وفى هذه الحالة نتخلص من الجزء غير التقدمى من حركة هى فى صميمها تقدمية ، وذلك ليس عن طريق التنديد بالحركة كلها ، ولكن بأن نهيىء لها آفاقا أوسع تجعلها أكثر تقدمية ، وتدفعها حتى الى المطالبة باحداث تغيير فى البناء الاجتماعى أكبر مما كانت تفكر فيه عند بدايتها •

وأهم الأهداف التى تستطيع المنظمة السياسية تحقيقها ، هو العمل على استمرار جذوة الحياة فى العنصر الانشائى لدى الافراد ، وفى نشاطهم وحيويتهم ، وفيما يستمتعون به من بهجة الحياة • وقد كانت هذه الأشياء موجودة مثلا فى انجلترا فى عهد اليزابث بطريقة لا وجود لها الآن • فأثارت فى النفوذ وقتئذ حب المغامرة ، وأنعشت الشعر والموسيقى والعمارة الجميلة، وكانت مطلعا لكل الحركة التى انبعثت منها عظمة انجلترا فى جميع الميادين التى برز الانجليز فيها • ولقد وجدت هذه الأشياء والجور الاجتماعى جنبا الى جنب ، ولكن آثارها رجحت آثاره ، وجعلت حياة الأمة أدعى الى الاعجاب مما هو منتظر أن تكونه ، بالغا ما بلغ ، فى ظل الاشتراكية •

ان الذى نطلبه ليظل الناس يفيضون حيويةهو الفرصة وليس الطمأنينة فقط • ان الطمأنينة ليست الا ملاذا من الخوف ، أما الفرصة فهى مصدر

الأمل • والمقياس الأكبر لنجاح أى نظام اقتصادى ليس فى أنه يجعل الناس منتعشين ماديا ، أو فى أنه يضمن عدالة فى التوزيع (بالرغم من أن هذين الأمرين مرغوب فيهما جدا) ولكن المقياس هو فى أنه لا يعوق النمو الغريزى للناس • وحتى يحقق النظام الاقتصادى هذا الهدف يجب أن يتوافر فيه شرطان أساسيان ، فينبغى ألا يكون عاملا على اضعاف عواطف الناس الخاصة ، وأن يوفر لنزعة الانشاء عندهم أكبر قدر من التحقيق • ان فى معظم الناس غريزة بناء ، وبالأحرى رغبة فى عمل شىء ما ، الا اذا كانت هذه الغريزة قد اضمحلت بسبب سوء الاستعمال • ونحن بوجه الاجمال نرى أن الذين ينجحون أكثر من غيرهم هم من كانت هذه الغريزة لديهم أقوى منها فيمن سواهم • ومثل هؤلاء يصيرون فنانين أو علماء أو سياسيين أو بناة امبراطوريات أو أساطين صناعة ، تبعا لظروف طبيعتهم وفرصهم • ان هذه النزعة هى التى تدفع أصحابها الى أعظم ما يصنعونه من خير وأسوأ ما يرتكبونه من اثم ، ولولاها لهبط مستوى الحضارة فى العالم ، ولأصبح الناس كأهل التبت فى تمسكهم بسنن آبائهم ، فيغرق كل جيل أكثر من سابقة فى غمار تقاليد لا حياة فيها ، وهو الأمر الذى يخشى دائما أن ينتهى اليه مصير العالم ، على أن غريزة البناء ليست وقفا على الممتازين من الناس بالرغم من كونها أقوى عندهم منها عند غيرهم • فهى توجد فى الأطفال جميعا ، وتظل قائمة لدى البالغين بصفة عامة ، بمقدار يتفاوت بتفاوت المتنفس الذى تستطيع أن تجده • والناس يجدون راحة فى الأعمال التى يقومون بها بوحى من هذه الغريزة حتى لو كان العمل مرهقا وصعبا ، لأن كل مجهود يبذلونه هو مجهود طبيعى مثل المجهود الذى يبذله الكلب فى مطاردة الأرنب البرى • والنقص الأساسى فى النظام الرأسمالى الحالى هو أن العمل الذى يقوم به الانسان للحصول على أجره نادرا ما يهيىء متنفسا للنزعة الانشائية ، اذ الانسان الذى يعمل للحصول على الأجر ليس مخيرا فى العمل الذى يقوم به : وهذا لأن كل العنصر الانشائى فى العملية يتركز فى صاحب العمل الذى يستطيع أن يأمر بما يرى عمله • ولهذا السبب يصبح العمل قاصرا على كونه وسيلة خارجية لغاية معينة ، هى الحصول على الأجر • وتثير القواعد التى تضعها النقابات للحد من الانتاج ثائرة أصحاب

العمل ، على أنهم لا حق لهم فى أن يثوروا ، ما داموا لا يسمحون لعمالهم أن يكون لهم نصيب فى الغـــرض الذى يتم العمل من أجله • وهكذا يصبح الانتاج ، الذى ينبغى أن يكون دورة غريزية موحدة منقسما الى عدة أغراض متفرقة عاجزة عن ارضاء غريزة من يقومون بالعمل •

والسبب فى هذه النتيجة هو نظامنا الصناعى ، وأخذ الدولة بالنظـــام الاشتراكى لن يؤدى الى تجنبها • ففى المجتمع الاشتراكى تكون الدولة هى صاحبة العمل ، ولا يكاد يكون للعامل كفرد من مشيئته فى عمـــله أكثر مما له الآن •

ولا يكون لرأيه الا أثر غير مباشر يظهر فى المناسبات السياسية ، فهو أثر تافه وملتو ولا يشبه رغبة ذات قيمة ، بل يحق لنا أن نخشى أن يزيد هذا الأثر فى مقدار التدخل المشترك بدلا من زيادة التوجيه الذاتى •

والظـــاهر أن ما تطلبه الإشـــتراكية الماركسية من الغاء المؤسسات الرأسمالية الخاصة الغاء تاما ، لا يكاد يكون له ضرورة • ومعظم الـــذين يصنعون أنظمة شاملة للاصلاح لا يعلقون أهمية عـلى ما يجب أن يستثنى حين تطبيق هذه النظم ، وزهد الناس فى النظم الجامدة ، مثلهم فى ذلك مثل أولئك الذين يدافعون عن الحالة القائمة • فاذا استطعنا أن نحد من نطاق الرأسمالية ، وأن ننقذ غالبية الشعب من سيطرتها ، فليس هناك ما يدعو الى الغائها الغـــاء تاما ، اذ أن ما فيها من عنصر المنافســـة قد يقى بعض المؤسسات التى هى أكثر ديمقراطية من التردى فى وهدة الكسل وجمود وسائلها الفنيـــة • ولكن الأمر الذى له أهميته القصـــوى هو أن تكون الرأسمالية الاستثناء لا القاعدة ، وأن يكون توجيـــه الغالبية العظمى من الصناعات فى العالم على أسس أكثر ديمقراطية • وكثير مما يقـــال ضـــد الروح الحربية فى الدولة يمكن أن يقال عن الرأسمالية فى المجال الاقتصادى • ان المنظمات الاقتصادية اذ تهدف الى التقدم ، تزداد ضخامة باستمرار ، وليس ثمة احتمال فى أن ينعكس الأمر ، اذ أن نمو هذه المنظمات يرجع الى أسباب فنية ، وينبغى أن نتقبل المنظمات الكبرى كجزء أساسى من المجتمع المتحضر ، ولكن ليس ثمة ما يدعو لأن تكون ادارتها مركزة ودكتاتورية ••

والنظام الاقتصادى الحالى اذ يسلب معظم الناس قدرتهم فى الابتكار ، سبب من الأسباب التى تؤدى الى الحيوية وجعلهم يبحثون دائما عن المثيرات ، حتى أدى بهم الأمر الى أن أصبحوا يرحبون حتى باندلاع الحرب كوسيلة للتخفيف من جفاف حياتهم اليومية الرتيبة .

فاذا أردنا أن نحافظ على حيوية الشعب ، وأن نحتفظ بالقدرة على ابتكار الافكار الجديدة ، واذا اردنا ألا نغرق فى حالة من الجمود الصينى المأثور ، فيجب أن نطيح بالنظم الدكتاتورية فى الصناعة ، وينبغى أن تكون ادارة المؤسسات الكبرى ديموقراطية واتحادية . ان نظام الأجور كله لا خير فيه ، ليس فقط بسبب الظلم الاجتماعى الذى نشأ عنه ، ولازمه ، بل لأنه أيضا يفرق بين من يقوم بالعمل والغرض المقصود من العمل ، ان الهدف الموجه للعمل يتركز فى يد الرأسمالى ، أما هدف العامل فهو الحصول على الأجر . وهدف الرأسمالى هو الحصول على أكبر قدر ممكن من العمل مقابل أقل قدر ممكن من الأجر ، وهدف العامل هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأجر مقابل أقل قدر ممكن من العمل. والنظام الذى يتضمن مثل هذا التضارب الأساسى للمصالح لا يمكن أن يؤدى الى سير العمل فى هدوء أو بنجاح ، أو أن ينشأ عنه مجتمع يفخر بكفايته .

وفى العالم الآن حركتان ، قطعت احداهما شوطا كبيرا، أما الأخرى ففى مهدها ، وهما تستطيعان فيما بينهما أن تقودانا الى معظم ما نرغب فيه . أما هاتان الحركتان فهما الحركة التعاونية والحركة النقابية .

وتستطيع الحركة التعاونية أن تحل محل نظام الأجور على نطاق واسع ولكننا لا نستطيع أن نتبين كيف يمكن تطبيقها على المرافق التى من قبيل السكة الحديدية . ففى مثل هذه الحالات يمكننا تطبيق المبادىء النقابية بسهولة .

واذا أردنا ألا يكون التنظيم سببا فى القضاء على الفردية فينبغى ألا يكون الانتماء الى المنظمات اختياريا لا جبر فيه ، على أن يكون دائما للعضو نصيب فى الادارة . وليس هذا هو الحال فى المنظمات الاقتصادية التى لا تتيح الفرصة للشعور بالكرامة والسرور الذى يجده الناس فى العمل غير الممل

الذى يختارونه بأنفسهم • ويجب أن نعترف بأن ثمة قدرا كبيرا من العمل الآلى الضرورى للصناعة لا يمكن جعله عملا محببا الى نفوس العمال • ولكن هذا القدر يكون أقل ارهاقا لو كان لأولئك الذين يقومون به صوت فى ادارة الصناعة التى يعملون فيها •

وفى وسعنا أن نهيىء لمن يريدون أن يتوفر لهم قدر من الفراغ يتعلمون فيه مهنة أخرى فرصة القيام بعمل ما لساعات قليلة كل يوم مقابل أجر قليل ، وسيكون هذا بمثابة متنفس لكل أولئك الذين يرغبون فى مزاولة لون من ألوان النشاط الذى لا يبتغون من ورائه منفعة مباشرة لأنفسهم • وعلينا بعد أن نبذل كل ما فى وسعنا لجعل العمل شائقا ، أن نجعل ما يتبقى منه بعد ذلك شيئا محتملا بادخال نظام المكافآت على ساعات العمل الاضافى كما هو الحال فى جميع الأعمال تقريبا فى الوقت الحاضر • ولكننا اذا أردنا أن تكون هذه المكافآت مرضية فمن الضرورى الا يستغرق العمل الاجبارى كل طاقة الانسان ، وينبغى أن تتاح الفرص للعامل لكى يقوم بنشاط مستمر الى حد ما فى الساعات الباقية • ان مثل هذا النظام قد يكون وضعا مثاليا بالنسبة للفنانين والأدباء وغيرهم ممن ينتجون لمزاجهم الشخصى أعمالا لا يقدرها الجمهور تقديرا سريعا بحيث تدر عليهم ما يعيشون به • وفضلا عما ذكر من هذه الحالات التى ربما بلغت حد الندرة فان هذا النظام يوفر للشباب الذى يحدوه الطموح العلمى فرصة للاستمرار فى دراستهم بعد تركهم المدرسة ، أو لاعداد أنفسهم لمهن تحتاج الى مرانة طويلة بصفة خاصة •

وضرر النظام الحالى سببه الفصل بين المصالح المختلفة للمستهلك والمنتج وصاحب رأس المال • فليس من بين هؤلاء من له نفس المصالح التى للمجتمع أو التى للاثنين الآخرين • ان النظام التعاونى يوفق بين مصالح المستهلك ومصالح صاحب رأس المال ، ويوفق النظام النقابى بين مصالح المنتج ومصالح صاحب رأس المال • ولكن ليس بين النظامين ما يوفق بين المصالح الثلاث أو يجعل مصالح الذين يوجهون الصناعة هى بذاتها مصالح المجتمع ، ولذلك فلن يستطيع أى النظامين أن يحول دون حدوث الاصطدام فى

ميدان الصناعة ، أو يحول دون تدخل الدولة للفصل فى المشكلات ، ولكن أيا منهما هو خير من النظام الحالى ، وربما استطاع مزيج منهما أن يعالج معظم أضرار التصنيع الموجودة حاليا ، وانه لما يدعو الى التعجب أن الناس قد ناضلوا لتحقيق الديمقراطية السياسية بينما هم لم يفعلوا شيئا يستحق الذكر لتحقيق الديمقراطية فى الصناعة . وأنا أعتقد اننا قد نجنى فوائد لا حصر لها من اقامة الديمقراطية الصناعية اما على نمط النظام التعاونى ، أو باعتبار الصناعة أو المهنة وحدة فيما يتعلق بطريقة تنظيمها وتوجيهها ، تتمتع بنوع من الحكم الذاتى ، شبيه بما يهدف النظام النقابى الى تحقيقه . فليس هناك أسباب تدعو لأن تكون كل الوحدات الحكومية قائمة على أساس جغرافى ، فان هذا الوضع كان ضروريا فى الماضى بسبب بطء وسائل المواصلات ، ولكنه ليس ضروريا الآن ، ونظام مثل الذى نقترحه قد يعيد الناس الشعور بالاعتزاز بعملهم ، ويتيح لهم مرة أخرى متنفسا لنزعاتهم الانشائية ، ذلك المتنفس الذى حرم منه الجميع ، الا قلة من حسنى الحظ . ومثل هذا النظام يتطلب الغاء ملكية الأرض ، ووضع القيود على رأس المال ، ولكن لا يحتم المساواة فى الدخول المكسوبة . وهو بهذا يختلف عن النظام الاشتراكى فى أنه ليس نظاما جامدا أو غير قابل للتعديل ، فهو لا يكاد يكون أكثر من اطار للطاقة وملكة الابتكار . وانى أعتقد أن نظاما مثل هذا هو السبيل الوحيد للتوفيق بين نمو الفرد والمنظمات الفنية الهائلة التى جعلها التصنيع أمرا لا محيص عنه .

٥

التربيـــة

لا تستقيم نظرية سياسية ما لم يشمل مجال تطبيقها الأطفال كما يشمل الرجال والنساء • ومعظم واضعى النظريات لا أطفال لهم ، وحتى اذا كانوا آباء فانهم يحاطون بسياج يقيهم الانزعاج الناشىء عن شغب الصغار • وقد وضع بعضهم كتبا عن التربية ، ولكنهم بصفة عامة يكتبون وليس فى مخيلتهم شىء عن أطفال بذاتهم • أما أصحاب النظريات التربوية الذين لديهم خبرة بالأطفال ، مثل مبتكرى نظام رياض الأطفال وطريقة منتسورى (١) فى التربية ، فلا يتوفر لديهم دائما الادراك الكافى لهدف التربية الأصيل بدرجة تمكنهم من مزاولة التعليم التقدمى بنجاح • وليس لدى شخصيا خبرة بالأطفال وبالتربية تؤهلنى لتصحيح ما قد يكون فى كتابات الغير من أخطاء • ألا أن بعض المسائل المتعلقة بالتربية باعتبارها نظاما سياسيا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار فى معرض اعادة بناء المجتمع ، وهى مسائل لا يعنى بها عادة من يكتبون عن النظريات التربوية •

وهذه المسائل هى التى أريد مناقشتها الآن •

ان أثر التربية فى تكوين شخصية المرء ورأيه كبير جدا ومعترف به بوجه عام الى حد بعيد • فان غالبية الأطفال عادة يلتقطون بطريقة تكاد تكون لا شعورية ما يعتقده الآباء والمدرسون فى قرارة أنفسهم ، لا ما يلقونه عليهم من دروس ، وتبقى دائما أبدا فى نفس الطفل بعض آثار هذه المعتقدات على استعداد للظهور فى الأزمات والشدائد ، حتى لو كان قد أنحرف عنها الى غيرها بعد طفولته • والتعليم بصفة عامة أكبر القوى التى تعمل لابقاء الحالة القائمة على ما هى عليه ضد أى تغيير أساسى • وتستحوذ النظم المهددة ، وهى ما تزال قوية ، على وسائل التعليم، وتغرس فى عقول الصغار التى تتأثر بسهولة ، احترام تفوقها ، ويرد على ذلك المصلحون بمحاولة تنحية خصومهم عن مركزهم الممتاز ، أما الطفل نفسه فلا اعتبار له عند أى من الطرفين ، اذ يعتبر اداة يحاول كل منهما أن يستغلها لصالحه ، فلو أى للأطفال اعتبارا لذاتهم لكان هدف التعليم اعدادهم لأن يختاروا عن تبصر

---

١ ـ أن طريقة مدام منتسورى فى تربية صغار الأطفال فيما يبدو لى طريقة حكيمة

مايفضلون من أنظمة ، لا أن يحاول ضمهم الى هذا الجانب أو ذاك ، والعمل على تنمية ملكة التفكير عندهم ، لا على جعلهم يفكرون على غرار مدرسيهم ، ولو احترمت حقوق الاطفال لمان كان للتربية وجود كسلاح سياسى ، اذ لو كنا حقا نحترم حقوق الأطفال لوجب علينا أن نمنحهم تعليما يزودهم بالمعرفة والعادات العقلية اللازمة لتكوين رأى مستقل. ولكن التعليم كسلاح سياسى يعمل على تكوين عادات وتحديد أنواع من المعرفة بطريقة تجعل طائفة من الآراء أمرا لا محيد عنه .

ان مبدأى العدالة والحرية اللذين يشملان القدر الأكبر من الاصلاح الاجتماعى المطلوب لا يكفيان وحدهما فيما يتصل بشئون التربية . اذ أن العدالة ، بمعناها الحرفى من حيث أنها مساواة فى الحقوق ، ليست ممكنة تماما ، كما يبدو بوضوح ، فيما يتعلق بالأطفال . أما الحرية فهى أولا سلبية فى أساسها ، اذ تحرم كل تعرض يمكن تجنبه لحريات الآخرين ، دون أن تقدم أى مبدأ ايجابى للبناء . ولكن التربية فى جوهرها عملية بناء ، وهى تتطلب تصورا ايجابيا لمقومات الحياة الطيبة . وعلى الرغم من أنه مسلم به أن الحرية تكون موضع الاحترام الى الحد الذى لا يتعارض ومقتضيات التعليم ، وعلى الرغم من أنه يمكن أن نسمح بقدر من الحرية أكبر بكثير مما يمنح عادة دون أى ضرر يلحق بالتعليم ، فانه من الواضح أننا لا نستطيع أن نتجنب تقييد الحرية بعض الشىء اذا كنا نريد أن يتعلم الأطفال شيئا ، باستثناء الأطفال ذوى الذكاء الخارق الذين يوضعون بمعزل عن زملائهم ذوى الذكاء العادى .

وهذا هو أحد الأسباب التى تجعل المسئولية التى تقع على عاتق المدرسين مسئولية ضخمة، اذ أن الأطفال لابد أن يكونوا ـ الى حد قد يزيد أو ينقص ـ تحت رحمة من هم أكبر منهم ، وهم غير قادرين على أن يكونوا قوامين على مصالحهم . ولذا كانت السلطة عنصرا لا يمكن تجنبه تماما فى التربية ، وعلى المربين أن يجدوا الطريقة التى تسمح باستعمال السلطة بحيث تتفق وروح الحرية .

وحيثما لا يمكن تجنب استعمال السلطة ، تصبح الحاجة ماسة للاحترام

فيجب على الرجل الذى يريد أن يعلم كأحسن ما يكون التعليم، وأن ينشىء الصغار تنشئة تصل بهم الى أقصى مستواهم ، أن تتشبع نفسه تماما بروح الاحترام. واحترام الآخرين هو العنصر الذى يفتقر اليه أولئك الذين يبشرون بالنظم الآلية الجامدة ، كالنظم الحربية والرأسمالية والمنظمات الفابية (١) وجميع السجون الأخرى التى يرغب المصلحون والرجعيون أن يقيدوا داخلها الروح البشرية . والتربية ، بقواعدها ونظمها الصادرة من ادارة حكومية ، بفصولها الكبيرة وبرامجها المحددة ومدرسيها المرهقين ، وبتصميمها على تخريج طائفة من الأشخاص العاديين السطحيين ، ينقصها احترام الطفل بشكل يكاد يكون عاما فى جميع أنحاء العالم .

ويتطلب الاحترام خيالا واسعا وحماسة مشبوبة ، وهو يتطلب أكثر ما يتطلب سعة الخيال فيمن لا حول لهم ولا مقدرة . فالطفل ضعيف ، وتبدو عليه حماقة ظاهرية ، بينما المدرس قوى ،ويبدولنا أكبر من الطفل عقلا.لذا كان سهلا على المدرس والموظف الحكومى أن يحتقرا ضعف الطفل الظاهرى اذا لم يكن الاحترام متوفرا لديهما أصلا . فيعتقد كل منهما أن واجبه أن « يصوغ » الطفل ، فهو يتخيل أن الطفل صلصال ، وأنه الخزاف ، وهكذا يشكل الطفل فى قالب مشوه غير طبيعى يصبح مع الوقت صلبا غير قابل للتغير ، وينشأ عنه توتر وقلق روحى ينتج عنهما قسوة وحسد ، واعتقاد بأن الآخرين يجب أن يشوهوا بالطريقة نفسها .

ان الرجل الذى يتوفر لديه الاحترام لا يعتقد أن واجبه أن « يصوغ » الأطفال ، انه يحس بوجود شىء قدسى فى كل حى ، وخاصة فى الأحياء من البشر ، وفوق كل شىء فى الاطفال ، شىء علوى لا يعرف له كنها ولا حدودا، شىء فردى فريد فى قيمته هو جوهر الحياة النامى ، قطعة مجسمة من كفاح الدنيا الأبكم . ان هذا الرجل يحس خضوعاً ومذلة فى حضرة الطفل لا يعرف لهما سببا ، خضوعا لا يسهل على العقل تفسيره ، ولكنه أقرب الى الحكمة من تلك الثقة بالنفس التى يبديها الكثيرون من الآباء والمدرسين ،

(١) Fabian نسبة الى الجمعية الفابية الانجليزية وهى جماعة اشتراكية مهذبة تضم معظم الاشتراكيين الانجليز المعاصرين .

فيحس بمسئولية الأمانة التى فى عنقه ازاء الضعف الظاهرى الذى يبدو على الطفل وحاجته الواضحة الى من يرعاه ، ويصور له خياله حقيقة ما يمكن أن يصبح عليه هذا الطفل ، للخير أو للشر ، وكيف يستطيع أن ينمى نزعاته أو يقف فى سبيلها ، وكيف يحطم آماله ويطفىء فيه جذوة الحياة ، وكيف يشوه هذه الأمانة التى فى عنقه فتحل فيها الرغبات الجامحة مكان العزم والروية · فيجعله كل هذا تواقا الى أن يمد يد المساعدة الى الطفل ويعاونه على النجاح فى معركته ، ويزوده بأسلحة تشد من أزره فى كفاحه لبلوغ الغايات التى تنشدها روحه فى دياجير الحياة ، لا أن يعمل على اعداده لتحقيق أهداف تفرضها الدولة أو أى سلطة أخرى غريبة عن الطفل نفسه· ان الرجل الذى يملأ نفسه مثل هذا الاحترام هو الذى يستطيع أن يستعمل سلطة المربى دون أن يجور على مبدأ الحرية ·

ان اشراف الدولة والكنيسة والمؤسسات الكبرى التابعة لهما على التعليم أمر لا يتفق وروح الاحترام · ان أوضاع التربية الحالية لا يهمها الولد أو البنت فى ذاتهما ، أو الشاب أو الفتاة ، ولكنها تعمل بصفة تكاد تكون دائمة على صيانة الأوضاع القائمة · وهى عندما تدخل فى اعتبارها الطفل نفسه فانما تعمل فقط على اعداده للنجاح الدنيوى ــ لجمع المال أو نيل المنصب الصالح ، وتجعل مثله الأعلى أن يصبح شخصا عاديا خبيرا بطرق النجاح المادى ، ما عدا قلة نادرة من المعلمين الذين توفر لديهم من قوة الايمان ما يدفعهم الى التغلب على قيود النظم الموضوعة المطلوب منهم اتباعها · ويكاد الدافع الى التربية كله يكون سياسيا ، فهو يهدف الى دعم جماعة ما ، سياسية أو دينية أو حتى اجتماعية فى ميدان منافستها جماعات أخرى · وهذا الدافع هو العنصر الأساسى فى تحديد المواد التى تدرس والمعلومات التى تعطى للتلاميذ أو التى تمنع عنهم ، وهو أيضا الذى يحدد العادات العقلية التى ينتظر منهم اكتسابها · ولا تكاد النظم التعليمية تتضمن شيئا يزيد نمو العقل والروح فى ذاتهما نموا حقيقيا ، فنرى أن من ظفروا بالقدر الأكبر من التعليم قد ضمرت الناحية العقلية والروحية فى حياتهم فخبت نزعاتهم وباتوا ولا شىء لديهم سوى بعض استعدادات آلية حلت لديهم محل التفكير الحى ·

ان بعض الأهداف التى تحققها التربية الآن يجب أن يترك للتربية تحقيقها فى أى بلد متمدن · فكل الأطفال يجب أن يستمروا فى تعلم القراءة والكتابة ، وبعضهم يجب أن يستمروا فى تحصيل المعرفة الضرورية لبعض المهن مثل الطب والقانون والهندسة · كما أن التعليم العالى فى العلوم والآداب يجب أن يعطى لمن يليقون له · أما المواد الاخرى ، عدا التاريخ والدين وما يشابههما ، فانها لا تحدث ضررا ايجابيا ، وان كانت طرق تدريسها غير وافية بالغرض · ويمكن أن يكون التعليم فيهـا على أسس تقدمية أكثر فى جوهرها مع بذل محاولة أكبر لايضاح فوائدها الأساسية ، كما أنه لا شك فى أن الكثير منها قديم ميت · ولكنها على وجه العموم ضرورية ولابد أن يشملها أى نظام تربوى ·

أما التاريخ والدين والمواد الأخرى القابلة لاثارة الجدل فان طريقة تدريسها الحالية لا شك تحدث ضررا ايجابيا بليغا · فهى متصلة بالمصالح التى يحتفظ بالمدارس من أجلها ، وهذه المصالح تستخدم المدرسة لنشر وجهات نظر معينة فى هذه المواد · فالتاريخ فى كل دولة يدرس بحيث يمجد هذه الدولة ، فيتعلم الأطفال أن بلدهم كان دائما على حق ، ويكاد يكون دائما منتصرا ، وأن معظم أعلام الرجال من أبنائه ، وأنه أفضل من كل الدول الأخرى من جميع الوجوه · ولما كانت هذه المعتقدات تبعث على الزهو فلذلك يسهل التشبع بها ، ويعز على المعرفة التى تجىء بعد ذلك انتزاعها من الغريزة ·

ولنأخذ مثلا بسيطا يكاد يكون تافها : ان وقائع معركة ووترلو معروفة بتفصيل ودقة كاملين ، ولكن هـذه الوقائع كما تدرس فى المدارس الابتدائية تختلف فى انجلترا عنها فى فرنسا أو المانيا اختلافا كبيرا · فالطفل الانجليزى العادى يتصور أن الدور الذى لعبه البروسيون فى هذه الموقعة تافه يكاد لا يذكر ، ويتصور الطفل الألمانى أن ولنجتون كان قد هزم فعلا لولا شجاعة بلوخر التى كسبت المعركة · ولو ان هذه الوقائع درست بدقة فى البلدين ، لما بلغت الكبرياء الوطنية نفس الحد ، ولما أصبح كل من الشعبين واثقا من النصر فى حالة الحرب ، ولتضاءلت الرغبة فى

القتال • ولكن هذه النتيجة هى التى تعمل الدولة على تجنبها • وكل دولة تسعى الى بث روح الكبرياء الوطنية ، وتعلم أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك الا اذا حرفت التاريخ • وهكذا يتعلم الأطفال الذين لا حـول لهم عن طريق التحريف وتشويه الوقائع والايحاء •

وهذه الآراء الزائفة فيما يتعلق بتاريخ العالم ، والتى تدرس فى مختلف الدول ، هى من نوع يهـــدف الى الحث على النزاع واشـــعال جذوة الوطنية المتعصبة • فاذا أريد تدعيم العلاقات الطيبة بين الدول ، فان احدى الخطوات الأولى التى يجب أن تتخذ هى وضع جميـــع أنواع تعليم التـاريخ تحت اشراف لجنة دولية تضع كتبا مدرسية محايدة خالية من التحيز الذى تمليه الوطنية ، الذى تعمل كل دول العالم(١) على استثارته فى الوقت الحاضر •

وهذا نفسه ينطبق على الدين تمام الانطباق • فالمدارس الابتدائية تكاد تكون دائما تحت سيطرة جماعة دينية أو تحت سيطرة الدولة التى لهـــا اتجاه معين فيما يتعلق بالدين • وتقوم الجماعات الدينية على اشتراك جميع أعضائها فى الايمان بمعتقدات معينة محددة فى مسائل لا يمكن التثبت من صحتها • والمدارس التى تشرف عليها جماعات دينية تمنع الناشئين ، وهم غالبا ما يكونون متطلعين بطبيعتهم ، من اكتشاف أن هذه المعتقدات المحددة تعارضها معتقدات أخرى ليست أكثر منها صعوبة فى الاثبات ، وأن كثيرا من الرجال الذين تؤهلهم كفاياتهم للحكم فى هذا الشأن يعتقدون أنه لا يقوم

---

(١) قد أنحدرنا أخيرا الى ما هو أسوأ من تشويه عقول الأطفال • فهناك اتجاه الى تهيئـــة الأطفال بحيث يصبحون أداة طيعة بريئة لنشر الحقد والقسوة اللذين يغرسان فى نفوس الأطفال عن طريق العطف الأبوى • أما كيف يتم ذلك فيرجع الى مجلة « عالم المدرس » العدد الصادر فى ٥ سبتمبر سنة ١٩١٧ • ففى يوم معين يطلب الى كل فتى وفتاة فى المدارس أن يكتب أو تكتب خطابا الى صديق فى جبهة القتال « ويجب أن تعطى الخطابات قارئيها تحيـــة حارة مكينة • وألا تقتصر على قول « كيف حالك » بل « أنكم تنتصرون » ، « نحن فخورون بكم » • وسنعاونكم فى بلوغ النصر النهائى • والجميع يؤدون واجبهم ، هكذا » ويجب أن تكون الخطابات طبيعية قبـــل كل شىء •• فيكتب كبار الأطفال خطاباتهم كلها بأنفسهم ، وتقدم يد المساعدة فى أضيق حدود ممكنة الى الأطفال الأصغر سنا ، أما الصغار جدا فيمكن أن يقتصروا على ارسال عبارة مشجعة أو عبارتين تنقلان مما يكتبه المدرس على السبورة

دليل قاطع على أفضلية أى معتقد بعينه • وعندما تكون الدولة لا دينية متطرفة ، كما هو الحال فى فرنسا ، فان المدارس التابعة للدولة تصبح شديدة التعصب ، كالمدارس التى تسيطر عليها الكنائس (وقد بلغنى أن كلمة « الله » محرم استعمالها فى المدارس الابتدائية الفرنسية) • والنتيجة فى كل هذه الحالات واحدة : أن يقمع البحث الحر ، ويجد الطفل نفسه ازاء عقيدة جامدة أو صمت كصمت القبور ازاء أهم مسألة فى الوجود •

ولا يقتصر حدوث هذه المآسى على التعليم الابتدائى وحده ، فان نفس الشىء يحدث فى المراحل التالية بصورة أدق ، ويبذل مجهود أكبر لاخفائها ، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال موجودة • فنجد أن أكسفورد وأيتون مثلا تطبعان خريجيهما بطابع معين ، كما تفعل مدارس الجزويت تماما • وقد يصعب القول بأن أكسفورد وأيتون تقصدان هذه النتيجة قصدا ، ولكن لا يقلل من قوة الأثر الذى يحدثوخطره أن القصد فيه غير صريح،فالغالبية الساحقة من خريجيهما يعبدون ما يسمونه « القالب الفاضل » ، وأثره المدمر فى حياة الشخص وفكره لا يقل عما كانت تتركه كنيسة العصور الوسطى من أثر • فان « القالب الفاضل » لا يخرج فى معناه عن أنه حرية زائفة فى الفكر ، واستعداد ظاهرى لسماع وجهات النظر المختلفة ، واصطناع نوع خاص من التأدب فى معاملة الخصوم • ولكنه لا ينطبق على معنى حرية الفكر الحقيقية أو الاستعداد الأصيل لأن نزن ، متجردين ، حجج الطرف الآخر • فهو فى جوهره افتراض بأن ما يهم فى الموضوع هو نوع معين من السلوك يقلل الاحتكاك بين من هم فى مستوى واحد ، ويوهم فى رقة من هم أدنى مستوى أنهم غلاظ غير مهذبين • وهذه الطريقة لا تبارى كسلاح سياسى يرمى الى الاحتفاظ بامتيازات الأغنياء فى ظل ديمقراطية شديدة الاعتبار لمظاهر الثروة والجاه ، كما أنها وسيلة لا بأس بها لخلق وسط اجتماعى مناسب يرتع فيه من لديهم المال وليس لديهم ايمان قوى أو رغبات غير عادية • ولكن فيما عدا ذلك فهى طريقة كريهة ممقوتة •

ان مساوىء « القالب الفاضل » لها مصدران : ثقة صاحبه الكاملة بأنه دائما على حق ، والاعتقاد بأن السلوك المهذب مرغوب فيه أكثر من الرغبة فى

التفكير أو الفن الخالق ، أو القوة الحيوية الدافعة ، أو غير ذلك من أسباب التقدم فى الدنيا • والثقة الكاملة وحدها تكفى لمحو كل تقدم عقلى فيمن تتوفر لديهم هذه الصفة التى تصبح مصدرا لتدمير كل من يتصل بها اذا صاحبها احتقار التردد والارتباك اللذين غالبا ما يلازمان القوة العقلية الضخمة • و « القالب الفاضل » نفسه ميت غير قابل للنمو ، وهو بموقفه تجاه غير الحاصلين عليه ينشر ما فيه من موت فيمن كان نصيبهم الحياة لولا هذا الموقف •

ان الضرر الذى يحدثه فى الطبقة الميسورة من الانجليز ، وفى الرجال ن ذوى الكفايات الذين ترعاهم هذه الطبقة ، ضرر بليغ ، لا يمكن تقديره •

ولا يمكن أن تكون حرية البحث مكفولة ما دام الهدف من التعليم هو خلق أجيال من « المؤمنين » لا من المفكرين ، وارغام الصغار على اعتناق آراء محددة فى مسائل يحوطها الشك ، بدلا من مساعدتهم على رؤية الشك وتشجيعهم على التفكير الحر • **ان التعليم يجب أن يغذى الرغبة فى الوصول الى الحقيقة ، لا الايمان بأن عقيدة معينة هى الحقيقة** • ولكن العقائد هى التى تلم شعث الرجال وتكون منهم منظمات مقاتلة كالكنيسة والدولة والاحزاب السياسية ، وشدة الايمان بالعقيدة هى التى تؤدى الى التفوق فى القتال ، اذ يحالف النصر أولئك الذين لا يخالجهم الشك مطلقا فى المسائل التى لا يقود التفكير العقلى السليم فيها الا الى الشك • فلكى تصل هذه المنظمات الى هذه الشدة فى الايمان وذلك التفوق فى القتال فانها تقيم سياجا حول الطفل وتشل حرية تفكيره بأن تغرس فى نفسه عقبات تقف فى سبيل نمو الآراء الجديدة • وتكون النتيجة أن متوسطى الذكاء ينشأون وهم يقدسون تلك المعتقدات المبتسرة المتحيزة ولا يرضون عنها بديلا ، أما القلائل الذين يصعب قتل ملكة التفكير لديهم تماما ، فيصبحون ساخرين مستهزئين بكل شىء ، يائسين فكريا ، نزاعين الى الانتقاد الهدام ، قادرين على جعل كل شىء يبدو سخيفا ، عاجزين عن أن يقدموا نزعات خالقة بدلا من تلك النزعات التى يقضون عليها فى الآخرين •

ان النصر فى القتال الذى يجىء عن طريق كبت حرية التفكير لهو نصر قصير تافه جدا • فان سلامة العقل لازمة للنجاح على مدى الأيام كما هى لازمة للحياة الفاضلة • وتصور التربية على أنها نوع من التدريب ووسيلة لتخريج أشخاص اتحدت آراؤهم عن طريق الاستعباد ، تصور عادى شائع جدا ، ويدافع عنه أنصاره بحجة أنه يقود الى النصر • وسيذكر المغرمون بضرب الأمثال من التاريخ القديم انتصار أسبرطة على أثينا ليدعموا به رأيهم • ولكن أثينا هى التى ملكت على الرجال ألبابهم وأخيلتهم لا أسبرطة ، ولو سئل أى منا اذا كان ممكنا أن نولد مرة أخرى فى عصر قديم لفضل أن يولد أثينيا لا أسبرطيا • وتتطلب الحياة العملية فى العالم الحديث قدرا كبيرا من الفكر ، حتى أن هذا النصر الظاهرى نفسه غالبا ما يكون من نصيب الذكاء لا سهولة الانقياد • **ان التعليم الذى أساسه وجوب تصديق كل ما يدرس سرعان ما يقود المرء فى خطوات سريعة الى فساد القوى الذهنية ، ولا يمكن المحافظة على الحد الأدنى الضرورى من التقدم البشرى الا بالإبقاء على روح البحث الحر •**

ان المشتغلين بالتدريس يعملون عادة على غرس عادات ذهنية معينة كالطاعة والنظام ، والسعى بلا رحمة أو وازع فى سبيل النجاح الدنيوى ، وازدراء الخصوم ، وتصديق ما يلقيه المدرس تصديقا أعمى ، والتسليم السلبى لحكمته • وكل هذه العادات ضد الحياة • وواجبنا هو أن نحافظ على استقلال الطفل ونزعاته بدلا من أن نلزمه الطاعة والنظام ، وواجب المعلمين أن ينأوا عن القسوة ، وأن ينموا فى الطفل بدلا منها استقامة فى التفكير ، وأن يغرسوا فى نفسه احترام وجهة النظر الأخرى ، ومحاولة تفهمها بدلا من ازدرائها • أما تجاه آراء الآخرين فيجب أن يكون هدف التعليم هو تنمية عادة المعارضة المصحوبة بفهم تصورى ووعى كامل للأسس التى تقوم عليها المعارضة ، لا التسليم بكل ما يقال ، كما يجب أن يهدف الى اثارة الشك الانشائى وحب المخاطرة الذهنية والاحساس بوجود عوالم تنتظر من يكتشفها بالاقدام والجرأة فى التفكير ، بدلا من التصديق الأعمى • ان السببين المباشرين لكل ما تقدم من مساوىء هما الرضا عن

الحالة القائمة ، واخضاع التلميذ للأغراض السياسية ، وهما يرجعان بدورهما الى عدم المبالاة بالامكانيات العقلية • ولكن هناك سبب جوهرى آخر وراء هذين السببين وهو أن التعليم يعتبر أداة للتحكم فى التلميذ لا وسيلة لتغذية نموه الشخصى • وهنا بالذات يظهر عدم وجود « الاحترام »، وليس هناك من وسيلة لاحداث اصلاح أساسى الا بالمزيد من « الاحترام » •

والمفروض أن الطاعة والنظام أمران لابد منهما لحفظ النظام فى الفصل حتى يمكن التدريس • وهذا صحيح الى حد ما ، ولكن هذا الحد أقل بكثير مما يظن الذين يعتقدون أن الطاعة والنظام مرغوبان لذاتهما • فالطاعة ، وهى أخضاع ارادة الفرد للتوجيه الخارجى ، تقابل السلطة ، وكلاهما ضرورى فى بعض الحالات • فان أطفال الاصلاحيات والمجانين والمجرمين قد يتحتم استعمال السلطة معهم ، وقد يكون من الضرورى ارغامهم على الطاعة • ولكن حتى فى هذه الحالات فان الأمر مؤسف :

اذ يجب أن يكون هدف التربية هو حرية الاختيار بدون تدخل خارجى ، وقد بين لنا المصلحون التربويون الى أى حد يمكن تحقيق هذا الهدف بصورة ما كان آباؤنا ليصدقوها (١) •

ان الفصول الكبيرة والمدرسين المرهقين ، وهما من آثار الاقتصاد غير السليم ، هما السبب الذى يجعل الطاعة تبدو ضرورية فى المدارس ، فأولئك الذين لم يجربوا التدريس لا يستطيعون تصور مدى ما يتطلبه أى تعليم حر من ارهاق • فهم يعتقدون أن المدرس يستطيع أن يعمل عددا من الساعات كأنه كاتب فى مصرف ، وتكون النتيجة أن يصاب المدرس بالاعياء الشديد والانفعال العصبى ، ويصبح ولا حيلة لديه الا أن يؤدى عمله اليومى بطريقة آلية • ولكن التدريس لا يمكن أن يكون عملا آليا الا اذا فرضنا الطاعة على التلاميذ •

ولو أننا أهتممنا بالتربية اهتماما جديا ، وآمنا بأن المحافظة على

---

(١) ان ما فعلته مدام منتسورى للاقلال من فرض الطاعة والنظام فى الفصل وما نتج عن ذلك من فائدة للتعليم يكاد يكون من المعجزات •

حيوية عقول الأطفال لها من الأهمية ما للانتصار فى الحرب ، لاتبعنا سبيلا آخر فى التربية مختلفا تماما : ولجعلنا كل همنا منصبا على تحقيق هذا الهدف دون أن نعبأ بالنفقات ، ولو بلغت أضعاف ما هى عليه الآن . ان القيام بقدر صغير من التدريس مهمة محببة لكثير من الرجال والنساء ، ويمكن أن يقوموا به بحماسة وبطريقة مستساغة تجلب انتباه التلاميذ دون حاجة الى فرض النظام . والقلائل منهم ممن لا يبدون اهتماما يمكن فصلهم عن الباقين ، ثم تتبع معهم طرق أخرى فى التدريس . وينبغى ألا تزيد ساعات التدريس عما يستطيع المدرس أن يقوم به كل يوم ، بحيث يجد فى عمله لذة حقيقية ، وبحيث لا يغيب عن باله حاجات التلميذ العقلية . وتكون نتيجة هذا أن تنشأ بين المدرس والتلميذ علاقة طيبة بدلامن روح العداء ، ويدرك معظم التلاميذ أن التعليم انما جعل ليساعدهم على تنمية حياتهم ، وليس تحكما يفرض عليهم ويقطع لعبهم ويجبرهم على الجلوس ساكتين ساعات طوالا . وكل ما يلزم للوصول الى هذه النتيجة هو زيادة فى الانفاق ، للحصول على مدرسين يتوفر لديهم وقت فراغ أوسع وميل طبيعى لمهنة التدريس .

فالنظام كما هو موجود حاليا فى المدارس ، شر الى حد كبير . وهناك نوع من النظام لازم لاتمام أى عمل ، وأرجح أن هذا النوع من النظام لا يقدره حق قدره أولئك الذين يقاومون النظام البحت الذى تمليه سلطة خارجية ، وهو النظام الذى تسير عليه الطرق التقليدية .

أن النوع المرغوب من النظام هو ما ينبعث من الداخل والقائم على قدرة الشخص على السير قدما لتحقيق هدف متحملا فى سبيل ذلك الحرمان وأنواع المشقة . وهذا يتضمن اخضاع النزعات القليلة الأهمية للارادة ، والقدرة على القيام بنشاط توجهه النزعات الانشائية الكبرى حتى فى اللحظات التى تكون فيها هذه النزعات غير كاملة النشاط . وبدون ذلك لا يتحقق مطمح كبير – سواء كان خيرا أو شرا – ولا تقوم قائمة لهدف موحد مستمر . ان هذا النوع من النظام ضرورى جدا ، ولكنه لا ينشأ الا عن رغبات قوية فى غايات لا تحقق فى التو واللحظة ، كما أنه لا ينتج الا

عن تربية تعمل على تغذية هذا النوع من الرغبات ، ولكن التربية الحالية نادرا ما تؤدى الى ذلك • انه نظام ينبثق من ارادة الشخص نفسه ، لا من سلطة خارجية • وهذا النوع من النظام ليس هو ما تعمل المدارس حاليا على تحقيقه ، كما أنه ليس هو النوع الذى يبدو لى شرا مستطيرا •

وعلى الرغم من أن التعليم الابتدائى يعمل على تشجيع النظام غير المرغوب فيه ، والذى يتطلب الطاعة السلبية ، وعلى الرغم من أنه لا يكاد يوجد فى الوقت الحاضر أى نوع من التعليم يغذى التدريب الأخلاقى الذى يتضمن المثابرة على توجيه النفس ، فان فى التعليم العالى التقليدى نوعا معينا من التدريب العقلى البحت • والنوع الذى أقصده هو الذى يمكن الشخص من تركيز فكره ، كلما أراد ، فى موضوع تتاح له فرصة بحثه بغض النظر عن المشغوليات والسأم والمجهود الفكرى الذى يتطلبه • وعلى الرغم من أن هذه الصفة ليست ذات قيمة هامة فى ذاتها الا أنها تزيد من كفاية العقل كأداة • وهى التى تجعل فى قدرة المحامى أن يستوعب التفاصيل العلمية فى قضية تدور حول مسألة علمية كحق اختراع مثلا ، ثم لا يلبث أن ينسى هذه التفاصيل بمجرد صدور الحكم فيها • وهذه الصفة نفسها هى التى تجعل الموظف الحكومى قادرا على التصرف السريع فى عدة مسائل ادارية مختلفة على التوالى • كما أنها تمكن الناس من تناسى مشاغلهم الخاصة فى أوقات العمل • وهى ملكة جد لازمة لأولئك الذين يتطلب عملهم تركيزا فكريا فى هذا العالم المعقد •

أن الميزة الأساسية للتعليم العالى التقليدى هى نجاحه فى تكوين هذا النوع من التدريب العقلى • وأنا أشك فى امكان تحقيق ذلك بوسيلة أخرى غير تركيز الاهتمام ، بالاقناع أو الارغام ، فى مهمة تفرض فرضا • وهذا هو السبب الأول فى أنى لا أومن بأن طرق التربية ـ مثل طريقة مدام منتسورى ـ يفيد تطبيقها بعد سن الطفولة •

وطريقة مدام منتسورى تتلخص فى أنهـــا تعطى الأطفال الحــرية فى اختيار ما يعلمونه من بين عدة أشياء مشوقة بالنسبة لمعظم الصغار ، وكلها

أشياء مفيدة من الناحية التعليمية • فيصبح أنتباه الأطفال كله تلقائيا كما هو الحال فى اللعب ، فهم يستمتعون خلال اكتسابهم المعرفة بهذه الوسيلة، ولا يتعلمون الا ما يرغبون فيه • وأنا مقتنع بأن هذه هى خير طرق التربية للأطفال الصغار : فالنتائج الواقعية تجعل من المستحيل علينا أن نصدق شيئا آخر • ولكن يصعب أن نتصور كيف يمكن أن تؤدى هذه الطريقة الى السيطرة على الانتباه بواسطة الارادة • فهناك أشياء غير ممتعة يجب التفكير فيها ، وحتى الممتع غالبا ما يصبح مصدر ارهاق وسأم قبل أن ينتهى التفكير الواجب فيه • ولذا كانت القدرة على تركيز الانتباه لفترة طويلة أمرا مهما ، وهى قدرة لا يسهل اكتسابها أصلا على نطاق واسع الا عن طريق الضغط الخارجى • وحقيقة يوجد بعض الصغار ، ممن لديهم رغبات ذهنية قوية ، على استعداد لأن يتحملوا كل ما هو ضرورى فى هذا السبيل بمحض ارادتهم وبدافع من أنفسهم ، ولكن الأمر يتطلب بالنسبة لجميع الأطفال الآخرين مؤثرا خارجيا حتى يتعلموا أى مادة تعليما كاملا • ويحس المصلحون التربويون بنوع من الخوف حين يطلبون الى الأطفال أن يبذلوا مجهودا كبيرا ، ومن ناحية أخرى هناك رغبة كامنة فى نفوس الناس قاطبة هى كراهية السأم • وفى كلا هذين الاتجاهين ناحية خير ، ولكن لهما أيضا أخطارهما • ان التدريب العقلى ـ المهدد ـ يمكن توفيره بمجرد اسداء النصح دون ضغط خارجى اذا استطعنا أن نثير فى الطفل اهتماما ذهنيا وطموحا بقدر كاف • وينبغى أن يكون المدرس الصالح قادرا على اثارة هذه العوامل فى الأطفال الأذكياء ، أما الأطفال الآخرون فان عددا كبيرا منهم غالبا ما تكون الطريقة الحالية فى التعليم الذى يعتمد على الكبت ليست هى الطريقة المثلى بالنسبة لهم • وهكذا ، طالما كانت أهمية التدريب العقلى موضع الاعتبار ، فانه يمكن تحقيقه غالبا ـ فى الحالات التى يكون تحقيقه ممكنا ـ بالالتجاء الى ادراك التلميذ الواعى لحاجاته • وطالما كان غير منتظر من المدرسين أن ينجحوا بهذه الطريقة ، فانه سهل أن ينحدروا نحو البلادة والكسل ثم يلقون التبعة على تلاميذهم بينما الخطأ فى الواقع خطأهم •

أن القسوة السائدة فى الكفاح الاقتصادى سيتعلمهـا الأطفال فى المدارس دون شك طالما بقى النظام الاقتصادى قائمـا دون تغير . وتبدو هذه الحالة بوضوح فى مدارس الطبقة المتوسطة التى تعتمد على حسن ظن الآباء بها لتزيد من عدد تلاميذها ، وهى تضمن حسن ظن الآباء عن طريق الاعلان عن نجاح تلاميذها . وهذه احدى الحالات الكثيرة التى يظهر فيها ضرر فكرة التنافس التى يقوم عليها نظام الدولة . ان التلقائية المجردة فى المعرفة ليست غريبة تماما على الصغار ، ويمكن اثارتها عند الكثيرين ممن تظل هذه النزعة كامنة فيهم ، لكن المدرسين يقضون عليها دون تأنيب من ضميرهم ـ فهم لا يفكرون الا فى الامتحانات والشهادات والدرجات . فليس أمام التلميذ الممتاز ، منذ اللحظة التى يدخل فيهـا المدرسة حتى اللحظة التى يتخرج فيها من الجامعة ، وقت يقضيه فى التفكير أو الاستمتاع العقلى . فهو يقضى كل وقتـه من أول الأمر الى آخره فى كد وعناء بين الكتب المقررة يستعد للامتحانات . فينتهى الأمر بأكثر التلاميذ ذكاء الى النفور من الدراسة ، ويصبحون لا يتطلعون الا الى نسيان هذه الدراسة والخروج الى حياة العمل ، حيث لا تلبث الآلة الاقتصادية أن تفعل فيهم ما فعلته من قبل ، فتنشب فيهم مخالبها وتكبت جميع رغباتهم التلقائية وتحطمها .

ان نظام الامتحانات واعتبار التعـليم أولا وقبل كل شىء تدريبا للحصول على لقمة العيش ، يؤديان بالصغار الى النظر الى المعرفة من الناحية النفعية الخالصة بأعتبارها الطريق لجمع المال لا السبيل الى الحكمة . ولو أن هذا الاثر أقتصر على من ليس لهم اهتمامات فكرية صادقة لما كان للأمر هذه الأهمية الكبرى . ولكن أكثر من يتأثرون بوطأة ما تفرضه الامتحانات، هم لسوء الحظ ، أقوى التلاميذ عناية بالمسائل الفكرية . فالتعليم يبدو بالنسبة لهم خصوصا ، وبالنسبة للتلاميذ جميعا بقدر ما ، وسيلة للحصول على التفوق على الآخرين ، اذ أن التعليم متشبع تماما بالقسـوة وتمجيد عدم المساواة .

وأى تفكير حر منزه عن الغرض يرينا أنه ، حتى لو كان بعض أنواع

عدم المساواة أمرا مستساغا فى يوتوبيا (المدينة الفاضلة الخيالية) ، فان عدم المساواة الموجود فعلا يكاد يكون كله مخالفا للعدالة ٠ ولكن نظم التعليم عندنا تحاول اخفاء هذه الحقيقة عن الجميع باستثناء الفاشلين ، طالما كان الناجحون في سبيلهم الى الافادة من عدم المساواة ، مؤيدين بتشجيع الرجال الذين أشرفوا على تعليمهم ٠

ان القبول السلبى لحكمة المدرس أمر يسهل على معظم التلاميذ ٠ فهو لا يتطلب مجهود التفكير المستقل ، ويبدو معقولا لأن المدرس أكثر معرفة من تلاميذه ، ثم هو بجانب ذلك وسيلة لاكتساب رضاء المدرس ، اللهم الا اذا كان المدرس من طراز فوق الطراز العادى ٠ ومع ذلك فان عادة القبول السلبى كارثة فى الحياة بعد المدرسة ٠ اذ تجعل الناس ينشدون زعيما ، ويقبلون أى زعيم يوضع فى هذا المركز ٠ وهذه العادة نفسها هى السر فى قوة الكنائس ، والحكومات ، والأحزاب ، وجميع المؤسسات الأخرى التى تضلل الناس فتحملهم على تأييد النظم القديمة التى تضر الأمة وتضرهم ٠ ومن الجائز أنه لن يكون هناك الكثير من التفكير المستقل حتى لو بذل التعليم كل شيء لتحقيق هذا الهدف ، ولكن مما لا شك فيه أنه سيكون هناك قدر أكبر مما هو موجود حاليا ٠ فلو أن الهدف كان حمل التلاميذ على التفكير بدلا من حملهم على قبول آراء معينة ، لاختلفت طريقة التعليم تماما : كان التدريس يصبح أبطأ وتزيد المناقشة ، كما تزيد الفرص التى يشجع فيها التلاميذ على التعبير عن أنفسهم ، وكان مجهود أكبر يبذل لجعل التعليم متفقا أكثر مع ميول التلاميذ ٠

وأهم من ذلك كله ، كان التعليم يهدف الى اثارة حب المخاطرة الذهنية فى التلاميذ ٠ ان العالم الذى نعيش فيه متنوع غريب : فبعض الأشياء التى تبدو بسيطة تصبح معقدة أكثر فأكثر كلما أمعنا فيها التفكير ، وأشياء أخرى كنا نظن أن كشفها مستحيل ، كشفت غوامضها بالمثابرة والعبقرية ٠ ان القوى العقلية وما تسيطر عليه من آفاق شاسعة ، والآفاق الأكثر اتساعا التي لا نكاد ندركها الا لماما بخيالنا ، تمنح أولئك الذين جنحوا بعقولهم عن دائرة الروتين اليومى مادة عجيبة فى

غناها ، وتهيىء لهم مهربا من تفاهة الروتين العادى وما يسببه من ملالة ، فتمتلىء حياتهم كلها بالمثيرآت وتتحطم جدران السجن الذى يعيشون فيه بحكم العادة والعرف ، ان حب المخاطرة هذا نفسه الذى يحمل الرجال على غزو القطب الجنوبى ، وهذه الشهوة التى تدفع الرجال الى تجربة قوتهم فيرحب بعضهم بالحرب ، تستطيع أن تجد فى التفكير الانشائى متنفسا لا يؤدى الى ضياع القوى أو الى القسوة · ولكنه يرفع من قدر البشر ، بأن يضفى على الحياة بعض ذلك السناء المضىء الذى تستخلصه الروح البشرية من المجهول · ان أسمى الغايات التى من أجلها تقدر تربية العقول ، هى أن تمنح هذه المتعة ـ بدرجات متفاوتة ـ للقادرين عليها ·

وسيقال ان متعة المخاطرة الذهنية نادرة ، وان الذين يقدرونهـا قلة ، وأن التعليم العادى لا يستطيع أن يدخل فى اعتباره مثل هذا الخير الأرستقراطى · أما أنا فلا أصدق ذلك · اذ أن متعة المخاطرة العقلية أكثر شيوعا بين الصغار منها بين الكبار رجالا ونساء · فهى شائعة جدا بين الأطفال ، وتنمو لديهم بصورة طبيعية فى فترة « اللعب التصورى » (١) وهى نادرة فى المراحل المتأخرة من حياتهم اذ يبذل مجهود ضخم لقلتها خلال فترة التعليم · ان الناس يخشون التفكير أكثر مما يخشون أى شىء آخر فى هذه الدنيا ، أكثر من الخراب ، بل أكثر من الموت · ان الفكر هدام ثورى ، مخرب ورهيب ، انه لا يرحم الامتيازات ولا الأنظمة القائمة أو العادات المريحة ، ان التفكير فوضوى خارج على القانون لا تهمه السلطة ، وهو لا يعبأ بحكمة الأجيال التى صقلتها التجارب · ان الفكر لا يهاب جهنم الحمراء · أنه يرى الانسان ذرة ضعيفة ، يحوطها صمت عميق لا حد لعمقه ، ولكنه على الرغم من ذلك شامخ الأنف فخور ، لا يعبأ بهذا كله كأنما هو سيد هذا الكون · **ان الفكر عظيم وسريع وحر ، أنه نور يضىء الدنيا ، وهو الدعامة الأولى فى مجد الانسان ·**

---

(١) Make-believe

ولكن اذا كنا نريد أن يكون الفكر ملكا للكثرة ، لا امتيازا للقلة ، فينبغي علينا أن نقضي على الخوف • ان الخوف هو الذى يعوق تقدم الناس ـ الخوف من أن يثبت أن معتقداتهم الأثيرة ليست سوى سراب ، الخوف من أن يثبت أنهم هم أنفسهم لا يستأهلون الاحترام الذى يعتقدونه حقا لهم ، اذا فكر العامل بحرية فى الملكية ؟ فماذا يحدث لنا نحن الأغنياء ؟ واذا فكر الشبان والشابات بحرية فى الجنس ؟ فماذا تؤول اليه الأخلاق؟ واذا فكر الجنود بحرية فى الحرب ؟ فماذا يكون أمر الحرب ؟

فلنقض على الفكرة ، ولنتفيأ ظل التحيز حتى لا تصبح الملكية والأخلاق والحرب فى خطر • وخير لنا أن يكون الناس أغبياء وكسالى وظالمين من أن يكون تفكيرهم حرا • لأن تفكيرهم لو تحرر لما فكروا مثلنا • وهذه الطامه يجب أن نتجنبها أيا كان الثمن • هذا ما يردده أعداء الفكر فى أعماق اللاشعور • وهذا ما يفعلونه فى كنائسهم وفى مدارسهم وجامعاتهم •

ولا يستطيع النظام القائم على الخوف أن يدعم الحياة • ان الأمل ، لا الخوف ، هو أساس الانشاء فى الشئون الانسانية • والأشياء التى بنت عظمة الانسان قد أنبثقت من محاولة الحصول على الخير ، لا من الكفاح ضد ماظن الناس أنه شر • والسبب فى أن التربية الحديثة لا تحقق نتائج عظيمة الا نادرا ، هو أنها لا تستوحى آمالا عظاما الا فيما ندر •

ان الرغبة السائدة لدى المشرفين على تعليم الصغار ، هى المحافظة على تراث الماضى ، لا الأمل فى خلق المستقبل • ان التعليم لا ينبغى أن يستهدف معرفة لحقائق ميتة ، ولكن نشاطا موجها نحو العالم الذى نبذل جهدنا لانشائه • انه يجب أن يستلهم وحيه من صورة وضاءة لمجتمع المستقبل ومن الانتصارات التى سيحققها الفكر فى الغد ، من أفق لا ينى يتسع لسيطرة الانسان على الكون ، لا من أسف على ما كان لدى اليونان وفى عصر النهضة من جمال أنقضى وباد •

ان أولئك الذين تسود تعليمهم هذه الروح ، سوف يمتلئون حياة

وأملا وسعادة ، ويحملون فى يسر نصيبهم فى جعـــل مستقبل الجنس البشرى أقل ظلاما من ماضيه ، وكلهم ايمان بالمجد الذى تستطيع جهـود البشر أن تحققه ٠

٦

الزواج ومشكلة السكان

لقد تضاءل أثر الديانة المسيحية فى حياة الأوربيين تضاؤلا سريعا فى السنين المائة الأخيرة ، فلم تنخفض نسبة الذين كانوا يؤمنون بها بالاسم فحسب ، بل تضاءلت حدة الايمان والتشبث بالعقيدة فى قلوب المؤمنين أنفسهم الى حد عظيم ، الا أن ثمة نظاما اجتماعيا لا تزال للتقاليد المسيحية آثارها العميقة فيه ، وذاك هو نظام الزواج . فالقانون ، والرأى العام فى موضوع الزواج تسيطر عليهما حتى فى الوقت الحاضر ، والى حد بعيد ، تعاليم الكنيسة التى لا يزال لها أثرها عن هذا الطريق فى حياة الناس ، رجالا ونساء وأطفالا ، بل فى أخص شئونهم الشخصية .

والزواج بوصفه نظاما سياسيا هو ما أريد التحدث عنه ، لا الزواج بوصفه موضوعا للأخلاق الخاصة لكل فرد من الأفراد . فالزواج ينظمه القانون ، وهو معدود من الأمور التى للهيئة الاجتماعية الحق فى التدخل فيها ، وأنا لا يهمنى الا أن أتناول بالبحث ما يعمله المجتمع فى موضوع الزواج ، وبالأحرى اذا كان ما يعمله اليوم يرتقى بحياة الهيئة الاجتماعية ، وان لم يكن يرتقى بها فما هو نوع التغيير الذى يجب أن ندخله على ما يعملون ؟

وثمة سؤالان يجب أن نسألهما ونحن نتحدث عن أى نظام من أنظمة الزواج : أولهما : كيف يؤثر الزواج على تطور أصحاب الشأن فيه من الرجال والنساء ، وعلى أخلاقهم ، والثانى : ما هو تأثيره فى تنشئة الأطفال وتعليمهم ، وهذان السؤالان مختلفان اختلافا كليا ، فقد يرغب الناس بمحض ارادتهم فى نظام ما ، من احدى وجهتى النظر هاتين ، بينما ينفرون نفورا شديدا فى ذلك النظام نفسه من الوجهة الأخرى ، وأرى أولا أن أصف القانون الانجليزى ، والرأى العام ، ومألوف الناس فى الوقت الحاضر فيما يتصل بالعلاقات بين الجنسين ، ثم أتناول بعد ذلك آثار هذه العلاقات على الأطفال ، وأتناول آخر الأمر كيف يمكن تجنب هذه الآثار السيئة بنظام يمكن أن يكون له أيضا أثر أحسن فى أخلاق الرجال والنساء وتطورهم .

فالقانون فى انجلترا قائم على الأمل فى أن الاغلبيـــــة العظمى من الزيجات ستستمر طوال حياة الزوجين ، وأن الزواج لن تنحل عقدته الا اذا ثبت أن الزوجة أو الزوج ٠٠ وليس كلاهما معا ، قد ارتكبا جريمة الزنى ٠ ففى حالة ارتكاب الزوج لهذه الجريمة ، فهو ولابد يكون مرتكبا لجريمة القسوة أو الهجر حتى يمكن الطـــلاق ٠ وحتى اذا تحققت هذه الشروط ، فلا يمكن الطلاق عمليا الا للأغنياء ، لان نفقات الطلاق باهظة جدا (١) ٠ والزواج لا يمكن حله للجنون أو الجريمة ، أو القسوة مهمـا كان شأنها من الشناعة ، أو للهجر ، أو للزنى يرتكبه الطرفان ، وهو لا يمكن فصم عراه لأى سبب مهما كان اذا اتفق الزوج والزوجة على أنهما يريدان فصم عراه ، والقانون فى هذه الأحوال كلها يعتبر الرجل والمرأة مرتبطين ببعضهما البعض طوال حياتهما ٠ وثمـة موظف خاص هو نائب الملك (٢) ، وظيفته منع الطلاق حينما يكون ثمة تواطؤ عليه ، وحينمايكون

---

(١) كان قانون اعفاء الفقراء in forma pauperis يشتمل على نص للقضـــايا التى يعجز فيها الزوج عن دفع نفقات الدعوى ، ولكن هذا النص كان عديم الفائدة تقريبا لأسباب مختلفة ، وقد أدخل حديثا نص جديد أحسن قليلا من النص القديم ، الا أنه لا يزال أبعد من أن يكون نصا مرضيا

(٢) النائب العام

(١) يوضح لنا الخطاب التالى (نقلا عن صحيفة New Statesman فى عددها الصادر فى ٤ ديسمبر سنة ١٩١٥) طبيعة أعمال هذا الموظف :

الطلاق والحرب

الى محرر « النيوستيتسمان »

سيدى : قد يلذ قراءكم أن يطلعوا على القصتين التاليتين ٠ اســـتطاعت امرأة فقيرة بموجب تسهيلات الطلاق الحديثة الممنوحة لفقراء لندن أن تحصل على حكم nisi ـ أى يصبح نهائيا ان لم يطعن فيه لتغييره ـ بالطلاق ضد زوجها الذى طالما كان يضربها ضربا مبرحا يترك آثاره فوق جسدها كله ، والذى أعداها بمرض معد شديد الخطر ، والذى كان مرتكبا لجريمة تعـــدد الزوجات ، وقد أنجب الزوج بهذا الزواج المتعدد عشرة أبناء غير شرعيين ، ولكى يحـــال بين هذا الحكم وبين أن يصبح حكما نهائيا ، أنفق بيت مال الدولة مبلغ مائتى جنيه على الأقل ، من أموال دافعى الضرائب ، وذلك فى استخدام محام ذى مكانة ، ومحام بارز من محامى الأحداث ، وفى احضار حوالى عشرة من الشهود من مدينة على بعد مائة ميل لكى يشهدوا على أن هذه المرأة قد ارتكبت جرائم زنى كلما لاحت لها الفرصة فى سنتى ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ مما يرجح أن يؤدى

الطرفان قد ارتكبا جريمة الزنى ٠

ويتضمن هذا النظام الهام الآراء التى تعتنقها الكنيسة الانجليزية من نحو خمسين سنة مضت ، والتى يعتنقها معظم المنشقين عليها منذ ذلك العهد حتى الآن ، وأساس هذه الآراء افتراض أن الزنى فاحشة ، وأن هذه الفاحشة حينما يرتكبها أحد طرفى الزواج ، فمن حق الطرف الآخر

الى اضطرار هذه المرأة بسبب العهر الى ما هو أشنع من تلك الجرائم ، وأن زوجها سوف يستطيع أن يعامل عشيقته بمثل ما كان يعامل زوجته تماما ، دون أن يناله أى جزاء ، وأن يصيب هذه العشيقة بالمرض الذى أصاب به زوجته من قبل ، ان مثل هذا الزواج كان من الممكن فى كل بلد متمدين تقريبا ـ أن تحل عقدته ، وأن يصبح الأطفال شرعيين بزواج لاحق ، وألا يكسب المحامون الذين استخدمتهم خزانة الدولة هذه الأجور الضخمة التى ابتزوها من جيب المجتمع مقابل عمل يبدو فى نظر معظم المحامين فى البلاد الأخرى عملا معارضا لصالح الهيئة الاجتماعية معارضة كبرى فى جميع آثاره ٠ فاذا كان ثمة محامون يشعرون حقا أن المجتمع ينتفع بهذا اللون من ألوان التقاضى ، فلماذا لا يقدمون خدماتهم بالمجان ، كما فعل محامو الزوجة ، واذا حق لنا أن يكون لنا نظامنا الاقتصادى فى زمن الحرب ، فماذا يمنع نائب الملك من الاكتفاء بأحد محامى الأحداث فحسب ؟ أما الذى تؤكده التجربة فهو أن أشخاصا كثيرين اذا حدث لهم ما حدث لهذين الزوجين يفضلون ألا ينجبوا أبناء غير شرعيين ، ويستتبع ذلك نقصا فى نسبة المواليد

أما الحادثة الأخرى فهى أن طلاقا حصل عليه مستر ا ضد مسز ا ومستر ب ٠ ومستر ب هذا كان متزوجا ، فلما سمعت مسز ب باجراءات الطلاق حصلت على حكم بطلاق معلق decree nisi شرطه : ان لم يعارض فيه الزوج فى مدة معينة أصبح طلاقا نهائيا) ، ضد مستر ب ، الذى كان عرضة فى أى لحظة لأن يستدعي للذهاب الى الحرب ، ولكن مسز ب قد تأخرت لعدة أشهر من أن تجعل الطلاق المعلق طلاقا نهائيا ، وهذا يمنع المستر ب من أن يتزوج من المسز ا ، ذلك الزواج الذى يشعر أن وعد الشرف قد ربطه بتنفيذه ، الا أن القانون يبيح لأى ملتمس ، ذكرا كان أو أنثى ، الحصول على طلاق معلق ، وأن يتأخر فى جعله طلاقا نهائيا لأسباب يرجح أن تكون أسبابا مشينة ٠ وقد نقدت لجنة قانون الطلاق هذه الأوضاع نقدا صارما وبخاصة حينما تضاعفت خطورة مثل هذه المشكلة التى بيناها فى زمن الحرب ، مذ كانت الحرب سببا لقيام سلسلة من قضايا تعدد الأزواج بسبب رغبة جنودنا التى تذكيها فى نفوسهم روح البطولة فى الحصول على العلاوة التى تمنحها الدولة لانفصال الأزواج عن زوجاتهم الحقيقيات وأسرهم الحقيقية ٠ والزوجة الشرعية تكون مرتبطة فى أحوال كثيرة برجل آخر بروابط مشابهة ٠ وأنا أسوق هذه الحقائق كى يبحثها الباحثون فى صحيفتكم ، لما ترددونه كثيرا من الشكوى من انخفاض نسبة المواليد ، فان الشر الناجم عن قوانين الزواج عندنا هو سبب هام من أسباب هذا النقص فى نسبة المواليد

المخلص

ا ٠ س ٠ ب ٠ هاينس

٢٩ من نوفمبر

أن يثأر لنفسه اذا كان غنيا ، ولكن حينما يكون الطرفان قد ارتكبا الذنب نفسه ، أو اذا كان الطـــرف الذى لم يرتكبه لا يشعر بأى غضب له ما يوجبه ، فعندئذ لا يكون ثمة وجـــود للحق فى الثأر ، وحالما تفهم هـــذه الوجهة من وجهات النظر ، فان القانون الذى يبدو أول الأمر غريبا الى حد ما ، يتضح أنه قانون مناسب تمام المناسبة • واذا شئت تفصيل القول فهو قانون يرتكز على قضايا أربع : أولاها أن الاتصـــال الجنسى خارج الزواج فاحشة ، وثانيتها أن استياء « الطرف البرىء » من الزنى فزع قاسط من عمل الاثم ، والقضية الثالثة هى أن هذا الاستياء ، ولا شىء آخر ، قد يعتبر بحق سببا لاستحالة قيام حياة مشتركة ، والرابعة أن الفقراء لاحق لهم فى المشاعر الرفيعة • ولم تعد الكنيسة الانجليزية ، تحت تأثير الكنيسة العليا ، تأخذ بالقضية الثالثة من هذه القضايا الأربع ، الا أنها لا تزال تأخذ بالقضيتين الاولى والثانية ، ثم لا تفعل شيئا ايجابيا يدل على أنها لا تأخذ بالقضية الرابعة •

وعقوبة الخروج على قانون الزواج هى عقوبة مالية من جهة ، لكنهـــا تتوقف بخاصة على الرأى العام ، ويعتقد جانب غير كبير من الرأى العام ، اعتقادا راسخا ، أن العلاقات الجنسية خارج الزواج هى علاقات خبيثة والذين يؤمنون بهذا يظلون بطبيعة الحـــال فى جهل بسلوك أصدقائهم الذين يخالفونهم فى ذلك ، وهم قادرون على أن يســـيروا فى الحياة غير عارفين كيف يعيش غيرهم من الناس ، وماذا يفكر فيه هذا الغير • وهذا الشطر الصغير من الرأى العام لا ينظر الى الأعمال فقط بوصفها أعمالا دنيئة بل هو يصف بالدناءة كذلك الآراء التى تتنافى ومبادئه ، وهو قادر على السيطرة على اتجاهات الساسة بعامل تأثيره فى الانتخـــابات ، وعلى التحكم فى أصوات مجلس اللوردات بسبب حضور الأساقفة ، وبهاتين الوسيلتين فهو يتحكم فى التشريع ، ويجعل أى تغيير فى قانون الزواج مستحيلا تقريبا • وفى وسعه أيضا أن يضمن فى معظم الأحوال فصل الشخص الذى يخرج علانية على قانون الزواج من عمله ، أو كساد حاله بترك حرفائه وعملائه له • والطبيب أو المحامى أو التاجر فى مدينة ريفية

لا يستطيع أن يكسب رزقه ، بل لا يستطيع السياسى أن يصبح عضوا فى البرلمان اذا وصم بين الناس بأنه رجل « فاسد الخلق » • ومهما يكن السلوك الشخصى للانسان ، فهو لا يمكن أن يدافع علانية عن أولئك الذين وسموا بسمة من سوء السمعة ، حتى لا يرمى ببعض ما رموا به ، أما الذى لم تشب سمعته شائبة ، فقلما يعترض عليه معترض ، مهما عرف بعضهم من سلوكه الخاص فى هذا الصدد •

ونظرا لطبيعة هذه العقوبة نجد أنها لا تعدل بين أصحاب المهن المختلفة ، فالممثل أو الصحفى لا ينالهما منها شىء عادة ، والعامل الذى يؤدى عمله فى المدينة يستطيع على الدوام تقريبا أن يفعل ما يحلو له ، والرجل الذى له موارده الخاصة ، يمكنه ألا يبالى على الاطلاق ما دام قد اختار رفقاءه اختيارا ملائما ، وذلك الا اذا أراد أن يشارك فى الحياة العامة • والنساء اللائى كان نصيبهن من العناء أكثر من نصيب الرجال من قبل ، أصبحن يعانين أقل منهم ، بسبب ما يجدن الآن من المجالات الفسيحة التى لا تفرض فيها عقوبات اجتماعية ، وبسبب التزايد السريع فى عدد النساء اللائى لا يؤمن بالشريعة المصطلح عليها : أما بالنسبة الى غالبية الرجال ممن هم خارج دائرة الطبقات العاملة ، فلا تزال العقوبة من القسوة الى الحد الذى يكفى لمنعهم من مقارفة هذا الاثم •

ونتيجة هذا كله أن يشيع هذا الجو من النفاق المهلهل الذى يسمح بكثير من الخروج على القانون ، ولا يمنع الا هذا الذى يجب أن يكون عاما ، فالانسان يستطيع ألا يعيش علانية مع امرأة ليست زوجته ، وتستطيع المرأة غير المتزوجة ألا تنجب طفلا ، ويستطيع الرجل أو المرأة ألا يقفا أمام محكمة من محاكم الطلاق ، وفيما عدا هذه القيود ينفسح ميدان الحرية بصورة كبيرة من الوجهة العملية ، وهذه الحرية العملية هى التى تجعل القانون محتملا فى نظر الذين لا يرضون عن المبادىء التى يقوم عليها • وليست اللذة هى الشىء الذين يجب على الناس أن يضحوا به لاسترضاء المستمسكين بالآراء المتزمته ، بل ما يجب أن يضحوا به هم الأطفال والحياة المشتركة ••• والصدق ••• والأمانة •••! ونحن لا يمكننا أن

نفرض أن هذه هى النتيجة التى يريدها أولئك الذين يتمسكون بالقانون، ولكننا أيضا لا نستطيع أن ننكر أن هذه هى النتيجة التى يحققونها بالفعل • فالعلاقات الزوجية الخاصة التى لا تؤدى الى انجاب الأطفال أو التى يغشاها ما يغشاها مما نعرف من النفاق ، يظل أصحابها بنجوةمن العقاب ، أما أولئك الأمناء ، أو الذين تؤدى علاقاتهم الى انجاب الأطفال فهم الذين تنصب عليهم العقوبات الصارمة •

والنفقات التى تتطلبها تربية الأطفال الذين يولدون من زواج تؤدى على الدوام الى تحديد أدق فى عدد أفراد الأسرة ، وهذا التحديد على أشده بين أولئك الذين يفهمون مسئوليات الأبوة أحسن الفهم ، ويرغبون أكثر من غيرهم فى تعليم أطفالهم تعليما طيبا • ويرجع ذلك الى أن تكاليف تربية الأطفال أشد وطأة عليهم منها على غيرهم • الا أن الباعث الاقتصادى لتحديد النسل ، وان كان حتى الآن أقوى البواعث على الأرجح ، ليؤيده على الدوام باعث غيره ، فالنساء يحصلن على الحرية ، لا مجرد تلك الحرية الظاهرية الشكلية ، بل الحرية الداخلية التى تساعدهن على التفكير والاحساس فى غير تصنع ، لا وفقا لقواعد مقررة • وقد تكون النتيجة بالنسبة للرجال الذين أطالوا الحديث فى لهجة الواثق عن الغرائز الطبيعية عند المرأة نتيجة مثيرة للدهشة اذا هم أدركوا هذه النتيجة ـ فكثير من النساء ، اذا ما تركت لهن الحرية الكافية لكى يفكرن لأنفسهن ، لا يرغبن فى أن ينجبن أطفالا ، أولا يرغبن فى الغالب فى أكثر من طفل واحد حتى لا تفوتهن التجربة التى يتيحها لهن انجاب الأطفال •• وثمةمن النساء من هن ذكيات أريحيات اللب ، ومن يأبين أن تستعبدهن جسومهن ، ذلك الاستعباد الذى ينطوى عليه انجاب الأطفال • وثمة نساء طموحات ممن يرغبن فى حياة لا متسع فيها لرعاية الأطفال ، وثمة نساء يؤثرن اللذة وحياة البهجة ، ونساء يحببن اعجاب الرجال بهن ، فأمثال هؤلاء سوف يؤجلن عملية الحمل ـ على الأقل ـ حتى يمضى شبابهن ، وجميع هذه الأنواع من النساء يتزايد عددها سراعا ، وقد لا نركب الشطط اذا قلنا ان عددها سوف يستمر فى الازدياد سنين كثيرة مستقبلة •

ومن سبق الحوادث أن نحكم بأى قدر من الثقة عن الآثار التىسوف تؤدى اليها حرية المرأة فى الحياة الخاصة ، وفى حيــاة الأمة ، الا آننى أحسب أنه ليس من سبق الحوادث أن أرى أن هذه الآثار سوف تختلف اختلافا عميقا عن الآثار التى تتوقعها طلائع الحركة النسائية • لقداخترع الرجال ، وكثيرا ما تقبل النساء فى الماضى ، نظرية تقول بأن النساء هن رعاة النسل ، وأن حياتهــن تتركز فى الأمومة ، وأن جميع غرائزهن ورغباتهن موجهة نحو هذه الغاية ، سواء شعرن بهذا أو لم يشعرن • وتصور نتاشا ــ احدى شخصيات تولستوى ، هذه النظرية : فهى امرأة فاتنة ، مرحة ، تستجيب للعاطفة ، حتى اذا تزوجت أصبحت مجرد أم فاضلة ، ليس لها من الحياة الذهنية أيما نصيب • وهــذه النتيجة تحظى بموافقة تولستوى الكاملة • ومما يجب التسليم به أنها نتيجة مرغوب فيها رغبة شديدة من وجهة نظر الأمة ، مهما يكن رأينا فيها ، من حيث علاقتها بالحياة الخاصة • ويجب التسليم أيضا بأنها نتيجة غالبــا ما تحدث بين النساء ذوات البنية القوية ، واللائى لم يبلغن منزلة عالية فى سلم المدنية ، الا أنها فى بلاد مثل فرنسا وانجلترا ، قد أخذت تتلاشى الى حد الندرة ، بل ان عدد النساء اللائى لا يرضيهن أن يكن أمهات ليتزايد يوما بعد يوم ، اذ الأمومة ليست هدفهن • بل ان الخطر من نشوب صدام فى المســتقبل القريب بين تطورهن الشخصى وبين مستقبل الهيئة الاجتماعية ليزداديوما عن يوم • وانه لمن العسير معرفة ما يجب عمله لتخفيف وطأة هذا الصدام، الا أننى أظن أنه مما يستوجب الاهتمام أن نرى ماذا عساها أن تكون آثار ذلك الصدام اذا لم يعمل شىء لتخفيف وطأته •

وثمة ، فى الوقت الحاضر معدل اختيارى فى المواليد من نوع فذ جدا ، يرجع الى هذا المزيج من الحذر الاقتصادى وحرية النساء المتزايدة (١) •

---

(١) أمدنا المستر سدنى وب ببعض الحقائق الطريفة فى خطــابين أرسل بهما الى جــريده التيمس فى أكتوبر ١١ ، ١٦/١٩٠٦ • وثمة أيضا نبذة فابية عن الموضوع بعنوان « الانخفاض فى معدل المواليد » للمستر سدنى وب (برقم ١٣١) وهناك أيضا بعض المعلــــومات فى آحد منشورات ر كاسل ١٩١١) كبيا ا نيون هولم • م د ، م • ر • ك • س بعنوان : الانخفاض فى معدل المواليدــ أهميته القومية والدواية

فعدد السكان فى فرنسا ثابت بالفعل ، وتوشك أن تكون هذه هى الحال فى انجلترا تقريبا . وهذا معناه أن بعض الطبقات تنقص مواليدها ، بينما البعض يزداد عدد مواليده . وان لم يحدث تغيير ما ، فان الطبقات التى تنقص مواليدها تصبح منقرضة بالفعل ، وسوف يسد النقص فى السكان كله تقريبا من الطبقات التى هى آخذة الآن فى الزيادة (١) . أما الطبقات الآخذة فى النقصان فتشمل جميع الطبقات الوسطى وطبقة الصناع المهرة ، وأما الطبقات الآخذة فى الازدياد فهى الطبقات الشديدة الفقر .. طبقات السكارى ومن لا حيلة لهم ، وضعاف العقول ـ والنساء ضعيفات العقول ، بخاصة ، قابلات لأن يكن ولودات . وثمة زيادة فى تلك الطبقات من السكان الذين لا يزالون يؤمنون بالدين الكاثوليكى ايمانا قويا ، كالأرلنديين والبريتون ، وذلك لأن الدين الكاثوليكى يحرم تحديد النسل . وأحسن العناصر من بين الطبقات التى يتناقص عددها أسرعها تناقصا ، وأولاد الطبقة العاملة ذوو المقدرة الفائقة يرتفعون بما يحصلون عليه من شهادات الى طبقة الاخصائيين ، وهم بطبيعة الحال يرغبون فى الزواج من الطبقة التى ينتمون اليها بالتعليم ، لا من الطبقة التى نشأوا منها ، الا أنهم لا يستطيعون أن يتزوجوا فى شرخ شبابهم ، ولا يستطيعون أن يعولوا أسرة كبيرة لأنهم لا يملكون مالا أكثر مما يكسبون بعرق جبينهم، ونتيجة هذا أن تستخلص أحسن العناصر فى كل جيل من الطبقات العاملة ثم تعقم تعقيما كاذبا ، على الأقل بالقياس الى البقية الباقية . فالنساء الشابات من أهل الطبقة الاخصائية ، ممن أوتين القدرة على الانشاء والنشاط والذكاء ، لا يملن عادة الى الزواج فى سن مبكرة ، كما لا يملن الى أن ينجبن أكثر من طفل أو طفلين اذا تزوجن . لقد كان الزواج فيما مضى الوسيلة الوحيدة الواضحة عند النساء لكسب قوتهن ، وقد تضافر ضغط

---

(١) ان انخفاض نسبة الوفيات ، ولا سيما وفيات الأطفال ، الذى حدث فى نفس الوقت الذى انخفضت فيه نسبة المواليد كان من العظم حتى الآن بحيث يكفى لتزايد عدد السكان فى بريطانيا العظمى ، غير أن ثمة حدودا واضحة لانخفاض معدل الوفيات ، مع أن معدل المواليد قد ينخفض بسهولة الى درجة يمكن أن تجعل النقص الحقيقى فى عدد السكان أمرا لا يمكن تجنبه

الوالدين ، والخوف من أن تصبح الفتيات عانسات ، على اجبار كثير من النساء على الزواج ، بالرغم من عدم ميلهن على الاطلاق الى القيام بواجبات الزوجية ، أما اليوم ، فتستطيع الفتاة ذات الموهبة العادية أن تكسب قوتها فى يسر ، وتستطيع تحقيق حريتها وأن تتمرس بتجارب الحياة دون أن تتقيد بالقيود التى تربطها بزوج أو بأسرة ذات أطفال ، وتكون نتيجة ذلك أنها اذا تزوجت ، فانها تتزوج متأخرة ٠

ونحن ، اذا أخذنا مجموعة من معدل الأطفال من سكان انجلترا ، ثم فحصنا والديهم ، يمكننا أن نجد أن الفطنة والنشاط والذكاء والاستنارة ، أقل شيوعا فى الوالدين منها فى مجموع السكان عامة ، وذلك للأسباب التى قدمنا ٠ وقد نجد أن أولئك الذين هم من ذوى الفطنة والنشاط والذكاء والاستنارة لا يستطيعون فى الواقع أن يكاثروا أنفسهم ، أعنى أنه لا يكاد يعيش لكل منهم فى المتوسط أكثر من وليدين بعد سن الطفولة ٠ أما أولئك الذين يتصفون بغير ما يتصف به هؤلاء ، فيعيش لكل منهم فى المتوسط أكثر من طفلين ، وبهذا يكون لهم من الأبناء أكثر مما يلزم للمحافظة على عددهذه الفئة ٠

ومن العسير تقدير الأثر الذى ينتجه ذلك فى شخصية السكان دون أن يكون لنا علم أكبر بشئون الوراثة مما لدينا فى الوقت الحاضر ٠ ولكن طالما أن الأطفال لا ينفكون يعيشون مع والديهم ، فلا بد أن يكون للقدرة الأبوية والتعليم المبكر أثر كبير فى تطوير شخصياتهم ، حتى اذا اطرحنا موضوع الوراثة من حسابنا بالكلية ٠ ومهما كان الرأى فى العبقرية ، فلا يمكن أن يرقى الشك الى أن الذكاء ، سواء عن طريق الوراثة أو عن طريق التعليم ، من شأنه أن يجرى فى الأسر ، وأن انحلال العائلات التى يشيع فيها الذكاء لابد أن ينحط بمستوى السكان الذهنى ٠ والظاهر أنه ممالا شك فيه أنه اذا بقى نظامنا الاقتصادى ومقاييسنا الأخلاقية دون أن يطرأ عليها تبديل ، فلسوف يحدث تبديل سريع ولكن الى أسوأ فى أخلاق الناس فى الجيلين أو الأجيال الثلاثة القادمة فى جميع البلاد المتمدينة ، كما سوف يحدث نقص حقيقى فى عدد السكان فى أكثرها مدنية ٠

ويرجح جدا أن يصحح النقص فى السكان نفسه ، فى الوقت المناسب، بتخلصه من تلك الخصائص التى تؤدى فى الوقت الحاضر الى معدل منخفض فى المواليد ، وسيكون للرجال والنساء الذين يمكنهم أن يحافظوا على ايمانهم بالمذهب الكاثوليكى ميزة حيوية (بيولوجية) ، وسينشأ بالتدريج شعب له حصانته ضد هجمات العقل ، شعب يؤمن ايمانا لا يتزعزع بأن تحديد النسل وزر يفضى بصاحبه الى الجحيم ، أما النساء اللائى لهن اهتماماتهن العقلية ، واللائى يحفلن بالفنون أو الآداب أو الشئون السياسية ، أو اللائى يطمحن الى حياة حافلة ، أو يقدرن حريتهن حق قدرها .. هؤلاء النساء سيقل عددهن بالتدريج الى حد الندرة ، وسيحل محلهن طراز من النساء الوديعات المولعات بالأمومة ، لا يلبث عددهن أن يزداد بمضى الزمن ، نساء ليس لهن أى اهتمامات بما يدور خارج بيوتهن، ولا يستشعرن أى كراهية لأعباء الأمومة . فهذه النتيجة التى حاول الرجال عبثا فى أجيال من تسلطهم على النساء أن يصلوا اليها خليقة بأن تكون الثمرة النهائية لتحرير المرأة ، لمحاولتها اقتحام ميدان أوسع من هذا الميدان الذى حصرتها فيه فى الماضى غيرة الرجال .

ولعلنا نستطيع أن نجد أن شيئا من هذا نفسه ، اذا أمكن التأكد من الحقائق التاريخية ، قد حدث فى الامبراطورية الرومانية . فلقد ظلت على الدوام أسباب انحلال نشاط الرومانيين وذكائهم فى القرن الثانى والقرن الثالث والقرن الرابع من التاريخ المسيحى يغشاها شىء من الغموض قد يشتد وقد يخف ، الا أن ثمة من الأدلة ما يؤيد الظن بأن خير عناصر الرومان أخفقت حينئذ ، كما أخفقت خير العناصر عندنا الآن فى تعويض النقص فى معدل المواليد بين صفوفها ، وأن العبء فى استمرار بقاء الشعب الرومانى كان يرجع عادة الى من هم أقل حيوية من أبنائه . وقد يكون ثمة ما يغرينا بالظن بأن المدنية ، حينما تكون قد ارتفعت الى ذروة معينة ، تصبح رخوة ، ويكون من شأنها أن تنحل ، ليحل محلها نوع من هذا الوهن الفطرى ، نوع من الاخفاق فى التوفيق بين حياة الغريزة والحياة الذهنية العميقة من فترات الثقافة العالية ، ولكن أمثال هذه النظريات الغامضة

تنطوى دائما على شىء زلق خرافى يجعلها لا قيمة لها فى تفسير الأمور العلمية ، أو اذا اتخذناها مرشدا لنا الى الأمور العملية .

ولنبن أولا عما نريد . انه لا أهمية لتزايد عدد السكان ، وعلى العكس من ذلك ، لو كان عدد سكان أوربا لا يزيد ولا ينقص لكان من الأيسر كثيرا التقدم الاقتصادى بالاصلاح ، ومنع الحرب ، والذى يؤسف له فى الوقت الحاضر ليس النقص فى معدل المواليد فى ذاته ، بل ما تشاهده من أن النقص هو على أشده فى أحسن عناصر السكان . على أننا محقون فى أن نخشى أن ننتهى فى المستقبل الى ثلاث نتائج وخيمة : أولاها ، نقص مطلق فى عدد السكان الانجليز والفرنسيين والألمان ، وثانيتها ، خضوعهم لشعوب أقل منهم مدنية ، والقضاء على مأثوراتهم ، وثالثتها : عودتهم الى الزيادة ولكن على مستوى أحط من المدنية بعد أجيال لا يبقى منها الا المحرومون من الذكاء والبصيرة . فاذا أردنا ألا ننتهى الى هذه النتائج ، وجب علينا أن نقف هذه الوسيلة التعسة من وسائل الانتخاب فى معدل المواليد بشكل ما ...

وهذه المشكلة هى من المشاكل التى تنطبق على جميع الحضارة الغربية ، وليس ثمة صعوبة فى التماس حل نظرى لها ، ولكن الصعوبة الكبرى هى اقناع الناس بقبول هذا الحل وتطبيقه عمليا ، وذلك لأن الآثار التى يخشون حدوثها ليست آثارا مباشرة ، ولأن الموضوع ليس من الموضوعات التى اعتاد الناس أن يستعملوا فيها عقولهم . واذا قدر للناس أن يأخذوا فيه بحل معقول ، فالراجح أن يكون السبب هو التنافس بين دول العالم جميعا . وواضح أنه اذا اتخذت دولة ما ـ ولتكن ألمانيا ـ وسيلة معقولة لمعالجة هذا الأمر ، فانها ستفوز بمزية كبرى على الدول الأخرى ، الا اذا حذت هذه الدول حذو ألمانيا . ويحتمل أن يصبح اهتمامنا بقضايا عدد السكان أكثر مما هو الآن ، بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وعلى الأرجح أن دراستنا لها ستكون من ناحية التنافس الدولى . فهذا الباعث يختلف عن الباعث العقلى والباعث الانسانى فى أنه قد يكون من القوة بحيث يكفى للتغلب على ما يعترض به الناس على العلاج العلمى لمشكلة معدل المواليد .

لقد كانت غرائز الناس ، رجالا ونساء ، تؤدى من نفسهـــا ، فى الزمن الماضى ، وفى جميع التواريخ والمجتمعات ، الى ما هو أكثر من المعدل الكافى للمواليد ، وما قرره مالتوس عن مشكلة عدد السكان كان صحيحا الى الزمن الذى كتب ماكتبه فيه ، وهو لايزال صحيحا بالقياس الى الشعوب شبه المتحضرة ، وبالقياس الى أحط العناصر فى الشعوب المتمدينة ٠ لكنه أصبح رأيا فجا بالقياس الى نصف سكان أمريكا وأوربا الغربية الأكثر مدنية ، أولئك الذين لم تعد الغريزة كافية للمحافظة حتى على أن يظل السكان دون نقص أو زيادة ٠٠

وفى وسعنا تلخيص أسباب ذلك بحسب أهميتها ، على النحو الآتى :

١ ـ عظم ما تتكلفه تربية الأبناء اذا كان آباؤهم ذوى ضمير حى

٢ ـ ازدياد عدد النســـاء اللائى لا يرغبن فى أن يكون لهن أطفال ، أو اللائى لا يرغبن فى أن يكون لهن أكثر من طفل أو طفلين ، حتى لا تضطرب بذلك خطتهن فى الحياة

٣ ـ نظرا لزيادة عدد النساء على عدد الرجال يبقى نســـاء كثيرات بلا زواج ، وهؤلاء ، وان لم يكن ممنوعات فى الواقع من الاتصال بالرجال ، فهن ممنوعات بالقانون من انجاب الأطفال ، ونجد فى هذه الطبقة عددا ضخما لا ينفك فى ازدياد ممن يكسبن قوتهن بالعمل على الآلة الكاتبة ، أو العمل فى المجال التجارية وما اليها ، وقد أتاحت الحرب للنساء مجـــالات كثيرة للعمل كن محرومات منها من قبل ، والراجح أن هذا التغيير ليس تغييرا مؤقتا كله

فاذا وجب أن نقف هذا العقم فى أحسن عناصر السكان ، كان أول ما لابد من عمله وأولاه بالرعاية هو ازالة الأسباب الاقتصادية لتحـــديد النسل ، وعلى مجموع الأمة أن يتحمل جميع النفقات التى تتطلبها تربية الأطفال ، فغذاؤهم وملابسهم وتعليمهم لا ينبغي أن توفر فقط لأشد الطبقات فقرا ، بوصفها عملا من أعمال البر ، بل يجب توفيرها لجميـــع الطبقات بوصفها عملا من الأعمال المتعلقة بالصالح العام ، وفضلا عن ذلك

فان المرأة التى تستطيع أن تكسب مالا ، والتى تتخلى عن كسبه بسبب الأمومة ، ينبغى أن تأخذ من الدولة ، بقدر الامكان ، كل ما كانت تحصل عليه لو لم تقعد بها الأمومة عن كسبه ، والشرط الوحيد الواجب توفره فى حالة اعالة الدولة للأم والأطفال يجب أن يكون سلامة الوالدين جسمانيا وعقليا من جميع النواحى التى يحتمل أن تؤثر فى الأطفال ، ويجب ألا نمنع من حرموا هذه السلامة من انجاب الأطفال ، انما الواجب أن يستمروا ، كما هو الحال فى الوقت الحاضر ، فى تحمل نفقات أطفالهم بأنفسهم •

ويجب أن يكون معلوما أن القانون لا يهتم من الزواج الا بموضوع الأطفال ، وأنه لا ينبغى ألا يبالى بما نسميه « الأخلاق » التى تقوم على العادة وعلى نصوص التوراة ، لا على أى اعتبار حقيقى لاحتياجات المجتمع ، والعدد الزائد من النساء ، اللائى يشفقن ، لأسباب كثيرة ، من انجاب الأطفال يجب أن ندرأ عنهن أسباب هذا الاشفاق • واذا كان من واجب الدولة أن تقوم بنفقة الأطفال ، فمن حقها ، على أسس من علم اصلاح النسل (اليوجنية) (١) ، أن تعرف من هو والد كل طفل ، وأن تشترط قدرا من الاستقرار فى صلة الرجل بالمرأة ، ولكن ليس ثمة داع لاشتراط هذا الاستقرار طوال حياتهما ، أو توقع قيامه ، أو تحتيم أى سبب للطلاق غير موافقة الزوجين على وقوعه ، فهذا قد ييسر للمرأة التى يجب أن تظل فى الوقت الحاضر بلا زواج انجاب أبناء اذا أرادت هى هذا ، وبهذه الطريقة يمكن أن نتفادى خسارة هائلة لا داعى لها ، كما يمكن أن نتفادى قدرا كبيرا من التعاسة •

وليس ثمة داع لقيام مثل هذا النظام فى الحال ، اذ من الممكن أن يقوم بالتجربة بين طبقات معينة من المجتمع ، وهى الطبقات التى تصلح تطبيقه أكثر من غيرها • ومن الممكن أن نتوسع فيه بعد ذلك بالتدريج ، على ضوء ما نستخلصه من التجربة ، فاذا وجدنا أن معدل المواليد ارتفع

---

(١) اليوجنيه eugenics علم اصلاح النسل

ارتفاعا كبيرا أمكن زيادة تحديد الشروط اليوجنية التى فرضناها من قبل بتحديد أشد .

وثمة بالطبع ، صعوبات عملية مختلفة تعترض مثل هذا المشروع : كمعارضة الكنيسة له ، ومعارضة المستمسكين بالأخلاق التقليدية ، ثم الخوف من اضعاف مسئولية الآباء ، وما يستلزمه الأطفال من نفقة • على أننا نستطيع التغلب على ذلك كله ، الا أن ثمة عقبة يبدو أننا يستحيل علينا تذليلها فى انجلترا تذليلا تاما ، ذلك أن الفكرة برمتها فكرة تنافى الديمقراطية ، لأنها تعتبر بعض الناس أفضل من بعض ، ولأنها قد تقتضى أن تقدم الدولة لأبناء فريق من الناس تعليما أرقى مما تقدمه لأبناء الآخرين ، وهذا يناقض جميع مبادىء السياسة التقدمية فى انجلترا ، ونحن لهذا السبب لا نكاد نتوقع أن مثل هذه الوسيلة من وسائل معالجة مشكلة عدد السكان سوف تتقبل بحذافيرها فى هذه البلاد• وقد يمكن حدوث شىء مثل هذا فى ألمانيا ، وما دام الأمر كذلك ، فهو يؤكد السيادة الألمانية بما لا يمكن أن يؤكدها مجرد الانتصار الحربى ، أما عندنا فلا يمكن الا أن نأمل أن نراه مأخوذا به بطريقة جزئية ، وفى طبقة دون طبقة ، الى حد ما ، والراجح ألا يتم هذا الا بعد أن يتغير البناء الاقتصادى للمجتمع تغيرا يزيل معظم الفروق المصطنعة التى تحاول الأحزاب التقدمية القضاء عليها بحق •

والى هنا كنا نناقش موضوع تكاثر النسل أكثر مما ناقشنا أثر الصلات الجنسية فى تنمية تطور الرجال والنساء أو عرقلة هذا التطور • والذى يبدو أننا بحاجة اليه ، من ناحية بقاء الجنس هو رفع الأعباء الاقتصادية الناجمة عن الأطفال رفعا تاما عن جميع الذين لايكونون غير لائقين جسمانيا ولا عقليا ، وأن يوفر القانون أوفى قدر ممكن من الحرية يتفق وما يعرفه الناس من معنى الأبوة والأمومة • وهذه التعديلات نفسها بالضبط تبدو لازمة حينما نتناول المشكلة من وجهة نظر الرجال والنساء الذين يعنيهم الأمر ••

فمن حيث الزواج ، ويشبه الزواج فى ذلك جميع الروابط التقليدية بين الكائنات البشرية ، نلاحظ أن تبدلا شاسعا يأخذ مجراه بصورة شاملة لا مفر منها ، وبصورة ضرورية لا يسلم منها أحد ، بوصفها مرحلة من مراحل التطور فى حياة جديدة ، الا أنه تبدل سيظل غير مرضى عنه رضاء تاما حتى يتم • وجميع الروابط التقليدية كانت قائمة على السلطة ـ سلطة الملك ، وصاحب الاقطاعية ، والكاهن ، والأب ، والزوج • وقد أخذت هذه الروابط كلها ، بسبب ما كانت تقوم عليه من السلطة ، تنحل ، أو هى قد انحلت بالفعل ، وخلق روابط أخرى لتحل محل تلك الروابط هو حتى الآن أمر جد ناقص • ولهذا السبب كان للروابط البشرية فى الوقت الحاضر تفاهتها غير العادية ، وهى تقوم بأقل مما كانت تقوم به من قبل لهدم أسوار ال ، أنا ، القاسية

لقد كان المثل الأعلى للزواج فى الماضى يقوم على سلطة الزوج ، هذه السلطة التى كانت الزوجة تعترف بها كحق عليها لزوجها ، فكان الزوج حرا ، أما الزوجة فكانت مستعبدة باختيارها ، وكان من المسلم به ، فى جميع الأمور التى تهم الزوج والزوجة على السواء ، أن يكون حكم الزوج هو الحكم النهائى • وكان على الزوجة أن تكون وفية ، بينما لم يكن على الزوج ، اللهم الا فى المجتمعات الشديدة التدين ، الا أن يلقى حجابا من الحشمة على خياناته • ولم يكن تحديد النسل ممكنا الا بوسيلة ضبط الشهوات ، ولم يكن للزوجة حق معترف به فى المطالبة بضبط الشهوة ، مهما تكن قد قاست من كثرة الأبناء •

وطالما كانت سلطة الزوج عقيدة يؤمن بها الرجال والنساء على السواء ، بحيث لا تقبل المناقشة ، كان هذا النظام مرضيا ، وان لم يكن كل الرضا ، فقد كان يتيح لكل من الطرفين قدرا معينا من حاجتهما الغريزية ، لا يمكن تحقيقها عند المتعلمين فى الوقت الحاضر الا نادرا • فارادة الزوج وحدها هى ما كان يجب أن يقام له وزن ، ولم يكن ثمة حاجة الى هذه التنظيمات العسيرة التى نحتاج اليها حينما لا يكون بد من الوصول الى قرارات مشتركة يتفق عليها طرفان متكافئان ، ولم تكن رغبات الزوجة تؤخذ

بنظرة الجد الى الدرجة التى تجعلها تتعارض وحاجيات الزوج ، ولم تكن الزوجة نفسها ، مالم تكن أنانية غالية فى أنانيتها ، لتهتم بتطورها النفسانى ، ولم تكن ترى فى الزواج شيئا الا أنه طائفة من الواجبات . ولأنها لم تكن تهتم بالسعادة أو تنتظر قدرا كبيرا منها ، كان ما تقاسيه أقل مما تقاسيه الزوجة فى زمننا هذا اذا لم تتحقق سعادتها : لقد كان ما تقاسيه خاليا من أى عنصر من عناصر السخط أو المفاجأة ، ولم يكن يتحول بسهولة فيكون مرارة أو شعورا بالضرر .

لقد كان للمرأة القديسة المضحية بنفسها ، التى كان أسلافنا يسبحون بحمدها ، مكانها فى مجتمع ذى فكرة معينة ، فكرة تصور هذا المجتمع قائما على الترتيب التدريجى للسلطات ، وهى الفكرة التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، انها من هذا الطراز نفسه من طرز التفكير التى تجعل لكل فرد مكانه فى المجتمع ، من الخادم الأمين ، الى التابع الوفى ، الى ابن الكنيسة المستمسك بتعاليمها . لقد اختفى هذا الطراز من طرز التفكير بحذافيره من العالم المتحضر ، ونحن نرجو أن يكون قد اختفى الى الأبد ، بالرغم مما نعلمه من أن المجتمع الذى قام عليه كان مجتمعا حيا، ومن بعض نواحيه ، مجتمعا مفعما بالنبل . لقد قضت المثل العليا الجديدة للعدالة والحرية على النظام القديم قضاء بدأ بالدين ، ثم بالشئون السياسية ، ثم بالعلاقات الفردية المتعلقة بالزواج وبالأسرة آخر الأمر . فحينما بدأنا نتساءل : « لماذا ينبغى أن تخضع المرأة للرجل! » وحينما لم تعد الاجابات المستخلصة من التقاليد ومن التوراة كافية لأن يقتنع بها أحد ... حينذاك لم يعد ثمة أى احتمال فى الابقاء على تلك التبعية القديمة، أى تبعية المرأة للرجل ، وظاهرا أن هذا السؤال لا يكاد يوجه الى أى انسان يمكنه أن يفكر تفكيرا حرا موضوعيا حتى يجيب من فوره بأن حقوق النساء هى نفسها حقوق الرجال سواء بسواء . ومهما حدث من الأخطار أو المصاعب ، ومهما ثار من الاضطراب العابر فى أثناء الانتقال الى المساواة بينهما فان هذه المطالب المعقولة هى من الضرورة ومن الوضوح بحيث لا يمكن أن يأمل معارضوها فى نجاح معارضتهم لها زمنا طويلا .

ان الحرية المتبادلة المطلوبة الآن تجعل هذا الأسلوب القـــديم من أساليب الزواج شيئا مستحيلا ، الا أننا حتى الآن لم نطور أسلوباجديدا للزواج يمكن أن يكون متنفسا صالحا للغريزة معادلا للأسلوب القديم ، ويمكن أن يكون معوانا للنمو الروحي مثله ، والملاحظ في الوقت الحاضر ، أن النساء اللائي يؤمن بأن الحرية شيء لابد من الحصـــول عليه ، يؤمن كذلك بصعوبة الحصول عليها ، فالرغبة في السيطرة عنصر أصيل في العواطف الجنسية عند معظم الرجال ، ولا ســـيما في هؤلاء الأقوياء الذين لا يعرفون الا الجد • وهي من العواطف التي لا تزال حية عند كثير من الرجال الذين تتنافى آراؤهم والاستبداد تنافيا تاما ، ونتيجة هـــذا أن تنشب حرب ، في سبيل الحرية من جهة ، وفي سبيل الحياة من جهة أخرى ، والنساء يحسسن بأن واجبهن يقتضي حماية ذواتهـــن ، والرجال يستولي عليهم شعور صامت في كثير من الأحيـــان بأن كبت الغريزة المطلوب منهم مناقض للقوة والمبادأة ، واصطدام هذه الأمزجة المتعارضـــة يجعل الامتزاج الحقيقي للشخصيات مستحيلا ، **فالرجل والمرأة يبقيـــان وحدتين جامدتين منفصلتين ، يســـألان نفسيهما على الدوام عما اذا كان زواجهما قد أثمر أية ثمرة ذات قيمة • وهذا من شأنه أن تصبح علاقاتهما تافهة ووقتية ، انها تصبح علاقات التذاذ أكثر منها علاقات اقتناع بحاجة عميقة ، علاقات استثارة ، وليست غايات تدرك ، وبهـــذا تظل الوحشـــة الأصلية التي ولدنا فيها دون أن تخف وطأتها ، ويظل جوعنا الى الألفة الداخلية دون أن تنطفيء غلته •**

وليس محتملا أن نصل الى علاج سهل ، ولا يكلفنا كثيرا ، لهذا العناء الذي يتأثر به أشد التأثير أكثر الرجال والنساء مدنية ، والذي هو ثمرة للشعور المتزايد بالفردية التي تنشأ بالضرورة عن التقدم الذهني ، واني ليساورني الشك في امكان وجود علاج جوهري لهذه المشكلة الا في صورة من صور الدين ، يكون الايمان بها ايمانا ثابتا وصادرا عن اخلاص بحيث يســـيطر حتى على حياة الغريزة • ان الفرد ليس نهاية كينونته ولا الغاية منها : فخارج الفرد ، توجد الهيئة الاجتماعية ، ومستقبل البشرية ، وهذا الكون

المترامى الذى لا تبلـــغ فيه أمانينا ولا مخاوفنا مثقال ذرة · والرجـــل والمرأة اللذان يحترم كل منهما فى صاحبه معنى الحياة ، واللذان يتساوى فى كل منهما الشعور بعدم أهميتها بالقياس الى حياة الانسانية كلها ·· **ان الرجل والمرأة اللذين هذا شأنهما يمكنأن يصيرا رفيقين دون أن يتدخل أحدهما فى حركة الآخر ، ويمكن أن يحققا اتحاد الغريزة دون الاضرار بحياة الروح أو بعقلها ، وكمـــا كان الدين يسيطر على صـــورة الزواج القديمة ، فكذلك ينبغى أن تسيطر الديانة على صورته الجديدة ، الا أنهـا ينبغى أن تكون ديانة جديدة أساسها الحرية والعدالة والحب ، لا السـلطة والقانون ونيران الجحيم ·**

وقد طرأ على العلاقات بين الرجل والمرأة أثر سيىء من الحـــركة الرومنسية (١) ، بما لفتت اليه الأنظار الى ما ينبغى أن نعتبره خيراعارضا وليس الغرض الذى من أجله تقـــوم تلك العلاقات · فالحب هـــو ما يعطى للزواج قيمته الحقيقية ، وهو أحد الأسباب العليا التى تجعـــل حياة الانسان تستأهل أن يعيشها ، شأنه فى ذلك شأن الفن والفكر ، بيد أن خير أنواع الزيجات هى تلك التى يكون لها غرض يرمى الى ما وراء الحب ، وان لم يكن ثمة زواج صحيح بدون حب ، فحب اثنين من الناس بعضهما بعضا هو شيء محدد تحديدا شديدا ، ومنفصل أشد الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ، بحيث لا يمكن أن يكون الغرض الأساسى لحياة صالحة · انه ليس فى نفسه مصدرا كافيا لألوان النشاط ، وليس فيه الامكانيات الكافية لخلق حياة يمكن أن نجد فيها الرضا المطلق · انه يمنحنا لحظاته

---

(١) الحركة الرومنسية هى تلك الحركة العاطفية التى طرأت على الآداب فى القرن التاسع عشر فى كل من فرنسا وألمانيا . والتى كانت ثورة ضد المذهب الكلاسى ، مذهب القيودوالتزمت الذى أحياه الكاردينال ريشيليو فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وكان من أقطابه فى فرنسا كورنى وراسين وموليير ، والذى بلغ ذروته فى عهد لويس الرابع عشر ، فلما كانت الثـــورة الفرنسية ، ودال عهد نابليون ، أخذ شباب الادباء الفرنسيين ، وعلى رأسهم فكتـــور هوجو يقومون بحركة رد فعل صاخبة ، للانطلاق من قيود الكلاسية المتزمتة الى حرية الرومنسيـــة الطليقة ، وآفاقها الرحبة ·

العظمى ، ثم التى أقل منها عظمة ، هذه اللحظات غير المرضية ، لأنها أقل من سابقتها عظمة ، انه يصبح ، عاجلا أو آجلا ، ذكرى من الذكريات ، قبرا للمباهج الميتة ، لا نبعا لحياة جديدة ، وهـذا الشر لا يسـلم منه أى هدف من الأهداف التى يمكن تحقيقها فى ظل عاطفة منفردة سامية ، والأهداف الوحيدة السديدة هى تلك التى تتغلغل فى المستقبل ، الأهداف التى لا يمكن أن يتم انجازها كاملا ، بل تظل دائما مستمرة النماء ، ولا نهائية بلا نهائية المساعى التى تبذلها البشرية ، ولا يمكن أن يكون للحب جديته وعمقه اللذان فى مستطاعه تحقيقهما الا حينما يكون موصولا بهدف لا نهائى من هذا القبيل ٠

والجدية فى العلاقات الجنسية عند الغـالبية العظمى من الرجال والنساء حرية بأن تتحقـق على أحسن صورها عن طريق الأطفال ٠ والأطفال عنـد معظم الناس هم حاجة أكثر منهم رغبة ، ونحن لا نوجـه الغريزة عادة توجيها شعوريا الا نحو ما من عادته أن يأتى لنا بالأطفال ، ورغبتنا فى الأطفال خليقة بأن تزداد حينما نكون فى وسط العمر ، أى حينما نكون قد اجتزنا فترة المغامرات من فترات حياتنا ، وذلك عندما يبدو أن صداقات الشباب قد أصبحت أقل أهمية مما اعتدنا أن تكون ٠٠ حينما يبدأ شبح الشيخوخة الطاعنـة الخالية من الأولاد يطل برأسـه فيقض مضاجعنا ، وحينما يأخذ شعورنا ، بأنلا نصيب لنا فى المستقبل ، يجثم على صدورنا فيضيق عليها الخناق ٠ ثم يبدأ هؤلاء الذين كانوا فى شبابهم لا يدركون على الاطلاق أن الأطفال قد يقومون بوفاء حاجاتهم فى الكبر ٠٠ يبدأ هؤلاء فى التحسر على ما كان من كراهيتهم السابقة لهذا الامر الطبيعى ويبدأون يحسدون معارفهم الذين كانوا يحسبونهم من قبل تافهين ٠ الا أنه من المستحيل على الشباب ، فى كثير من الأحيان ، ولأسباب اقتصادية ، وبخاصة على أحسن هؤلاء الشباب ، أن ينجبوا أطفالا دون أن يضحوا بأمور ذات أهمية حيوية لحياتهم هم أنفسهم ٠٠ وهكذا ينصرم حبل شبابهم ، ثم لا يشعرون بحاجتهم الى الاطفال الا بعد فوات الأوان ٠

وقد ازدادت حاجيات الناس التى لا تطابق رغباتهم ازديادا كبـيرا ،

بازدياد اختلاف الحياة الحاضرة عما كانت عليه تلك الحياة البدائية القديمة التى هى المصدر الذى نشأت عنه غرائزنا ، والتى لا تزال تتفق الى حد بعيد وهذه الغرائز ، أكثر مما تتفق وحياتنا فى الوقت الحاضر · والحاجة التى لا تستكفى تجر على صاحبها آخر الأمر من الآلام ومن الانحراف الخلقى بقدر ما كانت تجره عليه لو أنها كانت قد اقترنت برغبة شعورية· ولهذا السبب ولصالح الأمة أيضا ، كان حقا علينا ازالة المؤثرات الاقتصادية المنفرة من انجاب الاطفال · وليس ثمة داع مطلقا لأن نفرض الأبوة على هؤلاء الذين يشعرون بالكراهية لها ، ولكن الضرورى هو ألا تقيم العراقيل فى طريق أولئك الذين لا يبطنون لها مثل هذه الكراهية ·

وأنا لا أعنى ، حينما أتحدث عن أهمية المحافظة على جدية العلاقات بين الرجال والنساء ، الايهام بأن العلاقات غير الجدية هى علاقات ضارة دائما ، والاخلاق التقليدية قد أخطأت حينما عنيت هذه العناية الشديدة بالنص على ما ينبغى ألا يكون أكثر من عنايتها بالنص على ما ينبغى أن يكون · والمهم هو أن الرجال والنساء ينبغى أن يكتشفوا ، ان عاجلا وان آجلا ، أحسن العلاقة التى تطيقها طبيعتهم · وليس من الممكن دائما معرفة ما عسى أن تكون خير هذه العلاقات مقدما ، أو التأكد من أننا لم نضل عن خيرها اذا تبدنا كل شيء يمكن أن يساورنا الشك فيه · والانسان فى الشعوب البدائية يفتقر الى أنثى ، بينما تفتقر الانثى الى ذكر ، وليس لديهم مثل تلك المفاضلة التى توجد عندنا ، والتى تجعل هذا أو هذه رفيقا مناسبا لصاحبه أكثر من غيره ، ولكن بازدياد التعقيد فى الأمزجة الذى ينتج عن الحياة المتمدينة ، يصبح من الصعب أكثر فأكثر العثور على الرجل أو المرأة اللذين يجلبان السعادة ، كما يصبح من الضرورى أكثرفأكثر ألا نعقد الأمور تعقيدا فلا نعترف بأخطائنا ·

ان قانون الزواج الحالى هو ميراث ورثناه من عصر أكثر بساطة ويسرا من عصرنا ، وهو يرتكز فى جملته على مخاوف لا أساس لها ، وعلى كراهية لكل ما هو دقيق وصعب فى حياة العقل · ولقد قضى على كثيرين جدا من

الرجال والنساء بمقتضى هذا القانون ، فيما يتصل بعلاقاتهم الظاهرة ، بمعاشرة أزواج يختلفون عنهم فى طباعهم أشد الاختلاف ، وهم مع ذاك يدركون ادراكا مريرا استحالة الهروب من هذه الحال • ففى مثل تلك الظروف ينشد أحد الزوجين فى كثير من الأحوال علاقات أسعد مع شخص آخر ، الا أن هذه العلاقات لا معدى لها من أن تكون سرية ، وبدون حياة مشتركة ، وبلا أطفال • وبصرف النظر عما فى تلك السرية من بلاء عظيم ، فان لمثل هذه العلاقات بعض المساوىء التى لا مفر منها تقريبا ، فهى قمينة بأن تؤكد تأكيدا لا نصيب له من الصحة ، بأن الجنس شىء مثير مقلق ، ولا يكاد يكون من المحتمل أن تنتج هذه العلاقات اكتفاء حقيقيا للغريزة ، وهذا المزيج من الحب ، والاطفال ، والحياة المشتركة ، هو وحده الذى يخلق أحسن العلاقات بين الرجل والمرأة • والقانون فى الوقت الحاضر يحصر الاطفال والحياة المشتركة فى حدود الزواج الواحد غير المتعدد ، لكنه لا يمكن أن يحبس الحب ، وهذا القانون ، باضطراره الكثيرين على أن يفصلوا بين الحب ، وبين الاطفال والحياة المشتركة ، يعرقل حياتهم ، ويمنعهم من الوصول الى الحد الكامل لتطورهم الممكن ، ويجلب على أولئك الذين لا يرضون بهذه التفاهة عذابا لا داعى له على الاطلاق •

ومجمل القول أن حالتنا الراهنة ، من قانون ، ومن رأى عام ، ومن نظام اقتصادى ، من شأنه الانحطاط بمناقب شعبنا ، وذلك بجعلها خير شطرى السكان آباء لأكثر من نصف الجيل التالى ، وفى الوقت نفسه فان ما تطالب به المرأة من الحرية يجعل هذه الصورة القديمة من صور الزواج عائقا دون تطور الرجال والنساء على السواء • فلابد اذن من نظام جديد اذا أردنا أن نقى الأمم الأوربية من الانحلال ، واذا أردنا أن تكون للعلاقات بين الرجال والنساء سعادتها القوية ، وجديتها الفطرية التى كانت تلازم خير الزيجات فى الماضى • ويجب أن يقوم النظام الجديد على فكرة أن انجاب الاطفال هو خدمة للمجتمع ، ووجوب عدم تعريض الآباء للعقوبات المالية الفادحة • ولابد من اعتراف هذا النظام بأن القانون ، أو الرأى العام يجب ألا يقحما نفسيهما فى العلاقات الخاصة بين الرجال والنساء ، الا حينما يعنى الأمر

صالح الاطفال ، ويجب أن يزيل البواعث التى تجعل علاقاتهما سرية وبلا أطفال • ويجب أن يعترف بأنه ، وان تكن الزيجة الواحدة التى تستمر طول الحياة هى أحسن الزيجات حينما تكون زيجة ناجحة ، فان التعقيد المتزايد الذى طرأ على احتياجاتنا يزيد فى احتمال اخفاق هذه الزيجات اخفاقا لا يحسمه الا الطلاق • والحرية هنا ، شأنها فى كل مكان ، هى أساس الفطنة السياسية ، وحينما نكون قد حققنا الحرية للجميع وجب أن نترك بقية ما نرغب فيه بعد ذلك لضمائر الافراد ودينهم رجالا ونساء •

٧

الدّين والمذاهب الدّينيّة

تكاد جميع التغيرات التى طرأت على العالم منذ نهاية العصور الوسطى تعود الى الاكتشافات العلمية الحديثة وانتشارها ، ولقد كان هذا هو السبب الأساسى للنهضة • ولحركة الاصلاح ، وللثورة الصناعية ، ولقد كان هذا أيضا هو أهم العوامل التى انحلت بسببها عرى الدين الذى يلزم اتباعه بطائفة من العقائد ، فدراسة الاصول القديمة ، وتاريخ الكنيسة الأول ، وطبيعيات كوبرنيكوس واكتشافاته الفلكية ، أو نظرية دارون فى علم الحياة ، وعلم السلالات المقارن ، كل هذا بدوره نسف جزءا من صرح المذهب الكاثوليكى ، حتى لم يبق منه آخر الأمر ، فى نظر جميع المفكرين المثقفين تقريبا ، الا هذه البقية من اللباب الروحى ، والأمل الغامض ، والشعور غير الواضح المعالم بالالتزام الخلقى ، وهى البقية التى تبدو أشد قابلية للوقوف فى وجه الحدثان ، وربما أمكن أن تظل نتيجة هذا مقصورة على الأقلية المتعلمة ، لولا مقاومة رجال الدين للتقدم السياسى فى كل مكان تقريبا بنفس الشدة التى قاوموا بها التقدم الفكرى • ولقد دفعت السياسة المحافظة برجال الدين الى مناضلة جميع القوى الكامنة فى الطبقات العاملة ، كما نشرت حرية الفكر فى أوساط واسعة كان يمكن ــ لولا ذلك ــ أن تظل مدى قرون مستمسكة بسننها القديمة • وانحلال عرى الدين الذى يلزم الناس بعقائد معينة ، سواء كان هذا الانحلال خيرا أو شرا ، هو واحد من أهم الحقائق التى لا تقبل الجدل فى العالم الحديث ، ثم هو انحلال لم يكد يسفر عن آثاره بعد ، ويستحيل علينا أن نتكهن عما سوف تكون هذه الآثار ، الا أنها سوف تكون آثارا عميقة واسعة المدى بلا شك •

وللدين ناحيته الشخصية ، وناحيته الاجتماعية ، وهو عند البروتستنت شخصى قبل كل شىء ، وعند الكاثوليك اجتماعى قبل كل شىء • والدين لا يصبح قوة رهيبة فى تكييف المجتمع الا عندما تندمج ناحيتاه هاتان اندماجا خالصا ــ والمذهب الكاثوليكى من يوم أن نشأ من عهد قسطنطين الى عصر الاصلاح ، كان يمثل اندماجا ربما لم يكن يدخل فى روع أحد لو لم يكن قد حدث بالفعل •• اندماج المسيح وقيصر •• اندماج أخلاقية الاستسلام الذليل ، وكبرياء رومة الامبراطورية ، فمن كان يحب الأولى

استطاع أن يلتمسها فى سكون الأديرة (١) ، ومن أحب الثانيـــة كان فى وسعه أن يجد متمناه منها فى الأبهة التى اشتهر بها أساقفة العاصمة ، ولا يزال نفس الجـــانبين من الكنيسة ممثلين فى القـــديس فرنسيس (٢) ، وانوسنت الثالث (٣) ، ولكن الجانب الشخصى من الدين أخذ ، منذ عصر الاصلاح ، يبتعد شيئا فشيئا خارج نطاق المذهب الكاثوليكى ، بينما أخذ الدين ، الذى ظل كاثوليكيا ، يصبح بالتدريج أنظمة ومراســم سياسية ، ونسنسلا تاريخيا ، وقد أضعف هذا الانقسام سلطان الدين ، فلم تعـــد تشد من عزم الهيئات الدينية تلك الحماسة وسلامة النية التى اتصف بها رجال عرفوا بالقوة فى ناحية الدين الشخصية ، ولم يجد هؤلاء من سلطان النظم الكنسية ما يساعد على نشر تعاليمهم وتوطيد دعائمها ٠

لقد خلق المذهب الكاثوليكى ، فى أثناء العصور الوسطى ، أعظم مجتمع نظامى ، وأعظم بناء داخلى منسجم من الغريزة ، والعقل ، والروح ، عرفهما العالم الغربى ٠ ويمثل القديس فرنسيس ، وتوماس أكويناس ، ودانتى ، ذروة هذا المجتمع من حيث التطور الفردى ٠ وتمثل الكاثدرائيات ، وطوائف المستجدين الدينية (١) ، وانتصار البابوية عــلى الامبراطورية ، أقصى ما بلغته من النجاح السياسى ، الا أن العمل الذى أنجزه هذا المذهب كان عملا محصورا لم يبلغ حد الكمال : فالغريزة ، والعقل ، والروح ، كل أولئك كان يشكو مما يحول بينه وبين الاندماج فى النسيج العام ، ورجال المهن كانوا يجدون أنفسهم خاضعين للكنيسة بأساليب كانوا ينفرون منها ، والكنيسة كانت تستخدم سلطانها للنهب وايقاع المظالم بالناس ٠ لقد كان هذا البناء

---

(١) Thebaid وتعنى الصحراء ولا سيما الصحراوات المطيفة بمصر وبها كثير من الاديرة

(٢) St. Francis

(٣) انوسنت Innocent أو الطيب هو اسم لعدد من بابوات رومه ، وانوسنت الثالث هو لوتاربوده كونتى (١١٦١ ــ ١٢١٦) الذى وصل فيه سلطان البابوية ذروته ، وقد حرم ملكى أسبانيا وفرنسا ووضع كلتا المملكتين تحت الحرمان،كما اضطر جون ملك انجلترا بوجوب تنصيبه عن طريق البابا (المترجمان)

(٤) طوائف دينية كانت تستجدى قوتها أشبه بفقراء المتصوفة

الكامل عدوا للتطور الجديد ، وبعد أيام دانتى كان من واجب كل ما هو حى فى العالم أن يناضل أولا فى سبيل حقه فى الحياة ضد ممثلى النظام القديم. وهذا النضال لما ينته حتى اليوم ، ولن يكون ممكنا قيام مجتمع نظامى جديد ، وبناء داخلى جديد ، يشغلان المكان الذى شغلته الكنيسة مدى ألف عام الا عندما ينتهى هذا النضال تماما فى عالم السياسة وفى عالم الفكر .

وتكابد حرفة الكهنوت من أمرين ، تشاركها فى أحدهما بعض الحرف الاخرى ، وأما الثانى فخاص بها دون غيرها . أما الأمر الذى تختص به سائر الناس . فلو أخذنا أية مجموعة من الناس العاديين وجعلناها بمعزل عن الباقين ، ثم قلنا لهم انهم يفوقون غيرهم فضيلة لكانت النتيجة المحتومة أن تهبط هذه المجموعة الى ما دون المستوى العادى من الناحية الخلقية ، وهذا أمر قديم مألوف فيما يتعلق بالامراء ، وبهؤلاء الذين جرى العرف على تلقيب كل منهم بال « أكبر » ، لكنه ليس أقل صحة فيما يتعلق برجال الكهنوت الذين ليسوا بطبيعة الحال أحسن كثيرا من المعدل كما يظن الناس . أما المصدر الثانى الذى يعود بالضرر على حرفة الكهنوت فهو الاوقاف الخيرية ، فوجود عين موقوفة بخاصة على من يناصرون مؤسسة ثابتة من شأنه أن يزيغ أحكام الناس فيما يتعلق بقيمة هذه المؤسسة . ويزداد هذا الزيغ حينما يصاحب وجود هذه العين وضع اجتماعى معين وفرص لاستغلال نوع تافه من السلطة . ويبلغ الزيغ أشد حالات السوء حينما يربط القانون بين المؤسسة وبين عقيدة قديمة يكاد يستحيل تغييرها ، عقيدة بعيدة كل البعد عن التفكير الطليق فى زمننا الحاضر . فهذه الاسباب كلها تعرض للدمار قوة الكنيسة المعنوية .

وليس الخطأ ناشئا عن كون عقيدة الكنيسة غير سليمة بقدر ما هو ناشىء عن مجرد وجود عقيدة ، والناس يعرضون أمانتهم الذهنية للخطر بمجرد تقبلهم لعقيدة تافهة تتحكم فى اقتصادهم ووظائفهم وسلطتهم ، وهم يقولون لانفسهم ان قبولهم الشكلى لعقيدة ما ، يبرره الخير الذى يساعدهم تقبلهم لها على فعله . ويفوتهم ادراك أن أى نقص يعتور سلامة التفكير لدى أولئك الذين تتسم حياتهم العقلية بالحيوية يضع حدا لقدرتهم على فعل الخير ، وذلك

بما يصيبهم به من فقدان تدريجي للقدرة على تبين وجه الحق بسهولة فى أى شيء ، وقد كان لصرامة النظام الحزبى نفس هذا الشر فى الشئون السياسية ولأن هذا الشر حديث العهد نسبيا ، فان كثيرين يلمسونه ، وهم يعتقدون أنه شر لا أهمية له فيما يتعلق بالكنيسة ، الا أن الشر فيما يتعلق بالكنيسة أعظم منه فى الشئون السياسية ، **لأن الدين أكثر أهمية من السياسة ، ولأن أئمة الدين يجب أن يتنزهوا عما يدنسهم تنزها تاما ، وهذا أمر أكثر لزوما لهم منه للساسة .**

والشرور التى تحدثنا عنها تبدو شيئا مرتبطا بوجود هيئة من رجال الكهنوت المحترفين لا تنفصل عنه . فاذا أردنا الا يكون الدين شيئا ضارا فى عالم سريع التغير ، وجب أن يتولى القيام عليه رجال تكون لهم أعمال أخرى خلال الاسبوع ، رجال يقومون بعملهم الدينى بدافع الحماسة ، دون أن يتقاضوا على ذلك أجرا ، كما تفعل جماعة الاصدقاء (١) ، ولا ينتظر أن يتخلق أمثال هؤلاء الرجال ، لمعرفتهم الحياة الاعتيادية ، بأخلاق تقادم عليها العهد ، ولم يعد أحد يعدها تناسب الحياة العامة . وهم لكونهم أحرارا لن يرتبطوا بالوصول الى نتائج تقررت مقدما ، بل سيكون فى مقدورهم أن يفكروا فى المشاكل الاخلاقية والدينية تفكيرا طبيعيا غير مصطنع ، وبلا ميل . واذا استثنينا المجتمعات الجامدة كل الجمود ، وجدنا أن الناس لا يمكن أن يحيوا حياة دينية ، أو أن يجدوا عونا روحيا حقيقيا الا اذا تحرروا من كابوس رجال الكهنوت المحترفين .

فهذه هى الأسباب التى ترجع اليها ، الى حد بعيد ، تفاهة مايفيد المجتمع مما فى الدين وفى الآداب من خير ، على أيدى كبار رجال الدين ، ونحن لا ننكر أن من بين المؤمنين المحترفين عددا كبيرا مخلصون كل الاخلاص ، لا يزالون يشعرون بهذا الالهام الذى كانت المسيحية تنير به البصائر قبل أن يضعف من شأنها تقدم العلوم ، ولهؤلاء المؤمنين المخلصين قيمة كبيرة للعالم ، لانهم يبقون على الاعتقاد بأن الحياة الروحية هى من الأهمية فى

---

(١) Society of Friends.

المرتبة القصوى للرجال والنساء على السواء ، وقـد كان لبعض هـؤلاء المؤمنين ، فى جميع البلاد المتحاربة الآن ، من الشجاعة ما جعلهم يدعـون الى السلام والمحبة باسم المسيح ، وقد قاموا بما مكنهم من تخفيف مـرارة الكراهية ، وهم بهذا يستحقون الثناء كل الثناء ، لأن الدنيا بدونهم كانت تصبح شرا مما هى ٠

الا أن الروح الجديد المنشود لا يمكن أن يجىء الى دنيانا حتى على أيدى أعظم المؤمنين المخلصين الشجعان من رجال الديانة التقليدية ، ولن يمكن أن يعود الايمان بالدين على أيديهم الى أولئك الذين كفـروا به بسبب أن عقولهم كانت عقولا حية ، وليس لأن أرواحهم كانت أرواحا ميتة ٠ والذين يؤمنون بالدين التقليدى يرنون بأبصارهم بالضرورة الى الماضى يلتمسون فيه الالهام أكثر مما يلتمسونه فى المستقبل ٠ فهم يبحثـون عن الحكمة فى تعاليم المسيح ، تلك التعاليم التى مهما تكن مثيرة للاعجاب ، الا أنها تعـد غير وافية تماما لمواجهة كثير مما جد فى الحياة الحديثة من أمور اجتماعيـة وروحية ، فالأناجيل لم يرد فيها ذكر للفنون أو لمسائل الفكر أو مشكلات الحكم ، وأولئك الذين يحاولون بكل ما فى وسعهم ، كتولستوى مثلا ، أن يجعلوا الأناجيل هاديهم الى الحياة ، يضطرون الى اعتبار الفلاح الجاهل خير طراز للانسان ، والى اطراح المشكلات السياسية جانبا ، فى فوضى متناهية لا تؤدى الى شىء عملى ٠

ولا مناص لنا من اطراح الكثير مما تعودنا أن نرده الى الدين ، اذا أردنا يوما أن نستحدث وجهة نظر دينية جديدة عن الحياة وعن العالم ، تحتل من جديد أذهان الاحرار رجالا ونساء وتوقظ مشاعرهم ، وأول التغيـيرات المطلوبة وأعظمها هو اقامة أسس أخلاقية ايجابية ، لا أسس تدعو الى الخنوع والتسليم ، أخلاق يتسامى بها الأمل ، لا أخلاق يرتكس بها الخوف ، أخلاق تحض على أعمال يجب أن ننهض بها ، لا أخلاق تنهى عن أعمـال لا يصح القيام بها ٠ ان الانسان لم يخلق فى هذه الحياة ليكون كل عمله فيهـا أن ينسرق منها حثيثا لكى يتجنب غضب الله ٠ ان الدنيـا هى دنيانا نحن ، ويتوقف علينا نحن أن نجعلها فردوسا أو جحيما ، والقوة اللازمة لذلك هى

قوتنا ، والملكوت والمجد يمكن أن يكونا ملكوتنا ومجدنا اذا توفرت لنا الشجاعة وبعد النظر لخلقهما · والحياة الدينية التى يجب علينا أن نجرى وراءها لن تكون شيئا من هذا الوقار العارض أو الحرمات الخرافية ، انها لن تكون حياة حزن أو حياة زهادة ، ولن تهتم الا قليلا بمبادىء الاخلاق ، انها يجب أن تستلهم الصورة التى يمكن أن تكون للحياة الانسانية ، وأن تسعد ببهجة الانشاء ، مستروحة أنفاسها فى عالم شاسع حر قائم على البناء والأمل ، ان أساس هذه الحياة انما ينبغى أن يكون محبة البشر ، لا لمظهرهم الذى يروق العين ، ولكن لما يتوسمه الفكر مما يمكن أن يبرزوه من الخير المكنون فيهم · انها لن تدين بسرعة ، بل سوف توجه الثناء الى العمل الايجابى ، أكثر مما توجهه الى البراءة السلبية من الذنب ، انها ستسبح ببهجة الحياة ، وبالود اللباب ، وبالبصيرة البناءة ·· بهذه المباهج التى ترد الى الدنيا شبابها وجمالها ، وتملأها بالفتوة ·

ان « الدين » كلمة لها معان كثيرة ، وتاريخ طويل ، وقد كان الدين فى أول أمره يهتم بطقوس معينة ورثها الناس عن ماض سحيق ، وكانوا يقومون بها لأسباب عفى عليها النسيان منذ زمن بعيد·· أسباب كانوا يحوطونها من حين الى حين بأساطير شتى ليبرهنوا بها على أهميتها ، ولا يزال الكثير من هذه الأساطير موجودا · والرجل المتدين هو الرجل الذى يغشى الكنيسة ، انه واحد ممن يشاركون فى العشاء الربانى ·· أو أحد الذين يركزون (١) ، كما يقول الكاثوليك ، أما سلوكه خلافا لذلك ، أو احساسه فيما يتعلق فحياة الانسان ومكانه فى هذا العالم فلا علاقة بموضوع ما اذا كان متدينا ، بهذا المعنى الساذج ، ولكنه المعنى الصحيح من الوجهة التاريخية مع ذلك · وكثير من الرجال والنساء متدينون بهذا المعنى ، دون أن يكون فى طبيعتهم أى شىء يستحق أن يسمى دينا بالمعنى الذى أقصده من هذه الكلمة ، ومجرد اعتيادهم على الصلاة فى الكنيسة جعلهم لا يتأثرون بها · انهم خالو البال عن التاريخ والخبرة الانسانية اللذين يجعلان من هذه

---

(١) يعظ بما فى الانجيل

الطقوس شيئا ذا قيمة ، ثم هم لا يتأثرون بأقوال الانجيل التى تتكرر فى أسماعهم بذلاقة ٠٠ تلك الأقوال التى تكاد تدين جميع أعمال أولئك الذين يتوهمون أنهم حواريو المسيح ٠٠ وكل الطقوس التى يعتادها الناس تلقى هذا المصير ولابد : ومستحيل أن يكون لطقس من الطقوس تأثيره الأول فى نفوس من يمارسونه بعد قيامهم به بهذه الكثرة التي تجعلهم يؤدونه بسببها أداء آليا ٠

ويمكننا أن نقول ان الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بينها وبين بعض كبير فرق ، الا أنها تتميز من بعضهـــا تميزا يكفى لأن يجعلنا نطلق عليها أسماء مختلفة ٠٠ والأصول التى أعنيها هى الغريزة ، والعقل ، والروح ٠٠٠ وحياة الروح من بين هذه الأصول الثلاثة هى التى تصنع الدين ٠

وتشمل حياة الغريزة كل ما يشترك فيه الانسان مع الحيوانات الدنيا، أى كل ماله دخل فى المحافظة على الذات والتناسل والرغبات والنزعات التى ترجع فى الأصل الى هذه الحيوانات ، وهى تشمل الزهو وحب التملك ، وحب الأسرة ، بل والكثير مما يتكون منه حب الوطن ، انها تشمل جميـــع النزعات التى لها دخل بخاصة فى النجـــاح البيولوجى للفرد نفسه أو لجماعة هذا الفرد ، لأن حياة الغريزة بين الحيوانات التى تعيش فى جماعات تشمل الجمـــاعة ، والنزعات التى تشـــملها حياة الغـــريزة قد لا تؤدى فى الواقع الى النجـــاح ، وفى أحيان كثيرة قد تعمل ضـــده فى الواقع ، الا أنها مع ذاك هى تلك النزعات التى يكون النجاح بالنسبة اليها هو علة الوجود ، تلك التى تعبر عن طبيعة الانسان الحيوانية ، وعن مركزه فى هذه الدنيا المليئة بالمتنافسين ٠

وحياة العقل هى حياة الجرى وراء المعرفة ، من مجرد حب الاستطلاع عند الأطفال الى أعظم الجهود الفـــكرية ، وحب الاستطلاع موجود عند الحيوانات ، وهو يخدم فرضا بيولوجيا واضحا ، لكنه لا يتعدى – الا عند الانسان – حدود الفحص فى بعض الأشياء المعينة ، لمعرفة مدى صلاحيتها

للأكل ، أو لتبين موقفها ان كانت ضارة أو نافعة ، وحب الاستطلاع هو النزعية الأولية التى نشأ منها جهاز المعرفة العلمية كله • وقد تبين أن المعرفة فى ذاتها من الفائدة بحيث لم يعد حب الاستطلاع هو الباعث على تحصيلها ، بل ان هناك بواعث لاعداد لها تتضافر اليوم فى تغذية الحياة العقلية ، ومع هذا ، فلا يزال حبنا المباشر للمعرفة ، وكراهيتنا للخطأ ، يلعبان دورهما الضخم ، ولا سيما عند أولئك الذين يبذون غيرهم فىميدان التحصيل • ولا يمكن أن يحصل أحد من الناس قدرا كبيرا من المعرفة الا اذا كان مشغوفا بالتحصيل فى ذاته ، بصرف النظر عن ادراكه للفائدة التى قد تستخدم هذه المعرفة للحصول عليها • فهذه النزعة الى تحصيل المعرفة، والأفعال التى تتجمع حولها ، تولف ما أعنى به حياة العقل • وحياة العقل تتألف من الفكر الذى هو •• كله أو جانب منه •• شىء غير شخصى ، بمعنى أنه يهتم بالأشياء فى ذاتها ، لا لعلاقتها بحياتنا الغريزية •

وتتركز حياة الروح حول الشعور غير الشخصى ، كما تتركز حياة العقل حول الفكر غير الشخصى ، وفى حدود هذا المعنى تكون الفنون جميعا تابعة لحياة الروح ، وان كان الأصل فى عظمتها راجعا الى كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الغريزة • فالفن يبدأ من الغريزة ثم يرقى فى عالم الروح ، والدين يبدأ من الروح ، ثم يحاول السيطرة على حياة الغريزة والنفخ فيها ، ويمكننا أن نستشعر نفس الاهتمام فى أفراح الآخرين وأتراحهم كما نستشعره فى أفراحنا وأتراحنا ، فنحب ونكره بصورة مستقلة عن كل علاقة بأنفسنا ، ونهتم بمصير الانسانية وتطور الكون ، دون التفكير فى أننا داخلون شخصيا فى ذلك كله • ان الاحترام والعبادة ، والشعور بما ندين به للبشرية ، وما نحسه من جبر وخضوع وفقا للقوانين التى يفسرها الدين التقليدى على أنها الهام الهى •• كل أولئك تابع لحياة الروح ، وأعمق من أولئك جميعا يستكن الاحساس بسر لا نعلم غير شطر منه ، سر حكمة مبهمة ، ومجد خاف ، لرؤيا متغيرة الصورة ، تفقد فيها الأشياء المشتركة أهميتها الثابتة ، حتى لتصبح قناعا رقيقا نرى خلفه الحقيقة القصوى لهذا العالم فى صورة غير بينة •• فمصدر الدين هو أمثال

هذه المشاعر التى اذا قدر لها أن تتلاشى ، لتلاشى من الحياة معظم ما نعده خير ما فيها ٠

ان الغريزة والعقل والروح ، كلها أمور جوهرية لحياة كاملة ، وكل منها له ماله من فساد ، وكل منها ممكن أن يبلغ مرتبة زائفة من الفضل على حساب صاحبيه الآخرين ، ومن شأن كل منها أن يحيف على صاحبيه ، أما فى الحياة التى يجب أن نجرى وراءها فسوف تكون تنمية الثلاثة تنمية متساوية الرتب ، وبصورة يندمج فيها الثلاثة فى كل واحد منسجم ٠ فالغريزة بين غير المتحضرين لها السلطان الأعلى ، ويكاد العقل والروح ألا يكون لهما وجود ٠ أما بين المتعلمين فى الوقت الحاضر ، فقد تطور العقل بصفة عامة على حساب كل من الغريزة والروح ، ونتج عن ذلك حالة من التوحش وموات القلب ، حالة من الندرة فى الرغبات الشخصية وغير الشخصية تؤدى الى الاستخفاف والتلف الذهنى ٠ فأما بين المتقشفين ومعظم أولئك الذين قد نسميهم قديسين ، فقد تطورت الروح على حساب الغريزة والعقل ، ونشأت عن ذلك صورة يستحيل أن يسيغها أولئك الذين توفرت لهم حياة حيوانية سليمة ، وأولئك الذين توفر فيهم حب التفكير الايجابى السليم ٠ ونحن لا نستطيع أن نجد الحكمة أو الفلسفة التى تأتى بالحياة الجديدة للعالم المتمدين فى أى من هذه التطورات الثلاثة التى تم التطور فى كل منها فى ناحية واحدة فحسب ٠

ومن النادر أن نجد بين الرجال المتحضرين والنساء المتحضرات فى الوقت الحاضر من تعمل فيهم الغريزة والعقل والروح بصورة متجانسة ٠ وقليلون جدا من اهتدوا الى الفلسفة العملية التى تعطى مرتبتها الصحيحة لكل من الثلاثة ، والثابت على وجه الاجمال أن الغريزة لاتنى تصطرع اما مع العقل ، واما مع الروح ، والعقل والروح لا ينفكان يحارب كل منهما الآخر ٠ وتضطر هذه المعركة الرجال والنساء الى توجيه الكثير من نشاطهم الى داخل ذواتهم ، بدلا من أن يستطيعوا صرف هذا النشاط بأكمله الى داخل أعمال موضوعية ٠ وحينما يحصل انسان على شيء من السلام الداخلى المزعزع بقهر جانب من طبيعته ، فان قواه الحيوية تصاب بالعطب ، ولا يكون

نموه في كمال عافيته كما كان • فاذا أريد للناس أن يكونوا أصحاء ، فلا مندوحة من أن نسوى فيهم بين الغريزة ، وبين العقل ، وبين الروح •

ان الغريزة هى مصدر الحيوية ، وهى الرباط الذى يربط بين حياة الفرد ، وحياة الجنس ، انها أساس تلك الحاسة العميقة للاتحاد بالآخرين ، وهى الوسيلة التى تغذى بها الحياة الجماعية حياة الوحدات المنفصلة • بيد أن الغريزة بمفردها تجعلنا عاجزين عن الهينمة على قوى الطبيعة ، سواء فى أنفسنا ، أو فى بيئتنا الطبيعية ، ثم هى تجعلنا مرتبطين الى النزعة غير المفكرة نفسها التى تنمو بواسطتها الأشجار • وفى قدرة العقل أن يحررنا من هذا الرباط ، وذلك بقوة الفكر غير الشخصى الذى يساعدنا على أن نقدر تقديرا محكما الأغراض البيولوجية الخالصة التى تنجذب الغريزة نحوها على غير هدى انجذابا قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا • الا أن العقل ، فى تصرفه تلقاء الغريزة هو مجرد عقل انتقادى: ففى كل ما لاعلاقة بالعاطفة نجد أن نشاط العقل ، اذا لم يكبح ، يكون عرضة لأن يصبح نشاطا هداما ، ولأن يولد استخفافا • والروح ترياق لاستخفاف العقل : فهى تجعل الغلبة للعواطف التى تنبع من الغريزة ، وهى بهذا تجعلها لا تتأثر على الاطلاق بالنقد العقلى ، وحينما تشيع الروح فى الفكر ، فانه يفقد سمته القاسية المخربة ، ولا يكون سببا فى التعجيل بموت الغريزة ، بل هو لا يعمل الا على التعجيل بتطهيرها من الاصرار وتحجر القلب ، ثم تحريرها من سجن الظروف المفاجئة • **ان الغريزة هى التى تهبنا القوة ، وان العقل هو الذى يهبنا وسيلة توجيه القوة الى الغايات المنشودة ، والروح هى التى توحى بالفوائد غير الشخصية للقوة التى تكون من نوع لا يستطيع العقل أن يحط من شأنه بالنقد** • وهذا مجمل للأدوار التى يمكن أن يقوم بها كل من الغريزة والعقل والروح فى حياة متناسقة •

والغريزة والعقل والروح يساعد كل منها الآخرين حينما يكون تطورها حرا ولا يقف بسبيله شىء ، ولكن حينما يدب الفساد فى واحد منها ، فلن يقتصر الفساد عليه فحسب ، بل ان فساده سينتقل الى الآخرين أيضا ، وعلى ذلك فينبغى للثلاثة جميعا أن تنمو جنبا الى جنب ، واذا أردنا لها أن

تبلغ كامل نموها عند أى رجل أو أمرأة ، فيجب ألا نعزل هذا الرجل أو تلك المرأة بل يجب أن يكون كل منهما فردا فى مجتمع لا يعطل فيـه النمو ، أو يسير فيه فى طريق غير سوى ٠

وتتألف حياة الغريزة ، اذا لم يكبح جماحها العقل أو الروح ، من دورات غريزية تبدأ بنزعات أفعال محددة متفاوتة ، ثم تصبح حالة اشباع لحاجات معينة عن طريق النتائج التى انتهت اليها هذه الأفعال الدافعة ٠ والنزعة والرغبة لا يوجهان نحو الدورة بأجمعها ، ولكن نحو بدايتها فقط ، أما بقية الدورة فتترك للأسباب الطبيعية ٠٠ فنحن نرغب فى أن نأكل ، لكنا لا نحتاج الى التغذية الا اذا كنا أعلاء ، ومع هذا فانالأكل ، ان لم يكن المقصود منه التغذية ، يكون مجرد متعة مؤقته ، وليس جزءا من نزعتنا العامة الى الحياة ٠ والناس يرغبون فى الاتصال الجنسى ، ولكن رغبتهم فى انجاب الأطفال ليست رغبة قوية ولا هى رغبة كثيرة الحدوث ٠ الا أن الاتصال الجنسى ، اذا لم يدفع اليه أمل فى انجاب الأطفال ، وتحقيق هذا الأمل من حين الى حين ، يبقى عند معظم الناس متعة منفصلة قائمة بذاتها ٠ لا تربط حياتهم الشخصية برباط الحياة الانسانية ، متعة غير مستمرة باستمرار الأغراض الرئيسية التى يعيشون بمقتضاها ، وغير قادرة على جلب هذا الاحساس العميق بالعملية كلها التى تبلغ تمامها بانجاب الأطفال ٠ ويشعر معظم الناس ، مالم تضمر النزعة بسوء الاستعمال ، برغبة فى خلق شىء ما كبير أو صغير ، بحسب قدراتهم ، وعدد قليل هو الذى يستطيع اشـباع هذه الرغبة : وبعض السعداء فى مقدورهم أن ينشئوا امبراطورية ، أو أن يبتكروا علما ، أو أن ينظموا قصيدة ، أو يصوروا صورة ، ورجال العـلم الذين لا يجدون من الصعوبة فى ايجاد متنفس لملكة الخلق عندهم مثل الذى يجده غيرهم ، هم أسعد ذوى المواهب العقلية فى العالم الحديث ، وذلكلأن نشاطهم الخلاق يتيح الرضا التام لعقولهم ، ولأرواحهم ، ثم لغريزة الابداع عندهم كذلك (١) ٠ ونحن نرى فيهم بداية الطريقالجديد للحياة التى يجب

---

(١) كان واجبا أن أضيف الفنانين الى من ذكرت ، لولا ما يبدو من أن معظم الفنانينالمحدثين يلقون من الصعوبة فى سبيل الابداع أكثر مما يلقاه عادة رجال العلم

أن نعمل على ايجادها • ونحن قمينون أن نجد فى سعادتهم جرثومة السعادة المستقبلة لجميع الجنس البشرى ، أما غير هؤلاء ، باستثناء عدد قليل ، فغرائزهم الخلاقة معطلة ، انهم لا يستطيعون أن يبنوا بيوتهم بأيديهم ، ولا أن يغرسوا حدائقهم أو أن يوجهوا عملهم الى انتاج ما يمكن أن يقودهم اختيارهم الحر الى انتاجه • وبهذه الطريقة ، تكبح غريزة القلق وتنحرف جانبا ، تلك الغريزة التى كان ينبغى أن تؤدى الى حياة العقل والروح ، وهى تنحرف فى أحيان كثيرة جدا الى التدمير ، بوصفه العمل الوحيد الفعال الذى يمكنها القيام به • ومن هزيمتها ينشأ الحسد ، ومن الحسد تنشأ النزعة الى تدمير القدرة الخلاقة عند من كانوا أوفر حظا ••• وهذا مصدر من أكبر مصادر الفساد فى حياة الغريزة •

ولحياة الغريزة أهميتها ، لا بالقياس اليها هى بالذات فحسب ، ولا بسبب الفائدة المباشرة للأفعال التى توحى بها ، ولكن لأنها ان كانت غير مرضية ، فان الحياة الفردية تصبح مفككة ومنفصلة عن حياة الانسان العامة • وذاك أن جميع الاحساس الحقيقى العميق بالاتحاد مع الآخرين يتوقف على الغريزة ، على التعاون أو الاتفاق فى بعض الأغراض الغريزية • ويتضح هذا بأجلى صورة فى علاقات الرجال بالنساء ، والآباء بالأبناء • لكنه صحيح أيضا فى العلاقات الأوسع مدى • انه يصدق على المجموعات الكبيرة التى تسودها عاطفة قوية مشتركة ، بل هو يصدق حتى على أمة بأسرها فى أوقات الشدة • انه جزء مما يجعل الدين بوصفه نظاما اجتماعيا شيئا ذا قيمة • وحيثما فقدنا هذا الاحساس تماما ، فان الناس يبدون بعيدين عنا وبمعزل منا ، وحيثما عطلناه تعطيلا قويا فان غيرنا من الناس يصبحون عرضة لعدائنا الغريزى • وقد تلبس العزلة ، أو العداء الغريزى قناعا من الحب الدينى ، الذى يمكن أن تضفيه على جميع الناس ، بصرف النظر عن علاقتهم بنا • الا أن الحب الدينى لا يمكن أن يسد الثغرة التى تفصل بين الانسان والانسان ، انه ينظر من العدوة الأخرى لهذه الثغرة ، انه يرمق الآخرين بعين الحنان أو الرأفة غير الشخصية ، لكنه لا يعيش مع الحياة نفسها التى يعيشونها ••• والغريزة وحدها هى التى يمكن أن تفعل ذلك ،

لكنها لا تستطيع أن تفعله الا عند ما تكون مثمرة وسليمة ومستقيمة . وضروري لكي تبلغ هذه النهاية أن تتم الدورات الغريزية في غالب الحالات ، وألا يعترضها معترض في وسط الطريق، فالأغراض التي تصطرع معها لأسباب اقتصادية ، أو لأسباب أخرى ، تقطع عليها سبيلها في الوقت الحاضر باستمرار ، كما يقطعه عليها الجرى وراء الملذات التي تقتلع أحسن أجزاء الدورة قابلية ، ثم تعطل الجزء الباقي . وبهذه الطريقة تفقد الغريزة أهميتها وخطورتها ، وتصبح عاجزة عن أداء أي عمل حقيقي ، كما تفرط مطاليبها في تجاوز حدها على الدوام ، ولا تعود الحياة كلا يسير في حركة واحدة ، بل تصبح سلسلة من الحركات المفككة ، بعضها سار ، ومعظمها مفعم بالوهن وتثبيط العزيمة .

وحياة العقل ، وان كانت حياة فاضلة الى آخر حدود الفضل الا أنها لا تستطيع أن تضمن سلامة حياة الغريزة الا عندما تفضي الى منفذ غير وعر لغريزة الخلق . وهي ، بصفة عامة ، في غر هذه الحالة ، تكون منفصلة انفصالا شاسعا عن الغريزة ، شديدة العزلة عنها ، شديدة الافتقار الى النمو الداخلي ، بحيث لا تصلح لأن تكون مركبا للغريزة ، أو وسيلة لترقيتها أو تهذيبها . والفكر في جوهره انطوائي وغير شخصي ، أما الغريزة فهي في جوهرها شخصية مرتبطة بظروف خاصة : وبين الاثنين ، مالم يبلغا كلاهما مستوى رفيعا ، حرب لا يمكن اخمادها بسهولة ، وهذا هو السبب الأساسي في قيام مذهب الحيوية (١) ، والمستقبلية (٢) ، والذرائع (٣) ، من الفلسفات التي تصف نفسها بأنها فلسفات حية مليئة بالفتوة . وهي كلها تمثل المحاولة لايجاد أسلوب من الفكر لا يكون معاديا للغريزة ، والمحاولة في ذاتها تستحق الثناء ، الا أن الحل الذي تقترحه أبعد من أن يكون حلا مجديا ، والذي يقترحونه يساوي اخضاع الفكر للغريزة ، ورفض السماح للفكر بتحقيق مثله الأعلى . والفكر الذي لا يرتفع فوق ما هو شخصي لا يكون فكرا بأي معنى صحيح .. بل يكون مجرد استعمال متفاوت في الذكاء

---

(١) Vitalism

(٢) Futurism

(٣) Praqmatism

للغريزة ٠ والفكر والروح هما اللذان يسموان بالانسان فوق مستوى البهائم ٠ ونحن باطراحها جانبا قد نفقد الميزة الحقيقية للانسان ، ثم لا نستطيع الحصول على ميزة الحيوانات ٠ والفكر انما ينبغى أن يبلغ نماءه الكامل قبل محاولة التوفيق بينه وبين الغريزة ٠

وحينما يجتمع الفكر المهذب والغريزة غير المهذبة فى وقت واحد ، كما هى الحال عند كثير من ذوى العقول الراجحة ، تكون النتيجة انكارا تاما لأى خير يمكن أن يتحقق بمساعدة الغريزة ٠ وبعض أمثال هؤلاء يغفلون الغريزة بقدر ما يسعهم ، وبسبب ما فطروا عليه ، ويصبحون من أهل النسك ، بينما يسلم بها غيرهم بوصفها ضرورة ، ثم يدعونهـا بمعزل ، ومنفصلة عن كل ما له فى حياتهم أهمية حقيقية ٠ وكل من هذين الطريقين يحرم الغريزة من حيويتها ، أو يمنعها من أن تكون رابطة بين الانسان وبين غيره من الناس ، وكل منهما ينتج احساسا بالوحشة الطبيعية ٠٠ هوة يمكن أن تتحدث عبرها عقول الآخرين وأرواحهم ٠٠ لا غرائزهم ٠ لقد كانت غريزة الوطنية عند كثيرين جدا من الناس ، عندما نشبت الحرب ، أول غريزة أقامت جسرا على طرفى الهوة ٠٠ لقد كانت أول غريزة جعلت الناس يشعرون بوحدة عميقة حقيقية مع غيرهم ٠ وقد ظلت هذه الغريزة ، لمجرد كونها جديدة وغير مألوفة فى شدتها ، غير متأثرة بالفكر ، ولا مشلولة أو مسلوبة الحيوية بالشك والانفصال البارد ٠والاحساس بالوحدة الذى أحدثته يمكن استحداثه بواسطة الحياة الغريزية فى الأوقات العادية ، اذا لم يكن الفكر والروح يناصبانها العداء ٠ وطالما كان هذا الاحساس بالوحدة مفقودا ، فلا يمكن أن تكون الغريزة والروح فى تناسق ، ولا يمكن أن يكون لحياة المجتمع قوة وبذور النمو الجديد ٠

ومن شأن حياة العقل ، بسبب انعزالها ، أن تفصل بين الانسان وبين غيره من الناس فصلا داخليا ، وذلك طالما تكون غير متوازنة وحياة الروح ٠ ولهذا السبب يستطيع العقل اذا استقل عن الروح، أن يسبب فساد الغريزة، وأن يلحق بها الهزال ، لكنه لا يستطيع أن يضيف أى قدر من الخير الى حياة

الغريزة ، ومن هنا عداوة بعض الناس للفكر • الا أن محاولة الوقوف فى سبيل نمو الفكر لا تخدم غرضا ما ، فللفكر اصراره الخاص ، واذا صرف عن وجهته التى من شأنه أن يتجه اليها بطبيعته، فانه يتجه الى وجهات أخرى حيث يكون أشد ضررا ، والفكر فى ذاته يشبه الشىء الالهى : فاذا كان النزاع بينه وبين الغريزة غير قابل للتوفيق ، كان الفكر هو الذى يجب أن ينتصر، ولكن هذا النزاع نفسه قابل للتوفيق : وكل ما يلزم لذلك هو أن الفكر والغريزة كليهما يجب أن يستمدا الحيوية من حياة الغريزة •

ولكى تحصل الحياة الانسانية على الحيوية فلا بد من أن تكون النزعات الغريزية قوية ومستقيمة ، ولكن لكى تكون الحياة الانسانية صالحة فلا بد أن تسيطر على هذه النزعات وتتولاها بالرقابة رغبات أقل شخصية ، وأقل قسوة •• أقل قابلية للافضاء الى النزاع من تلك الرغبات التى توحى بها الغريزة وحدها • **ونحن فى حاجة الى شىء كلى وغير شخصى أولا وقبل كل شىء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردى ، وهذا هو ما تمنحنا اياه حيـــاة الروح •**

وتقدم لنا الوطنية مثالا من هذا النوع من الرقابة التى نفتقر اليها ، والوطنية خليط من عدد من المشاعر والنزعات الغريزية : كمحبة الوطن ، ومحبة أولئك الذين لهم مثل عاداتنا ومظهرنا ، ونزعة التعاون فى جماعة ، والاحساس بالكبرياء بالأعمال التى قامت بها الجماعة التى ينتمى اليهـــا الانسان ، فكل هذه النزعات والرغائب ، مثلها مثل كل ما هو تابع لحياة الغريزة ، نزعات ورغائب شخصية ، بمعنى أن المشاعر والأفعال التى تلهمنا اياها نحو الآخرين تتقرر بالعلاقة التى تربط هؤلاء الآخرين بنا ، وليس بما عليه هؤلاء فى ذاتهم • وتتحد هذه النزعات والرغائب كلها لتنتج حب الانسان لوطنه ذلك الحب المنغرس بصورة أعمق فى صميم فؤاده ، والمتحد بقوته الحيوية بصورة أدق من أى حب غير منغرس فى الغريزة • ولكن اذا لم تتدخل الروح لكى تعمم محبة الوطن فان قصور الحب الغريزى يجعل محبة الوطن هذه مصدرا لكراهية الأوطان الأخرى • والذى تستطيع الروح القيام به هو أن تشعرنا بأن البلاد الأخرى جديرة بمحبتنا بقـــدر حبنا

لوطننا ، وأن الحرارة الحيوية التى تجعلنا نحب هذا الوطن تشعرنا بأنه يستحق هذا الحب ، وأن فقد طبيعتنا وحـــده هو الذى يمنعنا من حب البلاد كلها كما نحب بلدنا • وبهذه الطريقة يمكن أن يمتد الحب الغريزى الى المخيلة ، ويمكن أن ينمو احســـاس بقيمة الجنس البشرى جميعه ، احساس أكثر حياة وأعمق من أى احساس آخر يمكن أن يحس به أولئك الذين يكون حبهم الغريزى ضعيفا • أما العقل فلا يستطيع شيئا أكثر من أن يرينا أنه من غير المعقول أن نحب بلادنا أكثر مما نحب البلاد الأخرى • ان فى وسعه أن يضعف الوطنية ، الا أنه لا يستطيع أن يقـــوى محبتنا للبشرية جميعا ، والروح وحدها هى التى تستطيع أن تفعل ذلك بافساح المجال للحب الذى يتولد فى الغريزة واشاعته فى آفاق العالم • فهى تكبح وتطهر كل ما هو جامح أو متحجر أو شخصى بصورة صعبة الاحتمال فى حياة الغريزة •

وافساح المجال عن طريق الروح على هذا النحو نفسه ضرورى لأنواع الحب الغريزى الأخرى ، اذا أردنا ألا يضعفها الفكر أو ألا يفسدها • ومن الممكن أن تكون المحبة بين الزوجين شيئا طيبا جدا ، وحينما يكون الرجال والنساء بدائيين بدرجة كافية ، فلا يلزمهم الا الغريزة والحظ الطيب لكى يصل هذا الحب الى درجة محدودة معينة من الكمال • ولكن عنـــدما يبدأ الفكر فى تأكيد حقه فى نقد الغـــريزة فان البساطة القـــديمة تصبح مستحيلة • والحب بين الزوج والزوجة ، الذى تدعمه الغريزة غير المكبوتة وحدها ، هو حب ضيق وشخصى الى حد لا يستطيع معه أن يقف لسهام النقد الا اذا شدت حياة الروح من أزره • والفكرة الرومنسية عن الزواج ــ وبالأحرى تلك الفكرة العاطفية التى يعترف آباؤنا وغيرهم أنهم يؤمنون بها ــ تتلاشى بمجرد سيرنا فى شارع قام على جانبيه عدد من (الفللات) يسكن كلا منها زوجان لم يكادا يتخطيان عتبة بابهما لأول مرة حتى أخذا يهنئان نفسهما بما سوف ينعمان به ثمة من حب ترفرف عليه أجنحـــة الوئام ، دون أن يعكر صفوهما معكر ، ودون أن يكون لهما شأن بهـــذا العالم الخارجي البارد •• ! فهـــذا الانطواء ، وذاك العبوس ، والأسماء

الطريفة التى نطلقها على ما يتصف به أوليك الذين يحسبون أنفسهم خلف جدران أربعة فى آلاف وآلاف من المنازل الخلاوية الصغيرة من ألوان الجبن والتهيب الذميم ٠٠ كل هذا ينكشف فى برود وبلا رحمة لأولئك الذين تسيطر فيهم عقولهم على حساب أرواحهم

وليس شىء صالح فى حياة أحد من الناس الا ما تستطيع طبيعته أن تقوم به على الوجه الأكمل ٠ وكلما تقدم الناس ، أصبحت الأشياء التى كانت صالحة من قبل غير صالحة ، وذلك لمجرد ادراكهم أن أشياء خيرا منها هى فى الامكان ٠ وهذا هو نفس الحال بالقياس الى الغريزة : فكثير مما كان جيدا حقا عندما كان العقل أقل تطورا أصبح الآن رديئا فى نظر أولئك الذين رزقوا حياة عقلية قوية ، وما ذلك الا لارتقاء درجة علمهم بحقيقة هذا العالم، والرجل الذى يحب حبا غريزيا يشعر أن عاطفته لا نظير لها ، وأن مالكة فؤاده لها من المحاسن التامة مالم يتيسر مثله لامرأة من قبل ٠ والرجل الذى ملك ناصية الفكر غير الشخصى ، يدرك ، عندما يشغفه الحب ، أنه واحد من ملايين كثيرة جدا من الرجال الذين يشغفهم الحب مثله فى تلك اللحظة ، وأنه ليس ثمة أكثر من رجل واحد من هذه الملايين كلها يمكن أن يكون على حق اذا زعم أن حبه أسمى من حب الجميع ، وأنه لا يخلق به أن يظن نفسه هذا الواحد ٠ انه يدرك أن حالة الوقوع فى الحب عند أولئك الذين لاتتأثر غريزتهم بالفكر ولا بالروح هى حالة من التوهم تخـــدم أهداف الطبيعة ، وتجعل الرجل عبدا لمبـــدأ بقاء الأنواع ، لا خادما مختارا للأهداف غير الشخصية التى يرى أنها أهداف صالحة ، والفكر يرفض هذه العبودية ، لأنه ما من هدف يمكن أن تنتويه الطبيعة الا ويأبى الفكر أن يتنازل ، أو أن يغضى عن حقه فى التفكير فيه بأمانة ٠ ان دين الفكر الذى أخذت تحترق فى لهبه اللافحة حثالة العالم اليوم هو ما يتردد فى خاطر كل رجل مفكر : « **خير للعالم أن يهلك من أن أومن ، أنا ، أو أى انسان آخر ، بأية كذبة من الأكاذيب** » ٠ وهذا دين جيد ، ينبغى أن يتم عمله التدميرى ،لكنه ليس كل ما تمس حاجة الانسان اليه ، فالنمو الجديد ينبغى أن يتبع الهدم ، والنمو الجديد لا يمكن أن يجىء الا عن طريق الروح ٠

ان لكل من الوطنية ، والحب بين الرجل والمرأة ، حينما يكونان مجرد شيء غريزى ، نفس هذه العيوب : لهما نصيبهما من العزلة ، ومن الجدران الأربعة المغلقة ، ومن عدم المبالاة بالعالم الخارجى ، أو مناصبة هذا العالم العداء • فالوطنية والحب بين الرجل والمرأة هما اللذان يدفعان الفكر الى التنديد بالناس ، وهما الأصل فى هذا التلهى الضاحك بما اعتاد الناس أن ينطووا عليه من أقدس المشاعر • ولا بأس بذلك التنديد وهذا التلهى ، ولكن البأس فى موت الغريزة ، ذلك الموت الذى قد يتسببان فيه ، اذا بقى لهما السلطان الأعلى • ان لذلك التنديد وهذا التلهى ما يبررهما ، لا بوصفهما الكلمة الأخيرة للحكمة ، ولكن بوصفهما المخرج الذى ينفذ الناس من آلامهم خلاله ، الى حياة جديدة ، تتطهر فيها الغريزة ، وتغذيها ، مع ذاك، رغبات أعمق ، وبصيرة روحية أبعد مدى •

والرجل الذى تجيش جوانبه بحياة الروح ينظر الى الحب ، بالقياس الى نفسه والى غيره ، نظرة تختلف جد الاختلاف مما ينظر اليه الرجل الذى يسيطر عليه العقل سيطرة تجعله بمعزل من الناس • انه يرى ، فى اللحظات التى تتألق فيها بصيرته ، أن فى البشر جميعا شيئا جديرا بالحب ، شيئا مبهما جذابا •• صرخة فى صميم الليل •• رحلة يتحسس القائمون بها طريقهم فى الظلام •• نصرا محتمل النوال • فاذا أحبت غريزته راح يرحب بمساعدتها فى النظر الى قيمة الكائنات البشرية الذين يحبهم والشعور بهذه القيمة • وفى هذه الحالة تصبح الغريزة مددا للبصيرة الروحية ، فالذى تنبئه الغريزة به ، تؤيده البصيرة الروحية ، مهما كان ادراك العقل للدقائق ، والتحديدات ، والجدران المغلقة التى تمنع الروح من ارسال أشعتها • وتقدس روحه فى الناس جميعا ما تريه غريزته ماهو من موضوع حبه •

وحب الآباء لأبنائهم محتاج الى اعادة التجديد نفسه •فالحب الغريزى الذى لا تشوبه شائبة ، ولا يكبح جماحه الفكر ، ولا تشوبه الروح ، هو حب انطوائى ، متحجر العاطفة ، جائر • والوالد الذى يحب أبناءه هذا الحب الغريزى الخالص لا يشعر بأن ثمة أية فائدة تعود على الآخرين

تستأهل أن تلحق الضرر بأولاده • والشرف والأخلاق التقليدية تضع تحديدات هامة معينة عملية لهذه الأنانية التي يؤثر بها الآباء أبناءهم ، وذلك مذ كان المجتمع المتحضر يحتم حدا أدنى قبل أن يمنح احترامه لأي انسان • الا أن المحبة الأبوية ، حينما تكون مجرد محبة غريزية ، تتحرى منفعة الأبناء دون أي اعتبار للآخرين ، وذلك في الحدود التي يسمح بها الرأي العام • ويستطيع العقل اضعاف نزعة الناس الى الظلم ، وتوهين سطوة الحب الغريزي ، الا أنه لا يستطيع الابقاء على سطوة الحب الغريزي كلها ، وتوجيهها الى أهداف أكثر انتشارا • والذي يستطيع ذلك هو الروح • فهي تستطيع أن تدع الحب الغريزي دون أن يذهب بروائه شيء ، ثم توسع نطاق الولاء المتوقد للأب حتى يشمل العالم كله ، وسيحفز الحب الأبوي نفسه الوالد الذي يملك حياة الروح ، فيهب أبناءه الاحساس بالعدالة ، والتأهب للخدمة ، والوقار ، والارادة التي تضبط الأنانية ••• هذه الصفات التي يشعر أنها أجدى بكثير من أي ظفر شخصي •

لقد قاست حياة الروح في الأزمة الحديثة بالجمع بينها وبين الدين التقليدي ، وبعداوتها الواضحة لحياة العقل ،وبما أخذ يبدو من أنها تتركز في انكار الذات • ان حياة الروح تتطلب الاستعداد لانكار الذات ، حينما تتيح الفرصة ، الا أنها في جوهرها يقينية بقدر ما هي قادرة على اغناء الوجود الفردي ، شأنها في ذلك شأن العقل الغريزي ، انها تجلب معها بهجة الرؤيا ، وما في هذا العالم من بهجة الغموض والعمق ، وبهجة التأمل في الحياة •• وفوق كل شيء •• بهجة الحب العالمي • انها تحرر أولئك الذين يحصلون عليها من سجن العاطفة الشخصية المثابرة ، والاهتمامات الدنيوية ، انها تمنح الحرية وسعة الأفق والجمال لأفكار الانسان ومشاعره ، ولجميع علاقاتها بالآخرين ، انها تهيء الحلول لشكوكنا ، وتضع حدا لهذا الشعور الذي يخيل لنا أن كل ما في هذه الدنيا هو متاع الغرور • انها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة ، وترد الشارد الى مكانه في حياة الانسانية •

ان الذين ولجوا يوما في عالم الفكر ليؤمنون بأن السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا الى هذه الدنيا الا عن طريق الروح •

٨

الذى نستطيع عمله

كثير من الناس رجالا ونساء يريدون خدمة الجنس البشرى ، ولكنهم فى حيرة من أمرهم ويبدو مجهودهم كأنما هو قطرة فى محيط فيتملكهم اليأس . وأولئك الذين يرغبون فى ذلك أشد الرغبة يكون شعورهم بالعجز أقسى ويكونون أقرب للوقوع فريسة للانهيار الروحى بسبب يأسهم .

وطالما كنا نفكر فى المستقبل القريب فقط فان ما نستطيع عمله يبدو ضئيلا ، والراجح أنه من المستحيل أن نضع حدا للحرب القائمة . ولن نستطيع القضاء على السلطان المفرط الذى تتمتع به الدولة والملكية الخاصة كما أنه ليس فى مكنتنا أن نبث روحا جديدا فى التعليم خلال أيام قليلة . ففى مثل هذه المسائل قد نرى الضرر ولكننا لن نستطيع أن نفعل شيئا للقضاء عليه سريعا بالوسائل السياسية العادية . ويجب علينا أن نسلم بأن العالم يحكم اليوم بروح خبيث غير الروح الذى ينبغى أن يحكم به ، وأن تغيير هذا الروح أمر لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة . ان أملنا يجب ألا ينصب على الغد القريب ولكن على الوقت الذى يصبح فيه ما يؤمن به الآن عدد قليل من الناس اعتقادا شائعا يؤمن به الكثيرون . فاذا توفرت لدينا الشجاعة والصبر لجعلنا من الافكار التى تراودنا والآمال التى تدور بصدورنا حافزا يلهم الناس — ان عاجلا أو آجلا — فيصبح الفتور واليأس نشاطا وهمة . **لذلك كان أول واجب علينا هو أن نحدد فى أذهاننا تحديدا جليا نوع الحياة التى نعتقد أنها خير للبشر ، ونوع التغيير الذى نريد احداثه فى هذا العالم .**

ان القوة البالغة التى يمكن أن يصل اليها ذوو التفكير الحيوى لأكثر بكثير فى نهاية الشوط مما قد يبدو للذين يقاسون من الأوضاع السياسية الحاضرة ، تلك الاوضاع التى يحار العقل فى تفسيرها . لقد كان التسامح الدينى يوما ما خاطرا يدور فى خلد بعض الفلاسفة الجسورين فى خلوتهم . وقد نشأت الديمقراطية كنظرية بين حفنة من الرجال فى جيش كرومويل ثم انتقلت معهم الى أمريكا بعد عودة الملكية ، وفى أمريكا كان من ثمارها حرب الاستقلال ، ومن هناك حملها لافاييت وفرنسيون آخرون ممن حاربوا

مع واشنجتون الى فرنسا حيث تأقلمت مع تعاليم روسو فنفخت فى الفرنسيين روح الثورة • والاشتراكية ـ أيا كان رأينا فى مزاياها ـ قوة عظيمة نامية تعمل على تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية ، وهى مدينة بنشأتها الى عدد قليل جدا من المفكرين المتفرقين • والحركة التى قامت ضد اخضاع المرأة للرجل ، تلك الحركة التى أصبحت لا تقاوم ولم يعد بينها وبين النصر الكامل الا خطوات ، قام بها نفر ضئيل من أصحاب النظريات المثالية غير العملية أمثال مارى وولستونكرافت وشلى وجون ستيوارت مل • ان قوة الفكر هى ـ مع مرور الوقت ـ أعظم ما لدى البشر من قوى • وأولئك الذين رزقوا القدرة على التفكير والخيال الذى يجعلهم يفكرون فيما يحتاج الناس اليه هم أقرب الى تحقيق ما يهدفون اليه من خير فى الحال وفى المستقبل ، وان كان الراجح الا يتحقق هذا وهم أحياء •

ولكن ليعلم أولئك الذين يريدون أن يكسبوا الدنيا عن طريق الفكر أنها لن تسارع الى تأييدهم فيما يريدون • ومعظم الناس يمضون فى هذه الحياة دون أن يكثروا من التساؤل ، فهم يقبلون المعتقدات والأمور التى يمارسها الناس واهمين أن الدنيا ستكون حليفتهم اذا هم لم يقفوا منها موقف المعارضة •

ان الإفكار الجديدة عن العالم الذى نعيش فيه لاتتفق وهذا التسليم الذى لا يكلف صاحبه عناء ، فهى تتطلب عزلة ذهنية من نوع معين ، ومجهودا موحدا من نوع خاص ، وقوة الاحساس الداخلى بالسيطرة على الدنيا وما تتمخض عنه من أحداث • اننا لا نستطيع أن نصل الى فكرة جديدة الا اذا رضينا الى حد ما بالوحدة • ولن يكون لهذه الخلوة من فائدة اذا اختلط معناها بالترفع والاعتزال بحيث تموت فى الانسان الرغبة فى الاتحاد مع الآخرين ، أو اذا تحولت العزلة الذهنية الى ازدراء • والسبب فى ندرة التفكير المثمر فى الشئون الانسانية ، وفى أن الجمهرة من أصحاب النظريات هم اما من المحافظين على التقاليد واما من الذين أدركهم العقم ، هو أن المنزلة التى نريد أن يبلغها عقل الانسان منزلة دقيقة صعبة المرتقى ، وأن ما نريده له من خلوة ذهنية تقطعه عن العالم ، شىء ليس يسير التحقيق • ان هذا

النوع من الفكر السليم نادر وصعب ولكن لا يعجز عن أن يؤتى ثماره ، فلا داعى اذن لأن يقعدنا الخوف من العجز عن أن نفكر ، اذا توفرت لدينا الرغبة فى أن نأتى بأمل جديد الى هذا العالم ٠

وليس الذى يعنينا عند البحث عن نظرية سياسية تصلح لوقت معين هو ابتكار مدينة فاضلة أو يوتوبيا جديدة ، ولكن الذى يعنينا هو اكتشاف خير اتجاه للحركة ٠ فان الاتجاه الذى يصلح لوقت ما قد يختلف ظاهريا اختلافا كبيرا عن الاتجاه الذى يصلح لوقت آخر ٠

لهذا كان التفكير المثمر هو التفكير الذى يرشدنا الى الاتجاه الصحيح فى الوقت الحاضر ٠ وثمة مبدآن عامان يصلحان دائما للحكم على أى الاتجاهات هو الاتجاه الصحيح ، أما هذان المبدآن فهما :

١ ـ وجوب العمل على تشجيع النمو والحيوية لدى الأفراد والجماعات الى أقصى حد ممكن ٠

٢ ـ وجوب مراعاة ألا يكون نمو جماعة أو فرد على حساب جماعة أخرى أو فرد آخر الا الى أقل قدر ممكن ٠

والمبدأ الثانى من هذين المبدأين ، عندما يطبقه الفرد فى معاملاته مع الناس ، هو مبدأ « الاحترام » الذى يعنى أن حياة أى شخص آخر لها نفس الأهمية التى نعلقها على حياتنا ٠ وهو نفسه عندما يطبق بطريقة غير شخصية فى الشئون السياسية ، مبدأ الحرية ، أو على الأصح يكون مشتملا على مبدأ الحرية كجزء منه ٠ والحرية فى ذاتها مبدأ سلبى ، فهى تتطلب منا ألا نتدخل فى شئون الغير ، ولكنها لا تهيىء لنا أساسا نبنى عليه ٠ فهى ترينا أن كثيرا من النظم السياسية والاجتماعية لا خير فيها ، ولكنها لا تدلنا على ما ينبغى أن نحله محلها ٠ ولهذا السبب كان علينا أن نجد مبدأ آخر يكمل مبدأ الحرية ، اذا كنا لا نريد أن تكون نظريتنا السياسية معولا للهدم فقط ٠

والجمع عمليا بين المبدأين اللذين ذكرناهما ليس أمرا سهلا ٠ فقدر كبير

من الطاقة الحيوية فى العالم تندفع فى طرق عدوانية • وقد أثبت الألمان أن الطاقة الحيوية تتوفر لديهم بشكل غير عادى ، ولكن لسوء الحظ تأخذ هذه الطاقة صورة لا تتفق وحيوية جيرانهم • وفى أوروبا على العموم طاقة حيوية أكبر مما فى افريقيا ، ولكن هذه الطاقة تستعمل لاستنزاف كل أنواع الحياة من افريقيا عن طريق التصنيع ، حتى ذلك النوع من الحياة التى تمد مشروعات أصحاب الملايين من الأمريكان بالأيدى العاملة الرخيصة • ولقد كانت حيوية الرجال فى الماضى عائقا فى سبيل تطور المرأة ، ومن الممكن أن يصبح النساء فى المستقبل القريب فى نفس الوضع بالنسبة للرجال • ولمثل هذه الأسباب كان مبدأ «الاحترام» من الأهمية بمكان كبير على الرغم من أنه فى حد ذاته ليس كافيا ، وهو كفيل بأن يدلنا على كثير من التغييرات السياسية التى يحتاج اليها العالم ، ولعل الذى نحتاج اليه، لكى نبلغ بكلا المبدأين الى حد الرضا تقريبا ، هو عملية توحيد وتكامل ، توحيد حياتنا كأفراد وتكاملها أولا ، ثم توحيد حياة الأمة وحياة العالم وتكاملهما بعد ذلك ، دون ما تضحية للفردية • فينبغى أن تتسم حياة الفرد وحياة الجماعة بل حياة الجنس البشرى كله بنوع من الوحدة ، لا أن تكون عددا من الشظايا المتفرقة • وعندما تصبح المسألة على هذه الصورة فان نمو الفرد لا يجد ما يعوقه ، ولا يتعارض مع نمو الأفراد الآخرين • ويمكننا بهذه الطريقة أن نوائم بين المبدأين •

وتتكامل حياة الفرد بوجود غرض انشائى متصل أو اتجاه لا شعورى • فالغريزة وحدها لا تكفى لأن تهيىء الوحدة لحياة الرجل المتمدين أو المرأة المتمدينة • بل يجب أن يكون هناك هدف غالب ، أو طموح ، أو رغبة فى الخلق الفنى أو العلمى ، أو عقيدة دينية ، أو روابط عاطفية قوية دائمة • ووحدة الحياة عسيرة على أولئك الذين قاسوا مرارة نوع معين من الاخفاق ، ذلك الاخفاق الذى نتج عن كبت لما كان يجب أن يصبح النزعة السائدة لديهم ، فأصارها عقيما • وتسبب معظم المهن هذا النوع من الاخفاق من بداءة اشتغال أصحابها بها • فاذا اشتغل الانسان بالصحافة فقد يجد نفسه مضطرا لأن يكتب فى جريدة لا يميل الى سياستها ، وهذا يقضى على

كبريائه المهنية واحساسه باستقلاله • ويجد معظم المشتغلين بالمهن الطبية أن النجاح عسير جدا دون الالتجاء الى التهويش الذى يحطم ما قد يكون لديهم من ضمير علمى • ورجال السياسة لا مفر لهم من قبول برامج الاحزاب التى ينتمون اليها على علاتها ، وليس هذا فقط ، بل هم مضطرون أيضا الى الظهور بمظهر القديسين ارضاء للمتدينين ، ولا يكاد يفوز بعضوية البرلمان سوى المرائين • فليس فى أية مهنة احترام للكبرياء الذاتية التى بدونها لا يمكن أن يظل الانسان مكتملا ، اذ تسحق الدنيا هذه الكبرياء لأنها تدل على الاستقلال ، والناس يرغبون فى استعباد الآخرين أكثر مما يرغبون فى الحرية لأنفسهم • ان الاحساس الداخلى بالحرية لا حدود لقيمته والمجتمع الذى يحافظ على هذه الحرية لهو مجتمع مرغوب فيه رغبة لا نهاية لها •

ان جوهر النمو فى الانسان لا يقضى عليه ، بالضرورة الحيلولة بينه وبين عمل شىء معين ، ولكن الذى يقضى عليه هو ارغامه على أن يعمل شيئا آخر • وان ما يحطم النمو هو الاشياء التى تولد فى النفس الشعور بالعجز فى المجالات التى تصبو النزعة الحيوية الى أن يكون لها أثرها فيها • وأسوأ هذه الاشياء هو ما تقبله الارادة ، فكثيرا ما يحدث بسبب جهل المرء حقيقة نفسه ، أن تكون ارادة الانسان فى مستوى أقل من نزعته ، فتكون نزعته تواقة للخلق ، بينما ارادته تهدف نحو حياة عادية تكفل له دخلا يكفيه ، كما تكفل له احترام معاصريه : صورة للحياة المهنية الطيبة وضعت أمام عينيه وهى لا تزيد فى حقيقتها عن تلك الصور الرخيصة التى ينتجها فنان لارضاء الجمهور • هذا فى حين أن كثيرا من الناس ممن ليسوا فنانين فيهم شىء من النزعة المحددة المعالم التى لدى الفنان الأصيل ، ولأن النزعة مستقرة فى أعماق النفس لا يرتفع لها صوت ، ولأن ما يسمونه بالرأى السليم يكون عادة ضدها ، ولأن الشباب فى مستهل حياته لا يستطيع أن يتبع نداء نزعته الا اذا كان مستعدا لأن يفضل احساساته الغامضة غير المؤكدة على حكمة الشيوخ وحنكتهم ونصائح الأصدقاء ، تكون النتيجة أنه فى تسعة وتسعين فى المائة من الحالات تتحطم من مبدأ الأمر النزعة

الانشائية التى كان من الممكن أن تنبثق منها حياة حرة مليئة بالحيوية • فيرضى الشاب أن يكون آلة بدلا من أن يكون عاملا ، أن يكون وسيلة يستعملها الآخرون لتحقيق أغراضهم بدلا من أن يعمل ما تصبو اليه طبيعته هو ، وفى اللحظة التى يرضى فيها بهذا الوضع يموت شىء فى نفسه ولن يستطيع بعد ذلك أبدا أن يصبح رجلا مكتملا ، ولن يعود اليه أبدا احترامه لنفسه كاملا ، ولاهذه الكبرياء الكريمة التى ربما كانت قد أبقت على سعادته الروحية على الرغم من المصاعب والمزعجات الخارجية ، الا اذا بدل من طريقة حياته وأدخل عليها تغييرا أساسيا •

ان أوامر التحريم التى تأتى من الخارج ، والتى لا تستجيب لهنا ارادة الانسان ، لأقل ضررا بما لا يقاس من المؤثرات الخفية المتسللة التى تضل الارادة وتغريها • ان فشل الشاب فى حب عميق قد يحز فى نفسه ويؤلمه ألما شديدا ، ولكن الضرر الذى قد يحدثه الاخفاق فى الحب لشاب مملوء حيوية لا يقاس بالضرر الذى يصاب به اذا تزوج من أجل المال • ان تحقيق هذه الرغبة المعينة أو تلك ليس هو المهم : ولكن المهم هو الاتجاه ، هو نوع انفاعلية التى يسعى اليها ، فعندما تقف الارادة فى وجه النزعة ، تصبح النزعة عاجزة ، اذ تفقد الأمل الذى يجعل منها قوة دافعة • والارغام الذى يأتى من الخارج لا يترك هذا الأثر الضار ، الا اذا نتج عنه نفس الشعور بالعجز ، ولن ينتج عنه هذا الشعور اذا كانت النزعة قوية جريئة • ان ما يصيب رغبات الانسان الخاصة من خيبة أمل لا يمكن تجنبه حتى فى أحسن مجتمع ممكن تصوره ، ما دامت رغبات بعض الناس تؤدى ـ اذا لم تكبح ـ الى اضطهاد الآخرين وفنائهم • وفى أى مجتمع فاضل ما كان يسمح لنابليون أن يحترف المهنة التى اختارها لنفسه ، ولكنه ربما كان وجد السعادة كرائد من الرواد فى غرب أمريكا ، ولم يكن ممكنا أن يكون سعيدا لو أنه عمل كاتبا فى المدينة • وليس ثمة نظام اجتماعى محتمل يرغمه على أن يكون كاتبا فى المدينة •

ويتطلب تناسق حياة الفرد أن تجمع حياته بين ما قد يكون لديه من نزعات انشائية وبين تعليم يعمل على الكشف عن هذه النزعات • ويتطلب

تناسق المجتمع أن تشترك النزعات الانشائية المختلفة لدى أشخاص مختلفين فى العمل معا نحو نوع من الحياة المشتركة ، أو هدف مشترك ـ عن وعى أو غير وعى ـ يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع ما يساعده على تحقيق غايته • وتتكون معظم أنواع النشاط المنبعثة من نزعات حيوية من جزءين : أحدهما انشائى ، وهو الذى يعمل على نمو الشخص نفسه ، والاشخاص الآخرين الذين لديهم نفس النزعة أو نفس الظروف ، والثانى اقتنائى وهو الذى يعرقل حياة الآخرين ممن لديهم نزعات أو ظروف مختلفة • ولهذا قد يكون جزء كبير من القوى الحيوية الخالصة ـ رغم كونها كذلك ـ أداة تعمل ضد الحياة ، كما فعلت حركة البيوريتان (الطهريين) فى انجلترا ابان القرن السابع عشر مثلا ، أو كما تفعل القومية فى أوروبا كلها اليوم • فمن السهل أن تؤدى الحيوية الى النزاع والظلم وبالتالى الى ضياع الحيوية • وتعمل الحروب عندما تندلع نيرانها على توحيد الشعب وتنسيقه ولكنها تعمل على انحلال العالم ، وبمضى الزمن ، تعمل على انحلال الشعب نفسه ، اذا كانت حربا شديدة الوطأة كالحرب الحالية •

وقد بينت الحرب للناس بوضوح أنه مستحيل قيام تفاهم مؤكد فى حياة أى مجتمع ما دامت العلاقات بين الدول المتمدينة يسودها الاعتداء والريبة ، ولهذا السبب لن تقوم قائمة لأى حركة قوية حقيقية للاصلاح الا اذا كانت حركة دولية ، اذ أن أية حركة من هذا النوع اذا كانت مجرد حركة قومية يكون مآلها الاخفاق بسبب الخوف من الخطر الخارجى • وعلى أولئك الذين ينشدون عالما أفضل ، أو حتى تغييرا أساسيا داخل أوطانهم، أن يتعاونوا مع من لديهم نفس الأهداف فى الدول الأخرى ، وأن يبذلوا معظم جهدهم للقضاء على ذلك العداء الأعمى الذى زادته الحرب حدة • ولن نجد ما يحقق غاية أملنا فى تلك المحاولات الجزئية للاصلاح التى تؤدى اليها القومية وحدها • فالمشكلة سواء كانت دولية أو وطنية أو كانت متعلقة بحياة الفرد ، هى المحافظة على الناحية الانشائية فى النزعات الحيوية ، والعمل فى نفس الوقت على توجيه الناحية المدمرة الموجودة حاليا وجهة أخرى •

ويمكن تقسيم نزعات الناس ورغباتهم الى انشائية واقتنائية ، اذ أن بعض نشاطنا موجه لخلق أشياء غير موجودة ، وبعضه موجه نحو الحصول على أشياء موجودة أو الاحتفاظ بها • ان النزعة الانشائية المثالية هى نزعة الفنان ، وأحسن مثل للنزعة الاقتنائية هى الملكية • وأفضل حياة هى التى تلعب النزعة الانشائية فيها الدور الأكبر ، والتى تلعب النزعة الاقتنائية فيها دورا صغيرا جدا ، وخير الانظمة هى التى تؤدى الى أكبر قدر ممكن من الانشاء ، والى أقل قدر ممكن من الاقتناء الذى يتفق والمحافظة على النفس اذ أن الاقتناء قد يكون لغرض الدفاع كما قد يكون لغرض التعدى ، فهو فى القانون الجنائى عنصر دفاعى ، وعند المجرمين أداة تعدى • وقد توافق على أن القانون الجنائى أقل فظاعة من المجرم ، وأن الاقتناء الدفاعى لا يمكن تجنبه طالما كان هناك اقتناء اعتدائى ، الا أنه حتى الاقتناء الدفاعى البحت فى أنقى صوره ليس فى ذاته مدعاة للاعجاب ، اذ فى اللحظة التى تصبح فيها العوامل الاقتنائية على شىء من القوة تصير معادية للنزعات الانشائية ، ان أيا ممن عرفوا النزعة الانشائية القوية تبينوا قيمة هذه الوصية التى تقول : « لا تفكر فيما ستأكل أو تشرب أو ماذا تلبس » بمعناها الحرفى الدقيق : ان الانشغال بالاقتناء هو الذى يمنع الناس من الحياة الحرة النبيلة • والدولة والملكية هما الرمزان الكبيران للاقتناء ، ولهذا السبب فهما يعملان ضد الحياة ، ونتيجتهما الحرب • فالاقتناء هو أخذ شىء أو الاحتفاظ به ومنع الآخرين من التمتع به ، والانشاء هو اضافة شىء جميل الى الدنيا فيتمتع به الناس لوجوده • ولما كانت العروض المادية فى الدنيا يجب أن توزع على الناس ، ولما كان بعض الناس بطبيعتهم مغتصبين ، فلابد من وجود الاقتناء الدفاعى الذى ينبغى تنظيمه فى المجتمع الفاضل على أساس من العدالة الخالصة • ولكن كل هذا ليس سوى مظهر للحياة الفاضلة أو النظام السياسى الفاضل ، حيث يزيد الانشاء فى جملته على الاقتناء وتصبح العدالة بين الناس هى الأمر الطبيعى •

وينبغى أن يكون المبدأ السائد فى السياسة وفى الحياة الخاصة هو العمل على تنمية كل ما هو انشائى ، وبالتالى الاقلال من النزعات والرغبات

الاقتنائية · والدولة فى شكلها الحالى رمز للنزعات الاقتنائية الى حد بعيد ، فهى فى الداخل تحمى الغنى ضد الفقير ، وفى الخارج تستعمل القوة لاستغلال الشعوب الضعيفة ولمنافسة الدول الأخرى · ونظامنا الاقتصادى كله قائم على الاقتناء وحده ، ومع ذلك فان انتاج السلع انشاء ، ولولا أنه عمل آلى بحت وممل لكان من الممكن أن يصبح أداة لتنشيط النزعة الانشائية،ويمكن أن نجنى كثيرا فىهذا الاتجاه لو أن منتجى كل سلعة كونوا نوعا من المجتمع الديمقراطى المستقل فيما بينهم ، تحت اشراف الدولة ، فيما يختص بثمن السلعة ، لا فى طريقة انتاجها ·

أما التعليم والزواج والدين فهى فىأساسها أمور انشائية ، ولكن تدخل الدوافع الاقتنائية أفسدها جميعا · فالتعليم يعتبر عادة وسيلة لابقاء الحالة على ما هى عليه ، وذلك بغرسه للتحيز ، بدلا من خلقه للفكر الحر وللنظرة النبيلة للأمور ، عن طريقايجاد المشاعر الكريمة وبث روح المغامرة العقلية· وفى الزواج نجد الحب ، وهو انشائى ، مقيدا بسلاسل الغيرة وهى اقتنائية · والدين الذى ينبغى أن يعمل على تحرير التصور الروحى الانشائى ، يوجّه جهوده الى كبت حياة الغريزة ومكافحة الفكر الهدام · وفى كل ما تقدم يحل الخوف الناشىء عن عدم ثبات الملكية محل الأمل الذى توحى به القوى الانشائية · ونحن نعلم أن الرغبة فى اغتصاب مال الغير شىء من الوجهة النظرية · ولكن خوف الناس من أن يغتصب مالهم لا يقل سوءا · ومع ذلك فان هذين الدافعين يتحكمان فيما بينهما فى تسعة أعشار الشئون السياسية والحياة الخاصة ·

ان النزعات الانشائية لدى مختلف الناس متناسقة أصلا ، اذ أن ما ينشئه شخص لا يمكن أن يكون عائقا فى سبيل ما يرغب شخص آخر فى انشائه · والنزعة الاقتنائية هى التى تسبب النزاع ، وعلى الرغم من أن النزعتين الانشائية والاقتنائية متضادتان من الناحية الخلقية والسياسية الا أنهما من الناحية السيكولوجية متقاربتان ، فقد تنقلب أى منهما فتصبح الأخرى حسب الحوادث والظروف والفرص · وينبغى دراسة تكوين النزعات والأسباب التى تعمل على تحويلها ، كما يجب أن نعمل على أن يكون

التعليم والنظم الاجتماعية بحيث يدعمان النزعات المتجانسة عند مختلف الأشخاص • وبحيث يضعفان تلك التى ينشأ عنها صدام • وأنا لا أشك أن ما يمكن تحقيقه فى هذا الاتجاه لا يكاد يقف عند حد •

ان النزعة لا الارادة هى التى يمكن أن تستمد حياة الفرد وحياة المجتمع عن طريقها ما للاتجاه الواحد من قوة ووحدة • والارادة نوعان ، أحدهما موجه الى الخارج والآخر موجه الى الداخل • والأول تثيره العقبات التى يصادفها الشخص سواء كانت ناشئة عن معارضة اشخاص آخرين أو عن صعوبة فنية فى العمل الذى يقوم به الشخص • وهذا النوع من الارادة هو تعبير عن نزعة أو رغبة قوية عندما يكون النجاح الفورى مستحيلا ، وهو يوجد لدى من تتسم حياتهم بالنشاط والقوة ، ولا يصيبه الانحلال الا عندما تضعف قواهم الحيوية ، وهو ضرورى للنجاح فى الأعمال الصعبة ، وبدونه لا يكاد يتم أى عمل عظيم •

أما نوع الارادة الموجهة الى الداخل فليس ضروريا الا اذا كان هناك تضارب داخلى بين النزعات أو بين الرغبات ، والشخص ذو الطبيعة المتناسقة تناسقا تاما ـ وهو أمر يكاد يكون مستحيلا ـ لا حاجة به الى هذا النوع من الارادة • ففى كل الأشخاص تقوم نزعات لا تتفق والهدف الأساسى لكل منهم ، ويجب كبت هذه النزعات اذا أريد ألا تصبح حياتهم فى مجموعها فاشلة ، ولكن هذا أقل حدوثا فى الأشخاص الذين تكون نزعاتهم الأساسية أقوى ، كما أنه أقل حدوثا فى المجتمع الذى يهدف الى الحرية ، منه فى مجتمع مثل مجتمعنا الملىء بالتضارب المصطنع الناشىء عن نظم عفى عليها الدهر ، وعن رأى عام مستبد • ان القدرة على استعمال الارادة الداخلية ، حينما تتاح الفرصة ، لابد أن يحتاج اليها دائما أولئك الذين يريدون أن تتضمن حياتهم هدفا أساسيا ، الا أن الحاجة اليها تقل ، وتصبح فى ذاتها أقل أهمية ، فى ظل نظم أفضل من النظم الحالية • وهذه النتيجة مرغوب فيها جدا ، لأن الارادة ، عندما تكبت نزعات لا يكون ضررها الا عارضا ، تضيع قوة كان أجدى على الانسان أن يوجهها للتغلب على العقبات الخارجية ، واذا كانت النزعات المكبوتة قوية وجدية فان قوى

حيوية موجودة تضيع هباء • وليس منتظرا أن تظل الحياة المليئة بأنواع الكبت حياة نشطة ، بل لا بد أن تصبح قلقة خالية من الحماسة • وتموت النزعة فى الغالب اذا ظلت تكبت باستمرار ، واذا لم تمت فقد تعمل فى الخفاء على صورة أسوأ بكثير من تلك التى تكبت • ولهذه الأسباب ينبغى أن نتجنب بقدر الامكان استعمال الارادة الداخلية ، وينبغى أن يكون التناسق فى التصرفات نتيجة لتناسق النزعات لا لتسليط الارادة على النزعة •

ويجب الا يتطلب توحيد الحياة كبت الرغبات العارضة التى ترفه عن الانسان ، بل على العكس من ذلك ينبغى العمل على تيسير الجمع بين الهدف الأساسى فى الحياة وكل أنواع الترفيه التى لا تكون ضارة بطبيعتها • فأمثال تلك الأمور التى من قبيل الادمان على شرب الخمر وتعاطى المخدرات، والرياضة القاسية ، والتلذذ بايلام الغير ، جميعها ضارة فى ذاتها ، ولكن معظـــم ألوان الترفيه التى يتمتع بها الرجل المتمـــدين عادة ، تكون اما غير ضارة مطلقا ، واما أن يكون ضررها عارضا لسبب من الأسباب التى يمكن تجنبها فى مجتمع أفضل • وليس المطلوب هو أن يكون المرء متقشفا أو متطهرا غاليا فى الطهر ، ولكن المطلوب هو أن تكون لديه القدرة على توجيه نزعاته ورغباته نحو أهداف انشائية عظيمة • وعنـــدما تكون الرغبات والنزعات التى من هذا النوع نشيطة ، فانها تحمل معها ، من ذاتها ، كل ما يجعل الحياة طيبة •

وعلى الرغم من أنه يجب أن يكون للترفيـــه والمخاطرة نصـــيبهما فى حياة الانسان ، فانه يستحيل خلق حياة فاضلة اذا كان هذا الترفيه وتلك المخاطرة هما الهدف الأساسى لهذه الحياة ، اذ أن « الذاتيـــة » ، أو عادة توجيه الفكر والرغبات نحو حالاتنا العقلية نفسها بدلا من توجيهها نحـــو موضوع خارج عن أنفسنا ، تنتهى بنا الى أن تصبح حياتنا تافهة قاصرة عن التقدم • والشخص الذى يجعل الترفيه غايته من الحياة ، لا يلبث أن يفقد بالتدريج اهتمامه بالأشياء التى تعود أن يســـتمد منها السرور ، لأنه لا يقدرها لذاتها ، ولكن لما تثيره فى نفسه من احساسات • وعندما تفقد هذه الأشياء أهميتها بالنسبة له يعتريه السأم ، ويبحث عن مثيرات أخرى لا

تلبث بدورها أن تفقد أهميتها فى نفسه • والترفيه يتألف من مجموعات من اللحظات التى تمر وليس بينها عنصر استمرار أساسى يربطها ، أما الهدف الذى يجعل من الحياة وحدة فهو يتطلب بعض النشاط الطويل المدى ، وهو أقرب الى بناء تمثال ضخم منه الى بناء قصور على الرمال كما يفعل الأطفال •

« وللذاتية » صور أخرى ، فضلا عن البحث عن الترفيه ، فكثير من الناس عندما يقعون فى الحب تهمهم احساساتهم الشخصية أكثر مما يهمهم الشخص الذى يحبون ، ومثل هذا الحب لايؤدى الى أى اتحاد حقيقى ، بل يترك عوامل التفرقة قائمة على حالها • وحالما تخبو العاطفة فان العلاقة تكون قد استنفدت أغراضها ، ولا يعود ثمة من دافع لاســـتمرارها • وقد عملت العقيدة البروتستانتية من ناحية ، وقواعد الفضيلة من ناحية أخرى ، على زيادة ضرر « الذاتية » اذ وجهتا اهتمام الناس نحو الخطيئة والحالة الروحية بدلا من توجيهه نحو العالم الخارجى وعلاقتنا به •

وليس من بين هذه الصور من « الذاتية » ما يحول دون أن تصبح حياة الشخص تافهة ومطوية • ان الحياة التى تصدر عن نزعات قوية سائدة موجهة نحو أهداف موضوعية هى وحدها التى تستطيع أن تكون وحدة كاملة راضية ، أو أن تتحد اتحادا شديدا مع حياة الآخرين •

ان الجرى وراء اللهو ، مثله فى ذلك مثل السعى وراء الفضيلة ، كلاهما يعانيان من « الذاتية » • والأبيفورية والرواقية تعانيان منها بنفس الطريقة، ومارك أوريليوس اذ يسن القوانين الفاضلة حتى يبدو فاضلا ، ليس فى الواقع شخصا ترتاح اليه النفس • والذاتية نتيجة طبيعية لحياة يزيد فيها جانب التأمل عن جانب العمل زيادة كبيرة ، ويبدو أن الأشياء الخارجية تصبح مجرد أفكار اذ اقتصر الانسان على تذكرها ، أو على الرغبة فيها ، دون أن يتمرس بها • ان ماهيتها الذاتية تصبح أقل أهمية لدينا من الأثر الذى تتركه فى عقولنا • ومثل هذه النتيجة كثيرا ما يكون مصدرها تقدم المدنية ، لأن تقدم المدنية يقلل باستمرار من الحاجة الى العمل النشيط ، ويعطى فرصة أوسع للتأمل • ولكن التأمل لا ينشأ عنه مثل هذه النتيجة السيئة ، اذا

كان تفكيرا عاملا نشيطا موجها نحو تحقيق هدف ما ، والتأمل السلبى هو وحده الذى يؤدى الى « الذاتية » • ان المطلوب هو المحافظة على الاتحاد الوثيق بين التأمل من جهة ، والنزعات والرغبات من جهة أخرى ، بحيث يصبح دائما هو نفسه نشاطا ذا هدف موضوعى ، والا قام بين التأمل والنزعة عداء تكون نتيجته خسارة لكليهما •

ولكى نجعل حياة المتوسطين من الناس رجالا ونساء أقل تفككا وفرقة ، ولكى نتيح فرصة أوسع لتحقيق النزعات الانشائية ، فلا يكفى أن نكون على علم بالأهداف التى نريد الوصول اليها ، أو أن نتكلم عن محاسن الرغبات التى نود تحقيقها • بل من الضرورى أن نفهم أثر النظم والمعتقدات فى حياة النزعة ، وأن نكشف الطرق المثلى لتحسين هذا الأثر بتغيير النظم • وعندما يتم هذا العمل العقلى ينبغى أن نعمل على ربطه بقوة سياسية فعالة ، والا كان تفكيرنا عقيما • والقوة السياسية الوحيدة الفعالة التى يمكن أن تساعد فى احداث التغييرات المطلوبة هى « العمل » • والتغييرات المرغوب فيها هى من ذلك النوع الذى يتوقع أن يرحب بها « العمل » • وبخاصة فى الأوقات العصبية التى تعقب الحرب • ومن المؤكد أن التبرم سوف يسود بين العمال فى جميع أنحاء أوربا بعد الحرب ، كما أنه من المؤكد أيضا أن تتكون قوة سياسية تغدو وسيلة لاحداث تغيير عظيم شامل •

والعالم المتمدين مفتقر الى تغيير أساسى اذ أردنا أن نجنبه الانهيار : تغيير فى النظام الاقتصادى وفى فلسفة الحياة • وأولئك الذين يشعرون بان الحاجة ماسة الى هذا التغيير ينبغى الا يقعدهم اليأس فيظلوا مكتوفى الأيدى • وبوسعنا أن نكتشف نوع التغيير المطلوب وأن نبشر به بين الناس ـ ذلك النوع من التغيير الذى يحافظ على كل ما هو ايجابى فى المعتقدات الحيوية السائدة فى عصرنا ، ونحن اذا استأصلنا ما هو سلبى تافه يتبقى لدينا نسق موحد يستطيع أن يضم كل العناصر غير الرجعية البحتة • وعندما يتضح لنا نوع التغيير المطلوب ، يصبح من الممكن بحث عناصره بتفصيل أوفى • الا أنه لا فائدة من الجرى وراء التفاصيل قبل أن تضع الحرب أوزارها مادمنا لا نعرف صورة العالم الذى سوف يتخلف عن

هذه الحرب • والأمر الوحيد الذى يبدو مؤكدا هو أن العالم الجديد الذى سيأتى بعدها سيكون فى حاجة الى قدر كبير من الآراء الجديدة ، وذلك لأن اراء السلف التقليدية لن تكون لها قيمة تذكر • وواضح أن أكثر تصرفات الناس أهمية لا تصدر عن الدوافع التى تؤكد لنا الفلسفات السياسية التقليدية أنها تصدر عنها • فالنزعات التى أدت الى الحرب وعاونت على استمرارها تأتى من مصدر أشد غورا مما تصدر عنه معظم المناقشات السياسية • كما أن معارضة الحرب ، لدى القلة التى عارضتها ، انما تنبعث من نفس هذه الأعماق • والنظرية السياسية التى تستطيع أن تصمد فى أوقات الشدة هى تلك التى تحسب حساب النزعات التى توجد وراء التفكير الظاهرى ، وأن تجتذب هذه النزعات وتعمل على جعلها نزعات منتجة بدلا من أن تكون نزعات مدمرة •

ان للنظم الاقتصادية أثرا بعيدا فى الرقى بالحياة أو تدميرها • والنظام الصناعى الحالى هو أكثر الأنظمة التى ظهرت فى الوجود تدميرا للحياة ، باستثناء نظام الرق • ولا سبيل الى التخلص من الآلة والانتاج الكبير ، بل يجب الابقاء عليهما فى أى نظام آخر يحل محل النظام الذى نعيش فى ظله • وخير ما ينبغى أن يتجه اليه الاصلاح المنشود هو على الأرجح نظام « الاتحاد الصناعى الديمقراطى » •

ولفلسفات الحياة ـ اذا كانت واسعة الانتشار ـ تأثير بعيد المدى فى حيوية المجتمع • وأكثر الفلسفات التى يقبل عليها الناس فى الوقت الحاضر هى تلك التى تقول بأن دخل الانسان هو أهم العوامل التى تؤثر فى سعادته ، وهذه الفلسفة ـ بغض النظر عن نقائصها الأخرى ـ فلسفة ضارة لأنها تحث الناس على استهداف غاية بدلا من تشجيع نزعات انشائية تتمثل فيها فردية كل شخص على حدة • كما أن الفلسفات الأكثر تهذيبا ، كتلك التى يغرسها التعليم العالى فى النفوس ، غالبا ما تحول الاهتمام الى الماضى بدلا من تحويله الى المستقبل ، والى السلوك المهذب بدلا من النشاط الايجابى • ولن يجد الناس فى مثل هذه الفلسفات تلك القوة

التى تعينهم على سهولة حمل عبء التقاليد وعبء المعرفة التى تتزايد بلا انقطاع •

ان العالم فى حاجة الى فلسفة أو دين يعمل على تنمية الحياة • ولكنا اذا أردنا أن نساعد على نمو الحياة فيجب أن يكون لدينا شىء آخر نقدره غير الحياة نفسها • فان الكائن الحى الذى ليس له من هدف سوى الحياة نفسها • حيوان ليس فيه من القيم الانسانية الحقيقية شىء ، وحياة هذا هدفها لا تستطيع أن تحمى الناس بصفة مستديمة من الملل والشعور بأن كل شىء باطل • فلكى تكون الحياة انسانية بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، يجب أن نجعلها تهدف الى تحقيق غاية تبدو ـ بصورة ما ـ خارج نطاق الحياة البشرية ، غاية غير شخصية وفوق مستوى البشر ، مثل الله أو الحقيقة أو الجمال • وليست الحياة نفسها غاية لمن يعملون على تنمية الحياة خيرا مما يعمل لذلك غيرهم • فهم يهدفون الى ما يبدو أنه تجسد تدريجى ، الى خلق عنصر أبدى فى حياتنا البشرية ، لها سمة الخلود الذى يبدو لاخيلتنا كأنه لا يكون الا فى جنه لا كدح فيها ولا اخفاق ، جنة لا يعدو عليها الزمن المفترس الذى تصل مخالبه الى كل شىء • ان اتصالنا بهذا العالم الخالد ـ ولو كان عالما من صنع مخيلتنا ـ يمدنا بقوة وسلام وطيد لا تستطيع القضاء عليهما مرارة الكفاح والاخفاق السطحى اللذين يعرضان لنا فى حياتنا الموقوتة • والتأمل السعيد فيما هو خالد هو ما يسميه سبينوزا ، محبتنا الله محبة ذهنية ، تلك المحبة التى هى مفتاح الحكمة لمن عرفوها ولو مرة واحدة •

ان ما يجب علينا أن نؤديه من عمل يختلف بالقياس الى كل منا وفق كفاياته ، وما يتهيأ له من فرص ، ولكن ما يجب علينا عمله ، أو ما يجب علينا تركه ، لا يمكن أن يتجلى لنا الا اذا كان فينا قدر من الحياة الروحية ، ونحن بايجاد رابطة بيننا وبين عالم الخلود ، وبتكريس حياتنا لاشاعة جانب من الروح الالهى فى هذا العالم المضطرب ، نستطيع أن نجعل من حياتنا أداة انشائية حتى فى هذا الوقت المضطرب وحتى فى هذا الخضم الجياش بألوان القسوة والنضال والكراهية التى تنتابنا من كل جانب • ان جعل

حياة الفرد حياة انشائية فى مجتمع يقوم على الاقتناء ، أصعب من جعلها انشائية فى المجتمع الذى تستطيع الجهود البشرية أن تقيمه فى المستقبل . ولابد من أن يعانى أولئك الذين كتب عليهم أن ينهضوا بتجديد العـــالم الأمرين من الوحشة والمعارضة والفقر وقدح القادحين . ولهذا يجب أن تكون لديهم القدرة على الحياة التى قوامها الصدق والمحبة ، والتى يحدوهم فيها الأمل الذى لا يقهر ، كما يجب أن يكونوا أمناء حكماء لا يهابون شيئا وأن يحدوهم غرض واحد لايتغير . انجماعة منالرجال والنساءهذه صفاتهم سينتصرون ولابد ، وسينتصرون أول الامر على الصعوبات وألوان الحيرة التى تكون فى حياة كل فرد منهم . ثم ينتصرون بعد وقت قد يكون طويلا جدا ، على من حولهم . فالحكمة والأمل هما الشيئان اللذان يحتاج اليهما العالم ، وعلى الرغم من أن العالم يقف الآن فى سبيلهما ، الا انه سيقدرهما قدرهما آخر الامر .

فعندما اجتاح البرابرة روما ونهبوها سماها القـــديس اوجستين « مدينة الله واستعاض بالامل الروحى عن الحقيقة المادية التى أصابهـــا التدمير . ثم عاش الأمل ، وظل مصدرا للحياة خلال القـــرون التى تلت أوجستين ، بينما انحدرت روما فاصبحت قرية من العشش والزرائب . ونحن أيضا فى حاجة الى أمل جديد لنبنى بتفكيرنا عالما أفضل من ذلك العالم الذى يقود نفسه آلى الدمار .

والمجهود المطلوب منا بذله فى هذه الظروف السيئة أكبر مما لو كانت الظروف عادية ، ولن ينقذ الأجيال القادمة من الموت الذى أصاب جيلنا هذا الذى نعرفه ونحبه الا شعلة علوية من الفكر والروح .

وقد كان من حسن حظى أن اتصلت بصفتى مدرسا بعدد من الشباب من مختلف الجنسيات ، شبان فيهم الأمل وفيهم الطاقة الانشائية اللازمة لتحقيق جزء على الأقل من الجمال الذى يتردد صداه فى نفوسهم ، والذى هم به يعيشون ، فجرفهم تيار الحرب ، وأصبح بعضهم فى هذا الجانب ، وأصبح بعضهم فى الجانب الآخر ، وبعضهم لا يزال فى ميدان القتال ، وبعضهم قد

قضى نحبه ، وأصبح بعضهم عاجزا مدى الحياة • ومن أولئك الذين سيبقون على قيد الحياة بعد الحرب كثيرون ممن يخشى أن يكونوا قد فقدوا حياتهم الروحية ، وأن يكون قد خبا فيهم ذلك الأمل فتضيع هذه الطاقة هباء ، وتصبح أيامهم الباقية في هذه الحياة رحلة مرهقة الى القبر • وتلقاء هذه المأساة كلها نرى عددا ليس بالقليل ممن يقومون بمهمة التعليم وكأنهم لا يحسون بها •

فهم يثبتون بمنطقهم القاسى الذى لا يرحم أن هؤلاء الشبان قد ضحى بهم تضحية لم يكن منها بد فى سبيل بعض الغايات العامة الباردة ••• يقولون ذلك دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث ، ثم لا يلبثون أن ينعموا ببرد الراحة بعد انفعالة طارئة • وأمثال هؤلاء قد ماتت فيهم الحياة الروحية ولو أنها كانت حية لاندفعت للقاء أرواح أولئك الشبان يحدوها حب مكين كحب الأب والأم ، غير شاعرة بأن ثمة ما يفصل نفوسهم من نفوسهم ، مؤمنين بأن مأساة هؤلاء الشبان هى مأساتهم ، ولارتفع صوت يصيح « **كلا ، ان هذا ليس حقا ، انه ليس عدلا ، ان هذه القضية لا يمكن أن تكون قضية مقدسة تلك التى تخبو فيها زهرة الشباب وتدمر • اننا نحن الكبار الذين أجرمنا ، فنحن الذين أرسلنا هذا الشباب الى ميدان القتال بسبب شهواتنا الخبيثة ، وبسبب مواتنا الروحى ، واخفاقنا فى أن نعيش كرماء مع الناس ، نعيش يحدونا دفء قلوبنا ، وبهدى من ايحاء أرواحنـــا الذى لا ينضب • فلننج بأنفسنا من هذا الم[illegible] ، لأننا نحن الأموات لا هؤلاء الشبان الذين قضوا نحبهم بسبب خوفنا نحن من الحياة • ان أشباحهم أكثر منا حياة ، وهى تصمنا فى أعين الأجيال القادمة كلها بوصمة الخزى والعار • فمن أطيافهم لا بد أن تنبثق الحياة ، ونحن الذين ينبغى أن تبث أطيافهم الحياة فينا** » •

فهرس

	صفحة
مقدمة الترجمة	٥
تقديم	١٣
(١) أساس النمو	١٥
(٢) الدولة	٣٩
(٣) الحرب بوصفها نظاما	٦٣
(٤) الملكية	٨٩
(٥) التربية	١١١
(٦) الزواج ومشكلة السكان	١٣١
(٧) الدين والمذاهب الدينية	١٥٥
(٨) الذى نستطيع عمله	١٧٥

الإشـراف اللغـوى : عبد الرحمن حجازى
الإشـراف الفنـى : حـــسن كـــامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

برتراند رسل

نحو عالم أفضل

ليس فى العالم كله مَنْ ينكر قيمة آراء رسل الإصلاحية فى كل فرع من فروع الحياة ، ولا سيما فيما يمس الشئون السياسية ، أو شئون التعليم ، أو الإصلاح الاجتماعى فى جميع نواحيه .

لقد انتشر هذا الكتاب فى العالم أجمع ، وكانت الآراء التى جاءت فيه قد لقيت العناية التى هى جديرة بها من ساسة العالم ومفكريه أجمعين .

التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد
لوحة الغلاف: محمود مراد